

احتراق الفراشات

الطبعة الأولى

1440 هـ

2018 م

اسم الكتاب: احتراق الفراشات

التأليف: نبيلة الوليدي

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 344 صفحة

عدد الملازم: 21.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2018/23474

الترقيم الدولي: 4 - 624 - 278 - 977 - 978



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

إدارة النشر للثقافة والعلوم



elbasheer.marketing@gmail.com



elbasheernashr@gmail.com



01152806533 - 01012355714

احتراق الفراشات

للروائية

نبيلة الوليدي

دار البشير للثقافة والمعرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى الأمة الغائبة..

إلى البشرية المخدوعة..

إلى وطني الجريح..

القسم الأول

انتحار الفراشة

هل كانت ماريا في حالة جنون مؤقت حين وقفت على عتبة بابها بعد العصر صائحة، نائحة بفزع ومقلقة جميع سكان حي الدار شمسي:

- النيران تلتهم حي الثورة، القذائف طالت جميع المباني، يا ويلي منك ويا ويلي عليك يا لبيبة!

بعدها.. ركضت حافية القدمين على الزقاق المضي لبيت شمس.

طرقت على بابها بقوة وهي تهذي وتلعن:

- لعنة الله على من ضيّعنا، أحرقوا البلاد وأهلكوها بأفعالهم القبيحة، قتلوا الناس بغنائهم. أين أنت يا شمس.. أين أنتم يا بقية أهلي؟

فتحت شمس الباب على عجل، صاحت بها ماريا:

- أين أخوك ماجد ليذهب ويرى ماذا حدث لأختنا المحاصرة هناك؟

تسمّرت شمس ببقعتها لوهلة بعدما صعقتها الأنباء، تجمدت الدماء في عروقها من ولولة ماريا على لبيبة.

صبّت ماريا تلك العبارات على مسامع شمس ومضت.

همست شمس:

- بمن أستنجد؟! أمير في السوق وماجد في المصنع.

دون تفكير طويل، ارتدت شمس ملابس الخروج على عجل وهرعت من فورها متجهة نحو الشارع الرئيسي.

سارت تحثها المخاوف، قدماها تركب الريح، ودقات قلبها عويل مآتم يصم أذنيها عن سماع دوي المدافع وأزيز الرصاص الآتي من وسط المدينة. مضت عبر طرقات خالية وسؤال يجلدتها بقسوة:

- هل قتلوا لبيبة؟ منذ أيام لم نسمع لها حسا، جوالها مغلق طوال الوقت، وزوجها طار مع العاصفة.

خلا حي الثورة من معظم سكانه عند اشتعال أول شرارة للحرب في تعز، وبعد نزوح دام شهوْرًا رجعت لبيبة إلى بيتها بعد كذبة ممجوجة عن تحرير المدينة.

يومها عاد نازحون كثر، لكن الحوثيون بددوا الأكذوبة سريعا حين أرسلوا صاروخ كاتيوشا على فندق قريب من منزل لبيبة، وأمطروا حي الثورة بقذائف الهاون، وأصابت واحدة منها جار لبيبة العائد للتو من نزوح مؤلم، قضت القذيفة عليه وعلى زوجته وسبعة من أبنائه حال ترجلهم من حافلة ركاب.

ركض بقية العائدين فرارًا نحو درب النزوح الذي جاءوا عبره.

سَلِمَت لبيبة وبنيها، لكنها بقيت هناك!

حين سمعت شمس للتو من ماريا أخبار حي الثورة وتدهور الأوضاع فيه تاه رشدھا وخرجت عن طور التعقل والرزانة.

مضت نحو لبية ذاهلة عن كل شيء إلا عن مشهد خيف يتكرر في
خيلتها، تقطعت أنفاسها هلعاً وتمزقت روحها من قبحه..

ركضت على الطريق الخالية من الناس وهي تحدث نفسها بصوت خفيض:
- ما هذه الطامة التي تكتسح البلد؟! مدن منكوبة نامت قروناً وصحت
بغثة على عزف ريح ناحب.

البلدة الطيبة صارت مسلخاً لكل ما هو ثابت وأزلي.. غزاها اضطراب
عنيف، زلزال ضرب ناموس القيم.. ضيّع تاريخاً وأهلاً ووطناً.. تاه الناس
وتبعثروا في مهب زوبعة انتفضت من جراب شيطان، والمتشبث على حافة
البقاء رمد العين والخاطر، مطرود من سكينته، مهاجر في دروب منسية،
تلفحه سموم الغدر ويبحث عبثاً عن بقايا وطن تحت الرماد!

شعب يُسحق بين فكي وحش مستذئب دون محاكمة، يُصلب دون ذنب!
غيتك يا وطني دهرًا، وطحنت بين رحي وجعك بعضي..
علمني يا وطني كيف أحبك دون ألم؟! دون أن تقتل كلي وأهلي! يا رب
تكوني بخير يا لبية.

أيتها الشرور كفي عنا، تعبنا كثيرًا، غاب زمن الحب والأيام الخضراء،
وحضر الزمن اليابس..

آه يا ربي؛ من يمكنه قياس مساحة وجعي؟! من يكنس هذا القبح
اليأجوجي المتعاضم حولي؟!

حربي ليست مع الأشياء.. حربي ضد القبح.. من يمكنه نسف القبح
المكتسح لهذا الكون؟!

قابعة في مدينتي.. كافية العالم شري.. جاءوا يجرعوني كؤوس القهر..
 لأي شيء؟! لست أدري!
 فقط؛ ليتني أدري!

روحك يا أبتى نبضي، تحرقني شعلة رفض.. ليتك يا أبتى كنت خوّاناً؛
 حينها كنت سأسلو وأهو ويرفعني النحاسون في سوق بيع الأوطان ويهتفون
 حولي جاءت البطلة! قالت البطلة! عاشت البطلة!

كنت سأغدو خوّانة بنیشان وشارة.. تحيط بها الأضواء، وتجلس على
 كرسي العرش، عرش منحوت من عظام الأبرياء!

لكني بسبب إبانك مجرد إنسانة، نكرة، مرابطة في زمن التخاذل، أمشي
 بأحذية مهترئة على طرقات بلدي، أروي روحي من هواها وأتشق عبق
 ترابها. محبة أنا في زمن الحقد!

أركض لأتفقد حال شقيقتي وسط النيران، ما زلت أسير بشموخ تحت
 القصف وبين شفرات الردى، لا أبالي رغم الجوع وغصص الظلم، ما زلت
 أشعر بوجع الإنسان في كل مكان!

إنسانة أنا؛ لأنني ابتكت ولأنك أبي.. مثلي كثير في وطني، نحن ضرب
 من الخرافة والمستحيل في زمن الزور والبهتان، نحن في نظر العالم كائنات
 منقرضة!

العالم المادي لا يعجبه رؤية صورة منسية للإنسانية، تتجلى لترسم عالماً
 جديداً على الخريطة تضيء وسط الظلمات معرّية أكذوبة حاضره التقدمي!

لمع خاطر في ذهنها.. أرعبها؛ نفضته عن خاطرها ومضت وهي تهذي:
 - اشتقت لصديقتي، فراشات الحرية اللاتي طفن دهرًا حول الضوء؛
 فاحترق بعضهن ودفن تحت تراب وطن أحبينه حدّ الفناء، والبعض الآخر
 لازم بالفرار؛ حتى نسرّين رغم شجاعتهما خافت وهربت.. وها هي كل يوم
 تنشر على صفحتها على فيس بوك منشور شجب واعتراض!

لقد غدت فراشة بلا ألوان، ثائرة في منفى اختياري، تبكي أهلاً ووطناً
 على غصن أعجف بشجرة الغربة المتيسية، تتمنى العودة إلى بلدها رغم الموت
 المرسل برّاً وجوّاً وبحراً!

كانت صرّحاً هائلاً للعطاء.. قاومت مراراً؛ لكنها ضعفت أمام طوفان
 الحرب، فتركت ثغر صرحها دون حراسة! دون بديل!

أما حازم العاقل، الحليم؛ فقد احتضن معول الثأر، وتأبط سلاحاً لم يعتده
 من قبل.

غرز خنجرًا مسمومًا في سُرّ أحلامه الوردية، وطار كبوم أصم ببوق
 كبير يزعق على سفوح الخراب، يختال منتشياً بكؤوس الردى المدارة في
 حانات العهر السياسي!

ترك فراشته الفاتنة ممزقة، بقايا امرأة؛ صديقتي الأثيرة "يمن".. كل
 صباح تجلّدي بسؤال مشنوق بين أحداقها المتحجرة، متهدج على نغمة
 صوت حزين:

- هل رجع حبيبي حازم؟!

أجيبها بالنفي، بعد برهة تعود لتسألني عنه مجدداً؛ صارت كسيرة الروح،
مشتتة الذهن كطفلة تاهت منذ عام في الزحام!

أما سامية فقد غابت عن الوعي، وما زالت غائبة، هي لم تمت ولن
تستيقظ! ستبقى في برزخ هروب، لا ندري متى سترجع أو تموت!

كانت منذ بدء الحرب تتمنى بأن تصير مثل أصحاب الكهف.. ترقد
طويلاً، وتُبعث يوم يرجع الإنسان إنساناً.

كنت أضحك من أمنيته الساذجة وأقول لها:

- ذهبت أيام المعجزات يا صديقتي!

لم أكن أعلم بأن سامية من أهل الزمن الصادق النادر.. صدّق الله حلمها
وتحققت المعجزة!

أما زوجها ماهر فقد ركب موجة الغضب وابتعد، ظن بأنه نجا.. لكن
طيف سامية استحال غلاً مسخناً، التف حول عنقه للأبد!

يا ويلى.. ما لهذا الطريق طال؟! أشعر بأني أسير للوراء! أينك يا بساط
الريح لتوصلني عند لبية، فأراها لمرة واحدة، وبعدها خذني حيثما تشاء.

عندما كنت طفلة كنت أراني في المنام أطيّر دون أجنحة..

حلّقت كل ليلة لسنوات عدة في فضاء مدينتي الحاملة، رأيت قمم جبال
صبر المحيطة بها، ووديانها المكتظة بمساكن البشر، لكنني لم أرهم.. تمنيت
أن أرى أبي وهو يخرج باكراً للعمل، تمنيت لو أن شقيقتي السبع وصديقتي
ورفقاء لعبي يطرون معي؛ فنغدو كسرب فراشات ملونة، نطوف العالم
ونرى ماذا يوجد هناك في تلك البلدان البعيدة التي نسمع عنها ولم نرها..

كانت لبية حينها طفلة جميلة ذات عينين واسعتين وخطود متوردة، مرحلة جدًّا ودائمة الضحك. قالت لي مرة بأنها لا ترى أحلامًا في منامها، فاندھشت لذلك كثيرًا! وكتمت فرحًا في نفسي لأنني أرى تلك الأحلام الجميلة.. عندما كبرت لبية وصارت أمًّا غدت عنيدة رغم حنانها ولطفها، كم توسلت لها لتبقى في بيت أختنا سالي حتى تنتهي المعارك ويسكت السلاح، لكنها أبت!

اقتربت شمس من مفترق الموت والحياة؛ فسكنت هواجسها، تعملق ذلك الخاطر أمامها من جديد، تجمدت لوهلة من رهبة حضوره، ثم قررت تجاهله.

بترقب طالعت السكة.. على يسارها سوق جولة القصر، وفي اليمين يمتد الطريق الموصل إلى هضبة حي الثورة، حث خطاها متممة بتوسل:
- أرجو ألا يراني أمير.

الشاب المتأنق المثقف، المحاضر والمدرّب؛ صار بيّاعًا متجولًا، يبيع طوال النهار حزمة خبز، يعود في المساء من عمله الجديد ملفوح الوجه، متيسس الشفاه من طول العطش والركض المستمر لمطاردة الركاب في محطة السيارات.. أما الريح فهو بضع ورقات لا تسمن ولا تغني من جوع! ماذا عساها تصنع في مواجهة وحش الغلاء؟!

يتأمل يوما سيّاه؛ شيخ كبير يجلّله بنظرات رثاء، ينهال عليه بعبارات عطف، ويشترى منه بضعة أكياس، ربما اشتراها شفقة، ويمضي صائحًا:

- الله يهين الذي أهانكم يا ولدي، تبدو لي شابًّا متعلّمًا، والله هذا العمل لا يليق بك!

أمضّ جرحه بعطفه وتركه ومضى!

تعبت شمس من المشي السريع، توقفت لتسترد أنفاسها، فتذكرت فجيعتها بضياح سمر! يوم هربت صديقتها سمر بقيت شمس ذاهلة لزمن، غير مصدقة النبأ.. قطع أهل سمر المدينة شرقاً وغرباً بحثاً عنها؛ لكنهم لم يجدوا لها أثراً. التقى ماهر بمحمود - خطيب سمر المزعوم - والذي استعذب خوض غمار مغامرة انتحارية لزمن ثم اختفى فجأة؛ ليظهر في جيوتي متأبطاً ذراع شابة فاتنة تنهادى معه ببطن منفوخة. سأله ماهر بتعجب:

- من هذه؟!

أجابه محمود بلكنة ساخرة:

- إنها أختي.

تعجب ماهر دون أن ينبس ببنت شفة، أما داخله فكان يعلم أن محمود لم يكن له في يوم ما أخوات!

حين سمعت يمن بكذبة محمود المموجة قالت وهي تهز كتفيها:

- لا غرابة.. كل شيء صار ممكناً في هذا الزمان!

واصلت شمس السير بخطوات أوسع.. تنهدت:

- آه يا وطني.. كلّي مبعثر بين أجزاءك، مليحة وبشرى على شواطئ عدن ينتظرن الموت تمزقاً بين مخالب إعصار شابالا، حتى الأعاصير جاءت لتصب جام سخطها على هذه البلاد! أيّ غضب نزل من سفر الأقدار ليحط في وطني؟!

كشّر ذلك الخاطر عن أنيابه وغرزها في وجدانها، أحسّت بوخز في قلبها،
توهمت جسدها يرتطم بحاجز غير مرئي، توقفت رغماً عنها:

- أين صرت؟!

صوت داخلي يحيبها:

- لقد اقتربت من بلوغ هدفك يا شمس، صرتِ على بعد خطوات من
خط التماس، خطوة وأخرى وتصبحين بمرمى القناصة، على اليمين قناصة
المقاومة، وعلى اليسار قناصة الميليشيا والجيش!

ابتسمت ساخرة:

- لو أن مي وأخوتها معي الآن لتعلموا كيف تكون لعبة الميليشيا
والمقاومة، إنهم يتشاجرون كل يوم وهم يلعبون حول من سيلعب دور
الحوثي ومن يلعب دور المقاوم؟!

تمعنت في الموقف، بدا لها الشارع المفضي لحي الثورة طويلاً ممتداً لأقصى
الأفق، ملتصقاً بالسماء، غدا مدرج عروج.. تدمرت:

- ما لهذا الطريق؛ كأن لا نهاية له؟! كنت قبل الحرب أقطعه مرات
ومرات وأنا ذاهبة لزيارة لبيبة في بيتها، أو نسرين في مركز الإرشاد، وكنت
أراه قصيراً، لماذا صار فجأة طويلاً هكذا؟! شعرت شمس باحتضار الحياة
يعزف بوق الفناء على جانبي الشارع.

بإصرار تابعت:

- لست خائفة، سوف أجتازه، ليس كل من يمر من هنا يموت!

انبعث من ذاكرتها عزف قيثارة حزين، تبعه نفخ ريح عيش كنود يضرب على وتر وجعها.. سحبت نفسا طويلاً:

- سأمضي في طريقي، رغم كل شيء ومهما كانت النتيجة، لكن مهلاً.. هل خرجت لأموت أم لأنقذ بعضي؟! لا يهم.. إن مت أو عشت؛ الأمر سيان.. لقد مللت كل ما يحدث، مللت الحرب، الفقر، انتظار عيش إنساني وسلاماً خادعاً.. سأقصر سلاماً خاصاً.. سأنتزعه من فوهة قناص!

كل يوم على مدار هذا العام كنت أرى الرصاص ينهال على الحي وحول بيتنا، لقد أمطرنا بجميع الأنواع ومن كل اتجاه، تخيلت لعشرات المرات إحداهن تخترق جمجمتي وتسكن في رأسي، في كل مرة كانت رهبة الموت تسري بين أوصالي ولا أشعر بمزعة وجع! سيكون موتي بارداً دون ألم.. بعدها سيحل السلام الأبدي.. خطوة واحدة أطوي بها النهايات التي تباعدت حتى غدت مستحيلاً يأبى أن يأتي، وبدلاً عنه أتى كل ما لا نريد!

التفتت شمس للخلف كأنها تودع شيئاً أثيراً في وجدانها، الفراغ يرسم لوحة شاحبة في المدى، انسكب شعاع الشمس المذهب المتدلي على مرتفع ناتئ في عينيها، ثم تخيلت شيئاً يتحرك، كان خيالاً أسوداً يركض نحوها؛ كشبح نحيل، يتراءى لها من بين رذاذه المشع.. همست:

- ما هذا؟! مالي وله؟! سأمضي في طريقي؛ إن لبينة في خطر، لكن.. قد أفارق الحياة؟! ما المؤسف في هذا؟! أمير سيحزن طويلاً.. أنا أحبه ولا أريد إحزانه، يسكنني حنين دائم له، لا أطيق فراقه، لكنني تعبت من انتظار سماع

خبر موت عزيز، حبيب وقريب كل يوم.. تعبت من انتظار موت يحدق بي
من كل اتجاه، كرهت دنيا ملتاثة بخبال الشرور، لم أعد أطيق رؤيتك قابيل؛
كل يوم تدفن هايلًا جديدًا.. علّمك الغراب كيف تواري سوء أخيك ولم
يعلمك كيف تواري سوءتك وقبحك!

قبل أن تحرك قدميها سمعت رجع صوت من بعيد يهتف باسمها!
تسمّرت:

أحدهم يهتف باسمي؟! يبدو أني واهمة!-

حاولت رفع قدمها عن الأرض:

- يا لثقل الخطوة!

تشعب ذلك الخاطر، وملأ كل خانات وجدانها، تسلل سُمّه كذرات
مسحورة وتحلل عروقها وعصبها ونخها.. شعرت بخدر يغزوها وكأنها
صخرة ثقيلة لا تتزحزح، أصوات تتمازج في داخلها، ريح باردة تعصف
حولها، تحز بقايا دفء يتلاشى رويدًا رويدًا.. اشتدت هجمة الريح، أحاطت
بها كأنها تدفعها للمضي، تطير أطراف عباءتها بعث جنوني، ترفع لثامها
فتكشف وجهها متيبس الملمح والأحداق، دوار يدفعها نحو هاوية غياب،
وقبل السقوط.. تمتد يد وتلتقفها!

عيون دامعة، حانية ووجه ينضح عطفًا، لم تتبين ملامحه؛ لكنها اشتمت
عبق أنفاسه، كان هو.. زوجها "أمير".

زائر بعد العصر

جلس على حافة السرير بالقرب منها وهي نائمة على ظهرها بوداعة،
كطفلة بريئة، فتحت عينيها بثقل، تأملته هنيئة:

- أمير؟!

لم يجيبها وبقي مثنياً بصره على وجهها، بدا كزوجها أمير؛ لكن ثمة شيء
غريب في هيئته ونظرات عينيه! عصفت قشعريرة شديدة بجسدها، تذكرت
بأن زوجها قد خرج قبل العصر ولم يعد بعد.

جلست بتوجس، غرزت كفيها في عطف اللحاف متسائلة:

- من أنت؟! كيف دخلت إلى البيت؟!

فرّ مضطرباً، ركض هارباً نحو حجرة المكتبة، وثبت مفارقة الفراش
وصاحت به:

- أنت لست زوجي، أمير خرج منذ ساعات.. من أنت؟!

تعثر ذلك الكائن المجهول بكومة كتب، ويلمح البصر قفزت بجسدها
نحوه وهي تهوي يديها عليه، أمسكته مطبقة كفيها على عنقه، خنقته بشدة
وهي ترتل آية الكرسي، لا تدري من أين واتها الشجاعة والقوة لفعل
ذلك؟!

جحظت عيناه وتغيرت ملامح وجهه، انقلب فجأة كمن نزع قناعاً! بدا شاباً يافعاً؛ لكنها لا تعرفه، لم تره من قبل فبالغت في إطباق كفيها على عنقه حتى كادت روحه ترهق بين يديها لولا أنها أفاقت من نومها فرعة:

- يا إلهي.. ما هذا؟!!

مسحت بطرف كمها نطف عرق غزير يجلل وجهها، بأنفاس لاهثة
تمتت بالعودتين:

- ما هذا الكابوس المريع؟!!

جف ريقها واهتزت خلجات بدنهما، ما زالت بقايا تلك القشعريرة المقرزة
عالقة بجسدها، دست كفيها تحت جنيها واستعاذت بالله من الشيطان
الرجيم.

نظرت حولها؛ كانت العتمة تلف المكان! هتفت بضجر:

- حلّ الظلام! لقد فوّت صلاة المغرب.. كيف نمت هكذا؟! نوم سقم
وخبال، صدق زوجي أمير يوم قال بأن نوم العصر يسبب الجنون!

قامت لتحسس الأشياء بحثاً عن عود الثقاب والشمعدان:

- يا الله.. حتى متى سنبقى في هذا الظلام؟ متى يستقيم حال الكهرباء في
هذه البلاد؟! والله هذا ظلم عظيم.

تعثرت بطرف ثوبها الذي علق بجزء ناتئ من باب الحجرة الخشبي،
كادت أن تقع، دوار في معمعة ظلام، تشبثت بعمود الباب وانتزعت طرف

ثوبها بعنف وغيظ، صوت تمزقه يقطع في أذنيها، استشاطت غضبا وتشعبت
غصة بكاء مكبوت في حلقها.. شوك يشج وجعها بإصرار!
تذمرت بحنق:

- يريدون الاستمرار في التنازع على السلطة والصراع إلى ما لا نهاية؟!
فليفعلوا وليحك كل منهم المكائد للآخر؛ بل وليقتتلوا بتوحش سباع
الغابات وليذهبوا إلى الجحيم.. ليت الله يهلكهم جميعا ويريجنا منهم!
يستعذبون الحرب؟ تُسكرهم رائحة الدماء؟ هذا إدمان اعتدناه منهم، لكن
لماذا يقطعون الكهرباء؟! لماذا يعاقبون جميع أفراد الشعب دون أية جناية؟! يا
رب احكم بيننا وبينهم بالحق، أنت العدل والمنتقم الجبار.

مرّت ساعات الليل الأولى عليها موحشة عصيبة بعد رؤيتها لذلك
الكابوس، حرب مع الخزعبلات، صراع الخرافة والحقيقة الأزلي.

تأخر أمير! تمددت على الكنبه بحجرة الجلوس، تنقلب على جنبها
وتستجدي سنة من نوم، كسرة هدوء حاولت أن تنحت من صخر حلم
عصي قارب سكينه، تستلهم من روحها الشفافة نبراس قوة، وطيف نور
يؤنس وحدتها.

تمتم بدعاء خفي، تستجدي غوث رحمة من رب السماء، تتضرع
لانتشالها من الغرق في لجج التفكير.

غدا الليل كتابوت يعتصرها بين دفتي كافوره، جبل من لحاء الخوف
يشق كل ذرات الهواء، طفقت تصلي لفتح نافذة نسيان!

تذكرت شمس يوم جاءت قبل بضعة أشهر مع أمها بصحبة "الدلال" لرؤية هذا البيت، بمجرد ولوجها أحسّت بانقباض في صدرها من المكان لم تعره اهتماماً، ولم تحاول فك رموزه، لقد تمرت منذ دهر على ملكة الحدس، وأقصتها من تصدر موقع اتخاذ القرار.

ندمت شمس هذه المرة - كما لم يحدث من قبل - لإقصائها حدسها يوم وضعت أول قدم لها في هذا البيت وهي لم تترحم له، أحياناً الانطباعات الأولى تكون صادقة، لكن بعد أن رأت عدة بيوت بعده رجعت إليه مرغمة، كان الأكثر نظافة، والخيار الأقل قبلاً من بين الخيارات المتاحة! ثمّة شيء آخر دفعها لاتخاذ القرار! عندما رأتها أمها تبدي تلكؤاً في الموافقة وامتعاضاً وهي تطلق انتقاداً لظلمة المطبخ، وتعليقاً على قلة الإضاءة الطبيعية في البيت، وانزعاجاً من ضيق الحجرات، صرخت في وجهها:

- أتريدين تأخير موعد الزفاف؟! لا أحب إطالة مدة العقد، ستفعلين بنفسك ما فعلته صديقتك سامية؟! لقد أضاعت شبابها وكادت أن تشيخ وهي واقفة كالبلهاء في محطة الانتظار، هيا اتصلي بأمر ليجيء ويكتب عقد الإيجار، سنستأجرها.. هي أفضل ما وجدنا حتى الآن.

حاولت شمس فتح فمها باعتراض آخر، فأردفت الأم بتسلط:

- أنت بنت مدللة، أتعبتني كثيراً، ستزوجين في هذا البيت وبعد الزفاف ابحثي مع أمير عن بيت يعجبك!

كانت الأم تقول ذلك أمام الدلال وصاحب البيت وقد وقفا يرمقانه من طرف خفي.

حدثت شمس نفسها:

- يا ربي ألا يمكنها أن تكون كتومة أكثر؟ لماذا تناقش هذه الأمور أمام الغرباء؟!

ينفجر أمير ضاحكاً في كل مرة تروي له فيها تفاصيل الموقف، راسمة بمهارة "حكواتي" صورة هزلية لوجه الدلال مع صاحب البيت وهما يترقبان نتيجة النقاش، ويرمقان أمها على استحياء في لحظات الجدال تلك!

تمطت شمس على الكنبه بتملل، وهي ترى ملامح وجه أمها الغاضب صوراً متلاحقة تطوف بها! ثقل في نفسها مبهم الأسباب أخذ يتعاضم حتى استحال غولاً آخرقاً يعيث بمساحات تفكيرها.. تفكرت:

- ما هذا؟! كيف الخلاص؟!

قفزت فكرة لرأسها، قامت من فورها لتنفيذها، أدارت مؤشر الحاسوب بحثاً عن ملف سورة البقرة، نقرت على أيقونة الفتح، انبعث صوت القارئ بشجن وتنغيم بديع، تلاوة القراء بصوت عذب ونبرة متفاعلة، ييث في النفس أنواراً ربانية، يسري بالروح في معراج التطهر والتكامل، يمنح العبد القوة باتصاله المباشر بالقوي العزيز، تذيبه كلم الآيات وجداً وشوقاً للرب الحبيب، يغيب عن ذاته في حضور قدسي، ويتسامى بالتقرب من إله السماء! سرقتهاروعة الآيات لوهلة من عوالم مخاوفها التي سرعان ما عاودت السطو على وجدانها، والإخلاد بها في قاع من الخبال، أنقذها كطوق نجاة حسّ أمير قادمًا.

نفضت رأسها لطرد تلك الهواجس عنها وهي تسمع خشخشة يده بالمفاتيح يديرها في الباب الخارجي، دلف بهيئة ملهوف، عانقها بشغف من أطال الغياب، تساءلت بصمت:

- هل شعر بما حدث لي في غيبته؟!

يملك أمير حدساً قوياً وتحاطراً مدهشاً مع من يحبهم! تنبه للصوت المنبعث من الحاسوب لترتيل سورة البقرة!

تساءل بتعجب:

- لماذا سورة البقرة؟!

أجابته بتلعثم:

- أسترجع ما تفلت من حفظي.

رماها بنظرة شك وسكت!

باتت طوال الليل تتقلب على الفراش، تستجدي التئام طمأنينة تمزقت بغتة، تفز عقب كل غفوة نوم تغشاها، علا صوت اعتراض صامت في أعماقها:

- ما الذي يحدث لي؟! أخاف من مجرد كوابيس، يا لغبائي!

من وقتها غدت شمس تستوحش كثيراً في خلوتها كلما تأخر أمير خارج البيت ليلاً، حدثت نفسها في مراجعة جادة:

- ما الذي أصابك يا شمس؟! لم يحدث لك هذا أبداً في السابق، ألسنت معتادة على المكث وحيدة في بيت الأهل الليالي ذوات العدد؟!

تجيب على نفسها في حوار هادئ:

- صحيح، ولقد عشتها باطمئنان.. عندما كانت أُمِّي تسافر لزيارة شقيقي
أُجد في صنعاء، أو تذهب لتفقد بعض أهلنا في الجنوب، مالي أستوحش هكذا
من وحدتي في هذا البيت؟!

صارت شمس شبه موقنة بوجود طاقة شريرة في هذا البيت.. تتساءل:

- هل أبوح بمخاوفي لأُمير؟ لكنني لا أحب إقلاقه، لا سيما أننا ما نزال في
شهور زواجنا الأولى، ثم أنني أخشى أن يظن بأني امرأة ملبوسة كما يقولون،
مع أنني لا أؤمن بتلبس الجن للإنس، وأرى بأن ما يحدث لمن يقال بأن الجن
متلبسهم لا يعدو كونه مسًا كما جاء في صريح القرآن؛ لكن الناس يتناقلون
قصصًا عجبية عن دخول الجن في الإنس!

تذكرت شمس في هذه اللحظات قصة ماجدة، تلك المرأة التي تعرفت
بها في دبلوم الحاسوب، امرأة شابة، جميلة، ديناميكية الحركة، منجزة وذكية..
شكت لشمس ما تعانيه من قهر أسرة زوجها لها، ومعاملة عمتها لها بتسلط
وظلم، وكأنها خادمة لديها، وحرمان أسرة زوجها لها من أبسط حقوقها؛
كحصولها على حجرة خاصة بها، وإصرارهم على بقاء أبنائها معها في ذات
الحجرة الضيقة رغم أن أكبرهم قد ناهز الحلم!

قالت لها شمس ذات مرة:

- امتناعهم عن منح الأولاد حجرة خاصة بهم رغم اتساع البيت تعسف
وإذلال غير مبرر!

كانت ماجدة تتنهد كل فرصة لتبث لشمس طرفاً من معاناتها التي لا تنقطع..

قالت لها شمس بعدما ضاقت من خنوعها واستسلامها:

- ولماذا ترضخين لهذا القهر والاستعباد؟ تعلّمي أن تقولي لا، قولي بصراحة أستطيع هذا، ولا أستطيع ذاك.. أريد هذا، ولا أريد ذاك.. طالبي بحقوقك بإصرار.. لا يضيع حق وراءه مطالب..

استعظمت ماجدة منطق شمس وقالت بفرع:

- لا.. هذا عيب في عرفنا!

- ها أنت ذا تستطيعين قول كلمة "لا" لكن لا تقوليها في غير محلها، كوني شجاعة وقوليها لهم.

سكتت ماجدة لوهلة.. حثتها شمس بحماس قائلة:

- دعك من التمسك بعرف ظالم، دين الله يمنحك حقوقاً تجعلك تعيشين ملكة، وتقولين لي عرف! أليس لكم كبير تشكين له حالك فيتدخل ويجد لك مخرجاً مما تعانیه قبل أن تنهار أعصابك وتفقد عقلك؟! انتهى دبلوم الحاسوب قبل أن تجد ماجدة حلاً لمشكلتها أو تمتلك الشجاعة الكافية لتعلن تمردها.

كانت مدة الدبلوم ثلاثة أشهر؛ غير أن ماجدة لم تفتح قلبها لشمس سوى في الأسبوعين الأخيرين، بقيت ماجدة تهانف شمس بين الفينة والأخرى، تستشيرها في موقف أو مشكلة جديدة، تصب شحنة بؤس أكبر

على مسامعها، ثم اختفت تمامًا لأكثر من عام، حتى كادت شمس أن تنساها في زحمة الحياة، ولربما أنها فرحت لغيابها، لأن ماجدة كانت محبطة ويائسة، تملؤ نفس شمس بطاقة حزن هائلة وانكسار وتشاؤم لا يطاق، ولكم كانت تصدع رأسها وتوجع أذنيها بطول حديثها معها عبر ساعة الهاتف! وفي إحدى أمسيات الشتاء عاودت الاتصال بشمس، قالت وهي تضحك:

- سمعت آخر خبر؟ لقد سكنني جني!

- ماذا؟! عن أي جن تتحدثين؟ استعيزي بالله من الشيطان الرجيم!

- والله العظيم، هذا ما قالوه لي، صرت أصرع وأهلوس فأسب عمتي، وأشتم عمي وألعن زوجي، وأقول فيهم ما يشيب لسماعه شعر الرأس، أفعل كل ذلك وأنا ما بين الصحو والغيوبة، أخذوني عند سيد؛ فضربني بقسوة، وهو الذي قال بأني ملبوسة من جني غير مسلم ومعه أسرته أيضًا.. تخيلي؟! صرت بيتًا للجن، مع أنني نحيلة جدًا!

- أتضحكين؟! بالله عليكِ قولي بأن هذه مزحة!

- لا والله يا شمس، أنا أكلمك بجد، وكلما كان السيد يضربني يسكت الجن، ويقلعوا عن السباب.

- صلّ على النبي، أين أنت الآن؟

- اللهم صلّ وسلم عليه، أنا في بيت أهلي بصنعاء، جاء أبي وأخذني ليشرف على علاجي بنفسه، وقد ذهب بي لطبيب نفسي.

- ممتاز.. وماذا كانت النتيجة؟

- النتيجة مختلفة تمامًا، لم يسكنني جن ولا يحزنون، سادة مخرفون، مشعوذون وكذابون!

- الحمد لله، طمأنتني.. ولكن كيف وصلتكم لهذه النتيجة؟

- كما قلت لك.. أخذني أبي لعيادة طبيب نفسي حاذق، قال بأني أصبت بالشيزوفرينيا، يعني بداية انفصام؛ بفعل الكبت الشديد والضغط النفسي بسبب شعوري بالقهر ورفضى لوضعي مع عجزي عن تغييره، تصوري؟! قال لي أيضًا كان بينك وبين الجنون شعرة!

- يا مسكينة.

- أما حالة الصرع والهلوسة التي كانت تصيبني وشتي لأسرة زوجي فهي ليست أكثر من حيلة نفسية للتنفيس عن مكبوتات خفية، اتخذها العقل وسيلة للدفاع وللتعبير عن مكنونات النفس، ولما سألت الطبيب كيف ذلك وهم كانوا يسمعون صوتا ينبعث من جوفي؟ نبراته مغايرة لنبرة صوتي! يكلمهم زاعمًا بأنه جني يسكن بداخلي؟! أخبرني ضاحكًا بأن العقل ينطق بموروث شعبي خرافي متكسد لديه في مساحات اللاوعي الشاسعة، وقال بأني لا شعوريًا تقمصت دور الملبوس أو المسكون كما يقولون استقاءً من مادة درامية غنية، موجودة بالأصل في خزائن الدماغ.

تحليل الطبيب النفسي لحالة ماجدة شفى حيرة شمس القديمة من هذه الحالات التي سمعت عنها كثيرًا.

كان بالفعل طبيبًا حاذقًا كما وصفته ماجدة، استمر في علاجها حتى تماثلت للشفاء، وهي الآن سوية عاقلة.. وبسبب ما حدث قرر زوجها

تطليقها؛ لكنها بعدما استردت تقديرها لذاتها لم تأبه لذلك ولم تحزن لفراقه، كان مسيرًا بيد أهله، وجوده مثل عدمه.

ضمت إليها ابنتهم الصغيرة وبقي الأولاد معه، وقررت بكل شجاعة العودة لإكمال دراستها الجامعية!

تمت شمس بعد تذكرها لهذه القصة:

- لكن ما يدريني كيف ستكون ردة فعل أمير إن كلمته عن هذا الكابوس وعن الوحشة التي أجدها في المكان عندما يتركني بمفردي ليلاً؟! يا ربي لماذا أنا مرتبكة هكذا؟ ولماذا أتذكر قصة ماجدة مع الجنّي الوهمي الآن؟ ما هذه الفوضى التي تغزو عقلي؟!

هبت واقفة، منتفضة على ركام الفوضى.. قالت بنبرة تحد:

- سأطرد من رأسي هذه الوسواس الشيطانية، ربما أنا أشعر بوحشة لافتقادي زوجي عندما يطيل المكث خارج البيت، أستوحش من البيت لأن الكهرباء مقطوعة معظم الوقت، أو ربما هاجمني ذلك الكابوس لأنني لم أستمع لنصح أمير ونمت بعد العصر!



هروب مروع

جرس الجوال يرن.. جاءها هتاف ابنتها الصغرى "سهر" من وسط البهو مبوحًا:

- أماه.. أُمي الحبيبة، أين أنتِ؟!

لم تأبه لها، ظلت سهر تلح بالنداء، وبقيت هي ساكنة على حالها منذ ساعات، متخشبة ببقعتها، صامتة، معزلة الجميع، معتكفة في حجرة نومها بأقصى البيت، متحيرة وتقلب فكرها في الموقف.

علا اعتراض متذمر في أعماقها، نفثت لسعة غضب وهي تفكر؛ لماذا يجب أن أكون وحدي؟ من يتحمل مسؤولية اتخاذ هذا القرار الخطير؟! كلما بحث لزوجي بمخاوفي يقول لي ببرود صبرًا.. لن يحدث شيء.

أنا في عدن شبه وحيدة، قلقمة ومتوترة منذ بدء الأزمة.. هو هناك في مقر عمله بمدينة تعز، لا يأتينا سوى في إجازة آخر الأسبوع، وابننا سامح متمرد عليّ، يرفض البقاء معي في عدن، يفضّل العيش في تعز، في بيتنا هناك مع أبيه، لم ترق له فكرة الانتقال للعيش في عدن منذ البدء، برفقتي بناتنا الثلاث، لقد أثقل كاهلي عبء الحفاظ عليهن ورعايتهن وتأمين سلامتهن.

صوت سهر يقترب أكثر، دلفت على عجل وألصقت سماعة الجوال بأذنها قائلة:

- إنها خالتي بشرى.

بصوت مرتج ملهوف، سكبت بشرى في قلب مليحة نهر رعب:

- يجب أن نهرب، هاجس يحذرني من خطر قادم، يهزني بقوة ويحركني بإلحاح للخروج من عدن، أنتم بالذات قرييون من مقر الرئاسة، وسط خطر حقيقي، ثقي بحدسي يا مليحة يجب أن نفر، سننرح إلى تعز.. سأحجز لكم معنا في الحافلة المنطلقة فجر الغد، تحركوا اللحظة لتبيتوا عندي فالمحطة قريبة من منزلي، أترككم في حفظ الله، سأكمل استعدادات الرحلة، أراكم سالمين.

لم تمنحها بشرى فرصة لمزيد من التفكير، ولم تعد مليحة محتمة مزيدا من التفكير في هذه الخطوة، كانت بحاجة لمن يحمل عنها بعضا من ثقل القرار فحسب، وها قد فعلت بشرى.. تنفست الصعداء:

- لست وحدي من يفكر بالهروب من عدن، حمداً لله.. فكم خشيت أن يتهمني الجميع بالخفة، لم أستقر في بيتي الجديد بعدن سوى بضعة أشهر، فكيف سأعود إليهم بهذه السرعة؟!

ما زالت نبرة شروق زوجة أخيها ماجد المستفزة ترن في أذنيها، حين مطّت شروق شفيتها قائلة:

- هل ستملكين الشجاعة للعودة إلينا إذا لم تسعدوا هناك؟!

أراد الجميع بقاء مليحة في تعز، حتى أمها بكت لاتخاذها قرار الاستقرار في عدن، مع أنها ودون أن تدري كانت محرضاً قويا لها للإسراع في تنفيذ هذه الفكرة التي كانت تراودها كلما سافرت في نزهة شتوية لعدن.

فكرت مليحة لمرات عدة أن تتخذ منزلاً شتوياً في عدن، لكن فكرة الاستقرار كانت بحاجة لدافع قوي منحتها إياها أمها، لن تنسى تلك الأمسية البغيضة عندما تفجر غضب أمها عليها وباحت لها بمكنون محتقن في أعماقها ضدها.

تساءلت مليحة بحزن؛ لأجل ماذا كل هذا الغضب؟! لأجل أمور لا تستحق كل هذه الثورة، كم تصبح الأمهات متذمرات ومتطلبات عندما يكبرن في السن!

قالت مليحة لشمس عندما التقتا بعد الهروب من عدن:

- جعلتني أمني أحس في تلك الأمسية بأنها تكرهني، كيف نست كل شيء جميل كان بيننا وتذكرت فقط بعض حماقاتي؟! لكن آن لي أن أعترف اليوم بأني بالغت بردة فعلي تجاه ثورتها، ولست أدري لماذا؟!

تري هل يحتاج الإنسان لمبررات حتى لو كانت هشة ومخادعة ليغير حياته دون أن يتملكه شعور ندم إذا جاء التغيير بعكس ما يتوقع؟!

ذهبت مليحة في صباح اليوم التالي لثورة أمها عليها لتشتري أرضاً في عدن، سحبت كل رصيدها من البنك، وخلال أقل من شهرين كان لديها بيتاً جميلاً واسعاً على شاطئ عدن لأسرتها الصغيرة.

حدثت نفسها وهي تنفّس بعمق متأملة جمال الطبيعة على الشاطئ، مستعذبة مرأى العمال منهمكون في البناء:

- سأعيش هنا بعيداً عن بركان الغضب الظالم، وسيأتون هم للعيش بالقرب مني في عدن كما فعلوا من قبل، حين بنوا مساكنهم حول منزلي الأول في حي الدار شمسي بتعز!

مرت أيام حياتها الأولى مع أسرتها في عدن جميلة، ممتعة ومثيرة كالخيال، وجدت مليحة فرقا شاسعا بين العيش في عدن زهرة اليمن وحاضرة عواصمه، وبين العيش في فوضى تعز بشوارعها الضيقة المكتظة بالعربات، والمتراكم على جانبيها أكوام القمامة، وشحّت مياهها، وانقطاع الكهرباء الشبه دائم فيها، وغلاء الأسعار، وتلوث الأجواء بسبب حرق القمامة الدائم، ناهيك عن تدفق مياه المجاري الطافحة فيها، وأبخرة المصانع، وقلة أمطارها الموسمية في الأزمنة المتأخرة.. كان هذا هو ما قالته مليحة لأخواتها بعد استقرارها في عدن.. العيش في عدن أشعرها بالنظام والرقي والترف، لكن كل ذلك تبخر باكتساح "الحوثيين" لعدن.

في عجالة هروب جمعت مليحة بعض الملابس، وكل أشياءها الخاصة، وأوراق الملكية والمجوهرات.. هربت مع بناتها في جنح الظلام، صحبهن عم البنات وزوج شقيقتها مروة الذي كان متواجداً في عدن في مهمة عمل. بدأت قوات الميليشيا تتمدد في الأحياء، ونقاط التفتيش التي أقاموها تتكاثر على طول الطريق.. تفكرت مليحة:

- من أين فقس كل هؤلاء؟! وكيف ظهروا بغتة في عدن؟!

كانت الخلايا النائمة هي الفاجعة الكبرى، والمفاجأة المربكة لأبناء عدن، والتكتيك الأشد عليهم، بعث أفراد الميليشيا من كل بقعة؛ كضفادع السبات وأخذوا ينتشرون في الأحياء بهرج مرعب.

أما الذين التفوا حول الرئيس الشرعي بعد وصوله عدن، فقد تلاشوا من حوله بمجرد اكتساح الحوثة لها! تبخروا فجأة كدخان نيران كاذبة، تطايروا كخفافيش الظلام وتخلوا عنه بسهولة بعدما حسبهم نعم الأعوان له.. اختفوا في مشهد دراماتيكي مدهش، يشبه مشهد هروبه من بين يدي الحراسة المشددة في صنعاء، وظهوره المباغت في قلب مدينة عدن.

بعد تفكير مرهق في المشهد العام للبلد.. نفتت غضبها:

- فليذهب الساسة للجحيم.

تأملت وجوه بناتها اللاتي ذبلت نظراتهن، سيماهن يكسوها بهتان هلع. قفز سؤال وعلق في ذهنها كجرس مقلق، ظل يجلدّها بإصرار عدو طوال ساعات الهروب التي امتطت في مساحة وجدانها واتسعت كصحراء تيه، هل سأنجو ببناتي؟ كيف أرحل بهن في هكذا أجواء ونحن في قلب معركة اقتحام عدن؟ أي مصيبة هذه يا ربي؟!

وكان لمخاوف مليحة مبرراتها.

اتصلت بشري لتخبرها بأن ثمة قتال محتدم على الطريق الموصل إلى بيتها، تأوّهت وهي تخبرها بذلك.. وتابعت:

- هل أنتظر كن؟ سوف ألغي الحجز لنسافر سوياً في يوم آخر.

أجابتها مليحة:

- لا داعي لذلك، عم البنات معنا، سافري وبناتكِ في حفظ الله وسنلتقي

في تعز.

قال العم:

- لا تقلقن، سنستقل سيارة أجرة توصلنا إلى تعز.

مضت السيارة بهم بسير حثيث في رحلة هروب مريعة، اعترضت طريقهم مراراً نقاط التفتيش المتكاثرة، في كل مرة يبرز لهم السائق بطاقته ويتهمهم بصوت خافت مع مسئول النقطة؛ فيفسحوا لهم الطريق، أما عم البنات فجلس جوار السائق صامتاً وواجماً على غير عادته.

كانت مليحة تحتضن بناتها طوال الرحلة بخوف وقلق كبير، تغوص الفتيات الثلاث بأجسادهن في المقعد الخلفي بتوق صريح للتلاشي والعدم كلما تبدى لهم في الأفق نقطة تفتيش، في كل مرة تخرج مليحة وجهها من النافذة وترفع برقعها بسفور مذعور، ملوحة لهم بيدها وقائلة بلسان الحال وبابتسامة مصطنعة:

- لسا سوى نساء، دعونا نمر بسلام.

أطال السائق الوقوف عند إحدى النقاط، لمحت مليحة بطاقته "بطاقة عسكرية!"

غادر مقعده وتحدث مع أحدهم لبرهة قبل أن يرجع قائلاً:

- سنبيت في فندق قريب، القتال مستعر على الخط.

أوماً له عم البنات بالموافقة بعد قيامه بمكالمة قصيرة، أما مليحة فقد أسقط في يدها، بدأت الفتيات بالبكاء؛ قرصت مليحة فخذ سميحة أكبرهن، انتهرت سهر الصغيرة التي علا صوت نسيجهما، حذرتهن بنبرة حازمة:

- اسكتن.. ولا كلمة، سنكون بخير فالله معنا، لم نقترف إثماً ولم نؤذ أحداً، سيحفظنا الله، كنّ على ثقة بما أقول.

عَضَّتْ على شفتيها وهي تكابد رغبة جامحة للنحيب، أردفت وهي تظهر
 تماسكا كاذبا لتطمئن الفتيات وتلهمهن اليقين:
 - نحن نساء قويات، إن الله يحب المؤمن القوي.

رفعت وجه ابنتها سماح تجاهها:

- سماح أنتِ بنت متميزة ومحط فخرنا، تماسكي حتى نلحق بأبيك
 وأخيك.. سننجو بإذن الله.

توقفت بهم السيارة على رصيف مظلم، دلفوا سوياً لبهو فندق ضخم،
 همست مليحة:

- أعرف هذا الفندق، حططنا رحالنا فيه عدة مرات خلال رحلاتنا من
 تعز لعدن.

كان الفندق ساكنا، وشبه خال من النزلاء، خبا بريقه وتضاءلت أنواره،
 الظلام يلف المكان.. همست:

- الخفافيش فقط هي من تحب الظلام وتسعى لنشره في كل الأماكن.

زكمت أنفها روائح عفونة لم تعهدها من قبل، حدّقت مليا.. الزوايا
 مكتظة بجند الحوثة! أشداق بعضهم منتفخة بالقات وأعينهم تلمع في ضوء
 البهو الخافت، نحنحة تنبعث من هنا وهناك.. سرت رعشة هلع في أوصالها
 حين تيقنت بأنهم وسط تجمع للحوثيين.

التصق بها بناتها، تهزن رعشة حمى فزع هاجمت أجسادهن في لحظة اليقين
 تلك، نظرت بعتب للعلم.. بسؤال صامت عاتبته:

- كيف نبيت هنا؟!

تعجّل بدوره صعودهن للدور العلوي، أو صد أبوابا عديدة وانزوى في حجرة بعيدة يقلب هاتفه الخلوي ويمضغ بقايا أوراق قات.

قررت مليحة الخروج من حالة الصدمة للتعاطي الإيجابي مع الموقف، بناتها صبايا، صغيرات، مدلالات وغير قادرات على احتمال ذلك الفرع المهول الذي يكتسحها، إن هو انتقل إليهن بطريق العدوى النفسية.

أماطت عن وجهها البرقع وابتسمت بتصنع نافثة زفرة أنفاس ساخنة:
- الحمد لله.. نحن هنا بأمان، تبدو هذه المجماع مسالمة، رأيتن بأنفسكن كيف أنّ الهدوء يعم المكان، هيا فلنخلد إلى النوم كما فعل بقية نزلاء الفندق، سنراهم في الصباح، وقد نجد بينهم الكثير ممن نعرفهم.

بدت كمثثلة بارعة وقد أدركت منذ الوهلة الأولى أنّ الفندق خال تماما من النزلاء، عدا تلك المجماع من الميليشيا، لكنها استطاعت بذكاء وفطرة الأمومة بثّ بعض الطمأنينة في نفوس بناتها.

رمتها ابتتها الكبرى سميحة بنظرة شك دون أن تفوه بكلمة واحدة، اجتاحتها شفقة عارمة تجاه أمها التي ارتجلت مشهدا تمثيليا ببراعة وإبداع لطمأنتهن.. هي تحنو كثيرا على أختيها الأصغر منها، خاصة سماح تلك الفتاة الرقيقة الحاشية، قد تمرض ويصفر جلدها عند تعرضها لأدنى تهديد.

سميحة شابة في العشرين من عمرها، يدهشها سلوك الأمومة الشجاع، وهي التي لا يمكنها فعل شيء من هذا؛ غير أنها ترجو أن تكون هذه التمثيلية كافية لإزاحة القلق الذي يكاد أن يفتك بأختيها الصغيرتين مرهفتي الشعور.

غرق كل من سهر وسلاح من فورهن في نوم عميق هروبا من عتمة ورعب الموقف، بقيت الأم وسميحة ساهرات، يتبادلن نظرات بوح تشبه نواح قلب أسير ينتظر حكما بالإعدام، أو عفوا غير متوقع من ملك قاس، متسلط.

مرّت الدقائق بثقل، وعند منتصف الليل غلب سميحة سلطان نوم منقذ، وبقيت مليحة ساهدة تصطلي على جمر الخوف والقلق، تعذبت بصمت طوال ليلة كانت من أثقل وأسوأ ليالي العمر.

عند بزوغ خيوط الفجر الأولى أيقظت مليحة البنات برفق، كان العم على أهبة الاستعداد، لم يذق طعم نوم، يشعر بفداحة إنزالهن في هذا الفندق المكتظ بالحوثيين.

نمن بهيئة السفر، وخرجن بعجالة هارب، مهرولات نحو الباب الخلفي للفندق، يسبقهن العم وسائق السيارة.

فتح أحدهم بوابة الفندق الخلفية بهدوء، همن على وجوههن لا يعرفن المسار الصحيح نحو الرصيف، علا صوت السائق بنبرة حازمة:

- الحقوا بي.

مشوا وراءه بتوجس، وفجأة.. إطلاق نار كثيف، الرصاص يتراسق حولهم بعبث جنوني، التصقوا جميعهم بجدار الفندق وكتبوا الأنفاس، صوت وقع أقدام تهول نحوهم، مشفوعة بجلبة صرير سلاح وجند.. صقع مسامعهم صوت جهوري من مجهول:

- قفوا، من أنتم؟!

بادرت مليحة الجميع بقلب أم وجرأة لبؤة تنافح عن صغارها، أجابته بلهجة صنعانية مصطنعة:

- نساء مسافرات إلى تعز، أنا فداك يا ولدي لا تقتلوا بناتي، أنا فداك..
 تركونا نسير بسلام، هذا سائق الأجرة وهذا زوج أختي وعم البنات.
 قالت ذلك وأشارت بيدها نحو الرجلين.. ثم استرسلت تتوسل:
 - أنا فدا قلبك يا ولدي، الله يرضى عليكم لا تؤذونا.

توقف ذلك المجهول ببقعته هنيهة، رفع كفه نحو رفاقه مشيراً لهم بالتراجع، فخرس صرير السلاح، تحشب الجميع، الأذهان فارغة من التوقع، لفّ المكان صمت رهيب، انهارت قوى مليحة وعلا نشيجه ببكاء يمزق نياط القلوب.

تقدم نحوهم صاحب الصوت بخطوات واسعة، حتى وضحت ملامحه في ضوء فجر باهت، متباطئ السطوع، شاب في مقتبل العمر، بوجه حاد التقاطيع، تعلوه حمرة لفحتها الشمس، قامة ممشوقة بملابس عسكر ورتبة ضابط، تفحصته مليحة ثم فغرت فها:

- أنت! منهم؟!

عرفها.. تتمم:

- أم سامح؟

- نعم أم سامح، يا أفندم!

صرف وجهه مجللا بخزي، نكس رأسه وعاد متقهقرا بصوت صاخب
تكلم:

- لسنيا والدة من يقتلكم، الدواعش والقاعدة هم من يقتلونكم، سيري
يا أماه وبناتك بسلام.

صاح برفاقه:

- أفسحوا لهم الطريق.

مضت بهم السيارة تسابق تصاعد الأحداث في عدن، دوار صدمة أصاب
مليحة.. هجست:

- يا إلهي.. كم خدعنا؟! كان مجرد بائع متجول، سألته لمرات ما اسمك؟
فكان يجيبني ضاحكا اسمي أبو الفل يا أم سامح، يا لهذا الزيف! بائع الفل
الذي اشتريت منه الفل من أمام الفندق لسنوات.. ضابط حوثي!



الرؤيا

في صباح يوم رائق وبعد تناولهما طعام الإفطار قالت له بنبرة من تذكر شيئاً هاماً:

- لن تصدق ما رأيت في منامي ليلة البارحة.

- خيراً إن شاء الله؟

- ستحدث كارثة في هذه البلاد، ستمتد رقعة الحرب بصورة مهولة ومخيفة، كالنار تتسابق في الهشيم، وثمة قصف من الفضاء، رأيت كل ذلك كما أراك الآن.

- غزو فضائي؟!

نظر إليها أمير بتمعن محاولاً كتم ضحكاته ثم أردف:

- قولي ماذا رأيت بالضبط؟!

- رأيتني أقف خارج المنزل بمنطقة مفتوحة، وأطل على مساحات شاسعة، كان الظلام يغلف المشهد من جميع الاتجاهات، وثمة طائرات حربية تلمع في الجو وتقصف البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، لم تدع بقعة من الأرض إلا قصفتها، والحرائق.. يا لهول تلك الحرائق، كانت تستعر باشتعال رهيب تكاد تطال بالأسستها تلك الطائرات.

كان أمير متكأً يرشف فنجان شاي فاستوى قائلاً:

- يا لطيف.. هل هي رؤيا حق أم أضغاث أحلام؟

- لا والله ليست أضغاث أحلام، أنا على يقين من ذلك.
- وأنى لك الجزم بمثل هذا؟!
- أعرف نمط الرؤيا، ونمط أحاديث النفس.. صدقني سيحدث شيء فظيع في هذه البلاد، إن رؤياي صادقة، تتحقق ولو بعد حين، قد جربت ذلك مرارا.
- سكت أمير متفكرا.. هجست شمس:
- حتى رؤية ذلك المجهول الذي كدت أن أقتله أشعر بأنها رؤيا حق، لكن لن يهزميني الخوف.
- هتف بها:
- حبيتي أين شردتِ بذهنك؟ هل رأيتِ مناما غيره؟!
- تلعثمت وأهوت بيديها على أطباق الطعام تجمعها بسرعة، وقامت منصرفه بها نحو المطبخ قائلة:
- لا.. هذا فحسب.
- علا صوته:
- اللهم احفظ البلاد والعباد، أرجو ألا تصدق رؤياك هذه المرة.
- همست مبتعدة:
- أرجو ألا تصدق جميع المنامات التي رأيتها في هذا المنزل!
- رن جوالها فالتقطه أمير؛ نظر إلى شاشته وصاح بها:
- هذه مليحة.

قالت بنبرة سرور:

- والله؟! أنا قادمة.

أقبلت جذلى متهلل وجهها، اختطفت منه الجوال بلهفة:

- مرحبا حببتي كيف حالكم؟ لم أسمع صوتك منذ أسبوع، هل أنتم بخير؟!

أجابتها مليحة بنبرة حزينة:

- الحمد لله كلنا بخير، هربنا أنا وبشرى من عدن ونحن الآن في تعز.

- صدقا؟! أين؟ في شقة العمل؟

- لا، في بيتي المعروض للبيع بحي "كلاية".

- مفاجأة مذهلة، لكن الحمد لله أنكم عدتم لتعز، كنا نتوجس خيفة من

انفجار الوضع في عدن.

- حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبت حساب كل شيء إلا الحرب.

- المهم أنكِ والبنات وبشرى وبناتها بخير، كل شيء يمكن تعويضه عدا

الأرواح.

- صدقت.. الحمد لله على كل حال، لكن كانت رحلة هروب رهيبة،

شممنا فيها رائحة الموت، لا أراكم الله ما رأينا من أهوال.. عموما سنلتقي

وسأحكي لك قصة هروبنا، والله تصلح فيلما دراميا مدهشا!

- ما زلتِ تحتفظين بروح الدعابة بعد كل هذا العذاب؟!

- ماذا أفعل؟ يقال دوما بأن شر البلية ما يضحك، آخر شيء سمعته من

الحوثة قبل مفارقتي عدن كلام عن الدواعش والقاعدة، لو لم أعش في عدن

هذه الفترة ربما كنت سأصدق كلامهم، خاصة أنهم تركونا نغادر بسلام،

لكني رأيت بعيني ولم يخبرني أحد، لقد رأيت شباب عدن متميزين بالأناقة والهندام الجميل والاهتمام بالمظهر الحسن، جلّهم من المتعلمين المثقفين، رأيتهم جادّين في حياتهم رائعين حقاً، حتى أنهم لا يمضغون القات! وفيهم تدين وسطي.. تخيلي بأن شبابهم يتركون اللعب وهم على الشاطئ ويذهبون لصلاة العصر في المسجد ثم يعودون للعبهم!

ذات مرة قلت مازحة بائعاً - كان قد تأخر في المسجد وطال انتظاري لعودته لأشتري ثوبا أعجبني - رجاءً لا تتدينوا بهذا الشكل.
ابتسم واعتذر مني قائلاً طلباتك يا مديرة.

ضحكت شمس لسماع ذلك من مليحة التي أضافت بنبرة معلم:
- هل فهمت قصدي يا شمس، هل وصلتِك الصورة بوضوح؟
- أجل وصلت بوضوح تام.

صبّت مليحة جام غضبها على الحوثيين ثم قالت بتبرم وغضب:
- أيّ قاعدة وأيّ دواعش جاءوا يلاحقونهم لعدن؟! هؤلاء بالتأكيد مجانين، مرض عضال ينخر في عقولهم وسوس عالق فيها من بيئة الكهوف التي أتوا منها، لقد غدت عقولهم نفسها كهوفا مظلمة، بالله عليك يا شمس أخبريني ماذا اقترفنا من خطأ نحن أبناء الجنوب ليرسلوا علينا وحوشهم الضارية من أقصى الشمال لتنهشنا؟ هل هذا جزاؤنا على قبولنا بالوحدة، وتسليمنا دولتنا لهم على طبق من ذهب؟! حسبنا الله ونعم الوكيل فيهم.
تنهدت شمس بأسى:

- نحن أبناء الجنوب وحدويون للنخاع، مات أبي وشظايا رصاص حرب حصار السبعين مغروزة في كتفه، سكب دمه على سفوح صنعاء لتحريرها

من فلول الإمامة الرجعية، هل تتذكرين أحاديثه رحمة الله عليه عن اليمن الكبير وحلمه بالوحدة؟

- وكيف لا أتذكر، لقد رضعنا من كلامه لبان الوحدة، ثم فرحنا بتحقيق حلمه الذي مات قبل أن يكحل عينيه بمرآه، لكن أن نبقي دوما وحدنا من يدفع ثمن هذه الوحدة؛ فهذا الظلم بعينه ورأسه ورجله!
ضحكت شمس من تعليق مليحة الهزلي.

كانت مليحة تتكلم دون توقف بدت غاضبة جدا، أنهت المكالمة وهي تغلي من الحنق، وتؤكد على أن يلتقيا غدا لتحكي لشمس تفاصيل أكثر، أغلقت شمس الجوال ونظرت لأمير قائلة ببؤس:
- طار المليون.

- لم يطر.. سيتأخر لبعض الوقت فحسب، كوني متفائلة.
كانت مليحة قد عهدت إلى أمير بالبحث لها عن بيعة جيدة لمنزلها الذي في حي كلابة بتعز والذي بنته بعد خروجها من حي الدار شمسي؛ مقابل مليون ريال ستهبها له، كانت تأتي البيعة في كل مرة إلى يديه ثم يحدث شيء يصرف المشتري عن إتمام الصفقة في آخر لحظة.

عجب الجميع من هذا التعثر، لكنها الحكمة الإلهية التي أرادت بقاء البيت لتأوي إليه مليحة في هذا الطرف العصيب وتستضيف بشرى وبناتها عندها حتى يأذن الله بالفرج.

كان هروب مليحة وبشرى من عدن قرارا صائبا جاء في وقته، انتشرت الميليشيا في مدينة عدن محدثة ذعرا شديدا لساكنيها، اشتعلت المواجهات بينهم وبين تجمعات مسلحة سرعان ما قذفها رحم المشهد المتورم بداء دفين، تداعت قوى متفرقة وتكاثفت وتراصت بين عشية وضحاها للتمترس في خندق المقاومة ولصد من أسموهم "الغزاة القادمين من أقصى الشمال"

تمدت رقعة القتال بسرعة البرق، والتهمت نيران المعارك السكون الخادع الذي عم المدينة على مدى عقدين من الزمن، خربت أحياء بأكملها، وقتل عشرات من السكان الأبرياء خلال أيام، قعقعة المعارك فتحت ملفات الحروب من سفر الماضي القريب، هرب الناس بجلودهم نحو القرى والبوادي مخلفين وراءهم كل شيء، نزح غالبية سكان مدينة عدن لمحافظة آيين القرية في تبادل أدوار هزلي مبك!

في إبان توهج ثورة ١١ فبراير تقوّحت شوارع مدينة آيين بصديد مقاتلي القاعدة، خرجوا من جراب الساحر كمردة إبليس وغطوا الفضاء بسواد كئيب كنفثة شيطان.. خرّبوا عاصمة محافظة آيين وشرّدوا أهلها، ذبحوا الرجال في ساحة المدينة جهارا نهارا، فر جميع الأهالي إلى مدينة عدن واستوطنوا المدارس والمباني الحكومية وتعطلت الحياة في آيين، وأصبحت كل الأنشطة بشلل تام.

اليوم تتكرر الصورة بتعاكس يوحي بتغلغل حقد مجهول تبعثه أيدٍ غادرة، جحيم عذاب على بشر منكوبين على مدى عقود لأجل شيء غامض مبهم!

العاصفة فيه تعز

في ظهيرة يوم الجمعة.. كان أمير في المسجد المجاور لسكنه يؤدي الصلاة، وفجأة علا صخب اقتتال استعر في الحي، فرقعات ذات صلصلة، ضربات شديدة مروعة ورصاص كثيف يعصف بأزيز مفرع من جهتي المنزل، دوي دبابة يهتز لصداه البيت، أخذت الشبابيك تققع من قوة الضغط، صوت تهشم زجاج قريب، أتم الإمام الصلاة على عجل وتفرق المصلون وجيش قلق يهاجمهم، وصل أمير إلى البيت مهرولا ودلف فزعا، جذب شمس لزاوية آمنة.. صاحت بهلع:

- ما الذي يحدث في الخارج؟!

- مسلحون يحاولون الاستيلاء على النقطة المجاورة، وعسكر الحرس الجمهوري يضربونهم بالدبابة ويرشقونهم بالرصاص من أعلى العمارة المقابلة لبيتنا وهم بالمقابل يردون عليهم بالأسلحة المتوسطة والخفيفة.

تجمدا هنيهة حتى أفزعهما صوت قرع شديد بالحجارة على الباب، كان جارهم في الدور العلوي يقذف بها مستغيثا:

- أمير.. افتح لنا الباب نخبئ عندكم، سنموت برصاص المتقاتلين، شقتنا مكشوفة من الجهتين.

هرع أمير وفتح لهم الباب، رُشق المدخل بعدة رصاصات فابتعد عن الباب وصاح بجاره:

- هيا انزلوا الباب مفتوح.

لم يبلغهم صوته لشدة ضجيج السلاح فبقي جارهم يتوسل:

- افتحوا لنا الباب، سنموت.

- الباب مفتوح، انزلوا.

ولم يسمع.

قالت شمس برجاء:

- يا الله لطفك.

مرق أمير كالسهم وألصق جسده بزاوية الباب وهتف بهم مجددا؛ فنزلوا.

كانت الأم تعاني من حالة انهيار مؤلمة، امتلأ قلب شمس شفقة عليها، كانت تحسبها أكثر شجاعة من ذلك.

أدخلتها شمس مع ولديها إلى المطبخ المظلم، هو أكثر البقاع أمناً في البيت، كأنه بدروم، والتصق زوجها بالجدار قرب أمير في زاوية تحت درج الدور العلوي ممتدة باعوجاج في بهو البيت الأشبه بدھليز طويل.

كانت المرأة تبكي وتئن متوجعة هلعة، غرزت أصابع يديها في بطنها متألمة:

- سأموت، بطني تتمزق.

أجلست في حجرها طفلتها الرضيعة وضم الأب إليه ابنهم الذي يناهز السادسة من العمر، كان الولد قد جف ريقه من شدة بكائه واصفر لون

جلده من عظم خوفه، أما الطفلة فقد أسكتها ذهول مطبق، شلت الفاجعة شعورها، كانت شمس تهزها مستحثة وجدانها لتفيق، قرصتها خفية بغية أن تبكي أو تفعل أي شيء غير هذا الجمود... ولكن لا استجابة، بدا وجهها الجميل باهتا، جامدا، يخيل للناظر بأنها دمية لا حياة فيها.

أشد ما عانوه في تلك اللحظة هو دوي الدبابة وهي تضرب جوار البيت.

صاح الجار فزعا:

- ما هذا الإجمام؟ يضربون بالدبابات وسط الأحياء المكتظة بالسكان!
هل جنّوا؟!

اهتزت خلجات زوجته في لحظة يقظة أمومة، وبأعين غائبة مسحت المكان:

- أين ابني؟ سيموت، سيقتلونه - لعنهم الله - سيحرموني من وحيدي، في مواجهات ثورة ١١ فبراير كان يصاب بالصفراء عندما يسمع صوت الرصاص، فكيف بصوت قذائف دبابة؟!

صاحت بهستيريا:

- شهاب.. يا ولدي.. يا ويلي عليك يا ولدي.

تخيّرت شمس ولم تدرِ ماذا تصنع لها؟! طفق الزوج يهدئ من روعها:

- اصبري يا امرأة، شهاب بخير، هو معي، اهدئي.

عندما سمع شهاب المهندس في حجر أبيه صراخ وعويل أمه، انتزع جسده من بين أحضان أبيه وركض نحوها بتلفت وهلع، احتضنته بقوة وانخرطت في البكاء متوسلة:

- يا رب ارحمنا.. يا رب.

نسيت شمس خوفها، خرجت من حالة الذعر متحلية بشجاعة قلّ ما تخونها في مثل هذه المواقف، اجتهدت لتقدم لجارتها العناية، ربتت على كتفها وضمتها إلى صدرها، سقتها شربة ماء وقرأت عليها آيات السكينة.. كانت المرأة خائفة جدا، حتى خشيت شمس أن تزهق روحها من شدة الخوف.

كان عمر المعركة قصيرا لكنه مباغت ومرعب، خيم سكون مفاجئ على الشارع، أصغوا جميعا للسمع، جاء صوت أحد سكان الحي ينادي جارهم:

- يا عبد الحكيم، تكسر زجاج بعض نوافذ بيتي، وتحطمت نوافذ الجامع بالكامل، كيف حالكم؟!

تنفس عبد الحكيم الصعداء حين سمع صوت جاره وهب واقفا يجيب النداء:

- لا أدري والله يا أخي ما أقول، أنا في شقة جاري، أهلي في حالة مزرية، هل توقف القتال؟

- لا أدري، ربما.. سأرى وأخبرك.

هتف به:

- نريد المغادرة، زوجتي وأولادي حالهم صعب، جد لنا سيارة أجرة بسرعة - حفظك الله -.

- حاضر، لا تهتم.

بعد دقائق جاء الخبر اليقين بتوقف القتال، صعد عبد الحكيم بزوجته وبنيه لشقتهم.. وبعد لحظات رآهم أمير يغادرون ببعض متاع نحو سيارة أجرة مغادرين نحو منطقة أكثر أمانا.. صاح بهم:

- إلى أين؟ هل تغادر؟

لم يجبه الزوج التفتت الزوجة نحو شمس وقالت:

- اهربوا، الحرب بدأت في تعز، الطائرات الحربية ستقصف الحي، سيدمرون مبنى الأمن المركزي القريب.

فغرت شمس فاها مندهشة، ومضت المرأة بسرعة قبل أن تتبين منها كيف وصلتها هذه المعلومات؟!

التفتت نحو أمير وهتفا معا:

- الرؤيا!

أردف أمير:

- هيا.. لنغادر فورا.

جمعا بعض متاع وغادرا البيت على عجل.. سلكا طريقا فرعيا يمتد خلف مساكن المهمشين، تجنبنا السير على الشارع الرئيسي الذي عاود الفريقان الاقتتال فيه بمجرد اجتيازهما له، مشيا على الطريق الترابي يحثان الخطى متجهين نحو حي الدار شمسي الذي يسكن فيه أهل شمس، كانت رياح الخوف تحملهم، ومعية الله تحرسهم، هكذا شعرا عندما وصلا لبيت أهل شمس سالمين في وقت قياسي.

استقبلتهم شقيقتها الكبرى ماريا، أدخلتهم الدور الأول لمنزلها والذي عاشت فيه شمس وأمها زمناً، أظهرت لهما حفاوة بدت مصطنعة، ثم تركتهما وصعدت إلى الدور الأعلى الذي تعيش فيه مع ابنتها المطلقة وأحفادها منها، كانت علامات الخوف والقلق بادية على وجه ماريا!

علا صوت أذان العصر حين دخلت شمس إلى المطبخ لجلب كأس من الماء لأمر، فجأة.. اخترق مسامعهم صوت صاعق شديد، رفعت بصرها نحو النافذة لتفجع بمرأى وميض ملتهب يسطع من وراء النافذة، وهج شقّ بطن السماء وفاض على الحي، أحسّت زلزالاً أماد الأرض تحت قدميها، اندفع جسدها للوراء بضغط رهيب، تبع الصاعق دوي انفجار صاحب قوي، هزيج رعد شديد كأنه بوق إسرائيل، تواترت عقبه أصوات متداخلة تصم الأذان وتشعث النفس، ضجيج جلبة متشعب وصراخ نسوة ينبعث من جميع بيوت الحي، قعقة سلاح من وسط الشارع وأزيز مضادات طيران من مبنى الأمن المركزي، أشياء ترتطم على الأرض،^٢ أصوات تكسّر زجاج وانفضاض أبواب ونوافذ كانت موصدة.

كان ذلك المشهد الرهيب أول عملية قصف لطيران التحالف على مدينة تعز. استهدف مبنى القصر الجمهوري الجاثم منذ عقود على هضبة بوسط المدينة؛ صرحاً شاخاً كأنه قطعة من جبل صبر الأريالي الوجود.

كان الحوثة يندسون في كل موقع يمثل قيمة لأبناء تعز، وكأنها يغازلون الطيران ويغرونه ليقصف هذه المواقع.

حزن الأهالي لسقوط القصر الجمهوري، الكثيرون يرونه تجسيدا لروح الجمهورية المشتق اسمه منها، وآخرون يرون فيه هيبة الدولة التي تهاوى بقيتها مع سقوطه المريع والمتلازم مع الأحداث الأخيرة.

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها الأهالي صوت صاروخ، شبهه البعض بنفخة البعث يوم القيامة، ترى هل قامت قيامة تعز؟!

هذا هو ما حدث بالفعل، الكارثة كرّست جلّ قواها في تعز؛ لتسمها ببصمة خراب، غدت تعز مسرحا لقتال شرس ورعب لا نهائي، تتابع القصف وتفرق الناس شعاعا، غرقت المدينة في ظلمات بعضها فوق بعض، تلاشى تألق المدينة الحاملة بين طيات عتمة سرمدية يبدو أن لا فكاك لها منها.

غيب انقطاع الكهرباء ليس أكثر من موشح حزين للمحمة عنت وشقاء تحيكها أيد خفية جلية، تسطرها عنوة على جبين وطن مسلوب الإرادة، أقيم سوق لبيع الأوطان في مزاد علني، واشتعلت حرب وحشية تلتهم الأخضر واليابس، بؤر إبليسية تتعاظم دوائرها بتسارع على أرض الجنتين، وصريم يمتد كجيش اجتثاث، انزلقت الأقدام بانحدار مخز نحو شتات وطن وهلاكه، طامة كبرى تغشى الناس كلما أمعنوا فكرهم فيها فيرتد ذهنهم خاسئا كليلا.

بات الغموض يلف المشهد، الشعب يوحى بعظم الخطب، حقد يخ سَمّه الأسود في القلوب فيحتمد القتال.

لم يأبه أحد لمصير التكتلات البشرية في تعز، ملايين من الناس محشورون بين عقد سلسلة وديان متعرجة تتزاحم عليها البيوت ملتوية بانخفاض وارتفاع لولبي على هضاب متفاوتة العلو تطوقها الجبال الشاهقة.

تأتي الطائرات النفاثة كل يوم مستهدفة المواقع العسكرية المفترشة تلال ووديان تعز، وقتها شعر الأهالي بفداحة ما فعله النظام السابق حين نشر في قلب مدينة تعز وما حولها اثنا عشر لواءً مع أنها ليست مدينة حدودية!

عقب كل غارة يستعر جنون الحوثيين، فيصبوا جام غضبهم على الأهالي، دكوا بالدبابات مقرات القوى السياسية المخالفة لهم، نثروا قناصتهم على كل المرتفعات والمباني العالية، قتلوا الكثير من رجال المقاومة، سقط المئات من الأهالي البسطاء المحايدون المسالين بين رحى المواجهات، كانوا ضحايا منسية، قُتلوا جزافاً في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

توحش قناصة الحوثة على خطوط التماس بين الأحياء، وأخذوا يقتلون كل كائن حي يمر أمام ناظرهم، حتى الحيوانات! استدثبوا فجأة..

بعث سموم الحرب روحهم القتالية الشرسة بتطرف مرعب، اقتحموا بيوتا مقصودة، قيدوا رجالها واقتادوهم إلى أماكن مجهولة.

لم يكن كل السكان في تعز مرحبين بالعاصفة، وليس جلّهم حضنة للحوثيين، فلماذا تتلقى تعز بصدر مكشوف ضربات الفتتين بصور مفزعة؟ هكذا تساءل البعض متوجعاً؟!

في موسم الرياح تعاني تعز من انحباس موجات الهواء المتسللة من طبقات الجو العليا إلى قلب الوادي، تبقى الرياح تجوس مدة طويلة في المناطق المنخفضة، بقيت تلك المشكلة أبدية ليس لها حل، فهل ستبقى ريح الحرب تجوس في سماء ووديان تعز حتى تُهلك الحرث والنسل؟!

فراشة في المنفى

المركز الإرشادي مكتظ بالنسوة في وقت الضحى على غير العادة!

تطوف لبيبة حولهن بخفة وسرور.. هي منسقة البرنامج، والمدربة الأولى فيه، بدت كالنجمة المتألقة وسط هذا الليف من النساء المعجبات بها، تحيي هذه، وتحيب أخرى عن سؤال حول البرامج القادمة للأطفال والمراهقين في المركز، وتحيل ثالثة تريد تسجيل اسمها في دورة تدريبية للمتزوجين إلى السكرتيرة.. ورغم سيم الإرهاق الظاهرة على جميع كادر المركز الإرشادي بعد جهود مضنية بذلنها خلال الستة أشهر الماضية، غير أن احتفاء الأمهات بالمدربات وثنائهن على برنامج "حماية الأطفال من التحرش في المدارس" أذهب كل شعور بالتعب قد انتابهن.

دخلت نسرين وألقت على الجمع تحية مقتضبة وتلقت ترحيبهن بها ببرودة ونظرات تائهة، ثم توارت في حجرة الإدارة الداخلية حتى غادر جميع النسوة المركز فخرجت من معزلها وانضمت للبيبة والسكرتيرة والمديرة المالية والمدربة سماء الجالسات في حجرة الاستقبال.

جلست نسرين على المقعد قبالة السكرتيرة وهي تضرب كفا بكف وتظهر كدرا يؤرقها، تبادلن نظرات إشفاق عليها.

- خيرا يا أستاذة؟! تجرأت لبيبة وسألت..

أجابت نسرين من فورها مصرحة بهمّ خاص ومخرقة طوق الكتمان الذي تغلف به حياتها الخاصة:

- زوجي راشد لا يكلمني منذ أسبوع، أتصل به فلا يرد، أراسله فلا يجيب، لا أدري ما الذي حدث له؟! كنا في آخر تواصل بيننا سمن على عسل، بل إننا لم نتشاجر منذ شهور.

صمتت هنيهة ثم التفتت للسكرتيرة أمرة:

- افتحي صفحة الفيس بوك خاصتي لعله أجاب على رسائي، انقطع النت في البيت وانشغلت بالحوثة وضربات العاصفة عن سداد الفواتير.

قامت من بقعتها، وجلست متوترة على جهاز الحاسوب بينما تنحّت السكرتيرة جانباً، مرّرت نسرين عينين ذابلتين من طول السهر على مفردات صفحتها، تصفحت خانة الرسائل المزدحمة بمراسلات عديدة تخص العمل ثم اتسّعت أحداقها شيئاً فشيئاً لترسم نظرة فوز! فغرت فاها وتتبع حروف كلماته بتلهف، تسمرت أمام الشاشة ملتهمة بعينها رسالة وصلتها منه، استرخت بعدها مسندة ظهرها للكرسي الدوار وأطلقت ضحكة فرح:

- الله يهديك يا راشد.

توجهت بكلامها إليهن:

- تخيلن منعه الخجل من الرد على اتصالاتي أو الكلام معي بسبب العاصفة! كم هو مسكين! لأنه خليجي تخرج من الموقف، خشي أن أصب جام غضبي عليه بعد ضرب طيران التحالف! فليضربوهم، ولينكهوهم، وليستأصلوهم بإذن الله.

هبت لبية ممتعضة:

- يا لركة وإحساس الأستاذ راشد.

مطت المدربة سماء شفتيها وقالت بخبث:

- ماذا تقصدين بقولك هذا؟!

- أقصد روعة الأستاذ راشد وعمق إحساسه الإنساني، شعر بفداحة الطامة الكبرى التي حطت على رؤوسنا، وتوقع ما سوف نلاقه من مشقة وبؤس ودمار في ظل هذه الحرب التي لن تبقي ولن تذر.

- ليست حربا بمعنى الكلمة، فقط ضربة حازمة، خاطفة، تخلصنا من الطاغية وأعوانه.

هكذا قالت نسرين.

ابتسمت لبية وقالت بلهجة ساخرة:

- أنت واهمة يا أستاذة، من يشعل نارا عظيمة لا يمكنه التكهّن بمداها ولا يدري متى ستنتطفئ؟! إنها الحرب.. تتمدد بجنون ولا تتخير ضحاياها، إنها لعبة الأبالسة، شر مستطير.

أسرعت نسرين بالإجابة:

- شر أخف من شر.

هزت لبية رأسها بعدم رضا:

- لا تدعوا كراهيتكم للآخر تعميكم عن الرؤية المستقبلية الثاقبة.

أجابتها نسرين:

- لسنا حاقدين.. هم أشرار متسلطون ومستكبرون وهم من بدأ بالعدوان، رأيت بنفسك ماذا فعلوا أول ما دخلوا تعز، لقد توجهوا بالدبابات نحو مقراتنا، فاخطفوا القيادات ودمروا وقتلوا وفعلوا الأفاعيل، يريدون أن نبقى عبيدا لهم للأبد وإلا سيقتلوننا.

- هم معتدون ظالمون لم نختلف في هذا، وهم مستبدون منذ القدم، يتعاملون بفوقية دائما، لكن لماذا الاقتتال؟ ولماذا نجعل من تعز مسرحا له؟!

قالت سماء:

- هذا قدرنا.

عقبت نسرين:

- وتعز هي من تقول "لا" دائما!

ردت لبيبة:

- قدر؟! يا له من عذر هزيل، الحرب خيار أحمق، سيحدث دمارا كارثيا لهذا الوطن الجميل، وتمزيقا رهيبا للنسيج الوطني والاجتماعي ليس له سابقة، ستشعل الحرب أحقادا قديمة لن تطفئها مياه المحيطات.

- أنتِ تبالغين يا لبيبة.

- وأنتِ تهوين عظيميا يا نسرين.

- ثقي بما أقول يا لبيبة، سيوجهون لهم ضربة حاسمة في حرب قصيرة المدى لن تتجاوز الشهر.

قامت لبينة محتقن صدرها بالفرض لموقف نسرين والبقية من الحرب، سكتت لوهلة ثم انفجرت بنبرة شجب واعتراض:

- ليس من حق أي أحد إشعال نيران الحرب على أرض وطني أيّا كانت مبرراته.. حصار وقصف جوي واستباحة وطن.. هذا ظلم.

صاحت بها نسرين:

- الحوثة ومن خلفهم هم الظالمون المعتدون، رد العدوان ودحر الصائل الغاشم حق مشروع، ألم تسمعيهم يهددون الجوار علانية؟ يصرحون بأنهم سيغزونهم في عقر دارهم، طبعي أن يدافع الجوار عن أنفسهم، ويجب أن يتصدى جميع العرب بحزم لهذه الفئة الباغية، ويفشلون مشروعها الطائفي.

قالت لبينة وهي تلملم أوراقتها:

- الكل يعلم بأن الحوثة ليسوا سوى شرذمة قليلة، ما مدى قوتهم بمقابل الجوار؟ لا شيء.. هل حشدت كل هذه القوات العربية وأشعلت هذه الحرب الكبرى لأجلهم؟! هذه التصريحات الهزلية فيها الكثير من الاستخفاف بعقولنا، إن وراء الأكمة ما وراءها، لكن حسبنا الله ونعم الوكيل.

أردفت نسرين:

- حسبنا الله ونعم الوكيل في صالح والحوثي ومن خلفهم.

توقفت لبينة قبل أن تغادر قائلة:

- حسنا سأوافقكم وأغيب عقلي، وأسكت صوت حدسي، وسوف أجاريكم مبدئياً، ثم سنرى ما سوف يحدث، وكما يقال العبرة بالخاتمة والأيام بيننا يا أستاذة.. أستودعكن الله.

مضت ليلية نحو المنزل تحدث نفسها:

- ترى هل كان سيختلف موقف نسرین من الحرب إن لم تكن زوجة لراشد؟! لماذا لا ترى الشر المحقق بنا جراء هذه الحرب؟! صديقتي نسرین عاقلة، متعلمة، مثقفة ونحن متوافقتان في وجهات نظرنا تجاه أمور كثيرة، كيف اختلفت نظرتنا لهذه الحرب؟! غاب الضمير العالمي حين قبل بوقوع مثل هذه الحرب على بلادي، وتحلل الضمير السياسي الوطني، وتخاذل بشكل مزر بسبب تنوعه وتعدد انتماءاته، حدث الشقاق نتيجة لكل ذلك، وها نحن ذا ندوق بأس بعضنا البعض، اللهم ألهمني رشدي، وأرني الحق حقاً وارزقني إتباعه، وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه.

تُكنّ نسرین الكثير من مشاعر الود والتقدير لليلية، وتثق برأيها دوماً، تستشيرها في شؤونها العامة والخاصة أحياناً، ظلت كلمات ليلية ترن في قلبها لأيام، شعرت بتوجس من خطر قادم، هاجس قوي يقلق فؤادها يجعلها تنشط لاستخراج جوازات سفر لابنتيها، قد تضطر للسفر إلى راشد في أية لحظة، ودون سابق تخطيط.

راشد.. هو زوجها الثاني، ليس يمينا لكنه زوج محب وحنون، التقت به في إحدى الندوات التربوية في العاصمة صنعاء.. يعمل في مجال التجارة والمقاولات، ويزور اليمن بين فترة وأخرى لمتابعة مشاريعه فيها، تزوجا بعد تعارف جادّ وقصة حب عفيف، مضت سبع سنوات على زواجهما، راشد يتواجد في حياة نسرین بوضوح وقوة، يمنحها وابنتيها من زوجها الأول

الرعاية، ويغدق عليهن من أخلاق العناية الشيء الكثير، نسرين تحبه كثيرا وهو يحبها ويفيض على بناتها بالعطف الأبوي، يبادلن ذات القدر من المشاعر المتدفقة الصادقة التي يمنحهن مثلها، يغرقهن بالعطاء المادي والمعنوي ببذخ يحسدن عليه، يجيء من مدينته "جازان" ليمضي معهن عدة أيام من كل شهر، أضحى راشد سندا قويا لنسرين، والأب الوجداني لابتيتها.

كانت قصة زواج نسرين الأولى من والد ابنتها غلطة مؤلمة كما أسمتها، كان صاحب رسالة من طراز فريد.. له حظوة ومكانة وسطوة في حزبه المعارض، رجل مؤثر وصاحب حضور قوي وشخصية جذابة.

وكانت هي شابة جميلة، متحمسة، متدفقة العطاء والبذل لقضايا حزبا، وداعية ناجحة وفاعلة، ومحاضرة محبوبة ومقنعة، تنشط بقوة واندفاع، تسلفت السلم الحزبي بسرعة حتى غدت تحضر اجتماعات الصف الأول من الحزب في تعز وهي لم تكمل العشرين من عمرها بعد.

أثارت انتباهه، جذبته بنشاطها المنقطع النظير وذكائها المتقد وعينيها الواسعة المتألقة المتطلعة نحو طموح عال يتلأأ بسطوع مثير في أفق عنين شديدة البياض بسواد عميق، ونبرة صوت رنانة مفعمة بالحياة.

أحاطها باهتمام كانت تفتقده وتهفو إليه، الاهتمام سحر أبيض يوقع كل أنثى في شرك الحب.. لكنه متزوج وأب لعدة أبناء، ويكبرها بقرابة عقدين من الزمن!

تلقت اعتراضات شديدة من الأهل والصدقات والأخوات في الحزب على هذه الزيجة، لكن سحر الحب كان قد غيَّب عقلها عن الحضور أو الإصغاء بتمعن ورشد للنصح.

تزوجا.. وكانت المفاجأة التي لم تتوقعها، خراب حلّ ببيتها الأول لم تسع لحدوثه، لكنها على الرغم من ذلك شعرت بوخز الضمير.

أخذ يضاعف اهتمامه بها، فرحت نسرين بهذا الاهتمام، في البدء اعتبرته لونا من الحب الذي تحتاجه، لكنه طفق يُشرنقها في حرير حبه دون أن تشعر، حاصرها وقيّد تحرّكاتها، غيّبها عن منابر الدعوة وحلقات العلم وجلسات الحزب، حتى أنه أراد منعها من إكمال تعليمها الجامعي.

احتضنت في جوفها طفلتها الأولى، غابت في شعور الأمومة عن أيّ شعور آخر، وضعتها لتحمل بالأخرى سريعا، ثم استعملت بعد مولد الثانية موانع للحمل.

بدأت يقظة تسري كضوء خافت في مسالك عقلها الذي تعرض لسبات قهري على مدى أعوام، نظرت في مرآة أحلامها التي بهتت، بحثت عن ذاتها القديمة في ملامح وجه هذه المرأة الجديدة؛ فلم تجدها، تراجعت خطوات للوراء مذعورة، أدركت أنه نجح في جعلها تنهاى فيه، تلاشت شخصيتها في حضور شخصيته القوي حتى الفناء.

تنامى شعور بالحزن والكآبة في أعماقها، فقدت طعم الأشياء؛ حتى مذاق الحب غاب عن وجدانها، كل شيء يشبه أي شيء، الكائنات تبدو بلون واحد، اللون الرمادي.. الهواء ثقيل، والليل طويل، والنهار ممل مقيت، والساعات مكتظة بسأم لا ينتهي.

في لحظة فارقة قرّرت نسرين أن تستعيد كينونتها التي ذابت في خمر حبه، ستسترد استقلاليتها وطموحها الراقد على وسادة هواه، أحلام العمر الأولى..

أفاقت في لحظة صدمة لتجد بأن العقد الثالث من عمرها بدأ ينزف أعوامه الأخيرة، نساء كثيرات يدركن حقيقة احتياجاتهن عند بلوغهن العقد الثالث من العمر.

بدأ الصراع بينهما من أجل الوجود والحضور والخروج من حالة التهاهي والغياب والفناء فيه.

صراع مرير لكنه حتمي للفوز بغاية سنوية تستحق بذل جهود خارقة، سوف تقاتل من أجل عودة سريعة إلى الحياة الكاملة، نحو الطموحات والآمال التي سعت في بكور عمرها لنيلها.

لم يمكنه استيعاب التغير الطارئ على طفلة الجميلة، هكذا كان يراها "طفلة المدللة".

لم أعد تلك الطفلة.. هكذا صرخت في وجهه.. أريد استعادة أحلامي التي سرقتها مني وخبأتها تحت عباءة حب مفصل على هواك، إن كنت تحبني حقاً فأحبني كما أريد أنا، وليس كما تريد أنت.

كان رجلاً عنيداً، صعب المراس، متصلب الرأي، وزعيم بين أصحابه، بكل الكبرياء الذي يحمله أمثاله من الرجال النرجسيين ويفسدون به عيش من يدور في فلکهم، امتنع عن الاستماع لشكواها أو الرضوخ لمطالبها، قال بلسان حاله وفعاله "ستبقين ملكالي".

تيقنت نسرین بأنه لن يفهمها مطلقاً، لن يفكها من أسرهِ بسهولة وتراض، فكان قرار الانفصال خلعا.

انطلقت بعد الفراق كسهم حياة مُحرر من قوس الغضب، أخذت تعلقو
 بسرعة صاروخية في فضاء الإبداع والعطاء، النشاط الذي يصوغ بنيتها
 الجسدية والنفسية، والذكاء المتعدد الذي حباها الله به، والحماس المكبوت،
 استحالت جميعها وقودا نوويا محركا لها، بلغت به سنام المجد والشهرة
 والتميز خلال بضع سنين.. عادت محاضرة، وداعية، ومدرسة، ومرشدة
 أسرية، ومدربة، ومؤسسة لمركز إرشادي نوعي.



عندما تيقنت نسرين بأن الحرب سوف تطول غادرت البلاد، لحقت هي
 وابتيتها براشد، فوجئ الجميع برحيلها حين نشرت على صفحتها على فيس
 بوك "غرباء.. نازحون.. متى نعود يا تعز؟!"

كل صباح تكتب منشور شجب، نداء، غضب، حزن، شوق..
 كل يوم تبكي على غصن الغربة الأعجف رحلة كفاح ونجاح، لا تدري
 هل ستعود لتكملها أم ستخبو هناك كشمعة منسية وتنطفئ للأبد؟!



حازم ويمن ..

أزاحت طرفاً من ستائر النافذة، بدا الفضاء غريباً عنها، يتشح بظلام دامس يتمطى في كبد السماء مبتلعاً كل ومضة نور، الحزن يعانق ليل تعز، يغل أنسه القديم بوحشة تطبق على الصدر، أعادت الستارة لموضعها فزعة، تباعدت مدفوعة بهمّ كبير رزح على قلبها، جثت على الأرض بحمل ثقيل؛ كأنها مال جبل صبر باكياً على كتفها فأوقعها.. هجست:

- جبل صبر.. نحبك كثيراً نحن سكان تعز وهو يحبنا، لم أتخيله يوماً غولاً يرسل من سفوح الموت للوادي، كأني به مكره على فعل ذلك، أكاد أراه مغلولاً، أسمع يبكى صولة البغاة عليه ويبكى الوادي، كم يرهقني نشيج أنينه، وتمزق روحي حشرة بكائه، كنت دوماً أشعر بطاقة الأماكن أكثر ممن حولي، أستمع لبقاع تعز تكلمني بهمس خاص، فهمت إحساس أشجارها وأحجارها وتراها، باحت لي بالكثير، وشت لي بخفايا آثرتني بها عمن سواي، حتى حذقت في فهم لغتها التي يقولون بأنها صماء.

قالت لي شمس ذات مرة:

- لكم تعاني الشخصية المكانية ويتفاقم وجعها عندما يؤدي أحد موطنها.

تسلل إلى مسامعها صوت غناء "لظفي بوشناق"، منبعثاً من جوال حازم القابع في بهو البيت، كلما سمعت يمن هذه الأغنية شعرت بكلماتها تحفك كعلم مرفرف بأعلى قمة في خريطة كيائها، ترن معانيها كجرس مقلق

في وديان فؤادها، يحزّها ألم عميق لوجع وطنها، لاسيما حين يهتز المطرب
بشعور حزن ويحيش جواه بحنين وطنية صادقة؛ فيدندن باكيا:

خذوا المناصب والمكاسب بس خلوا لي الوطن
يا وطن وانت حبيبي وانت عزيز وتاج رأسي
أنت يا فخر المواطن والمناضل والسياسي
أنت أجمل وأنت أغلى وأنت أعظم من الكراسي

تلاشى الصوت شيئاً فشيئاً، نفذ شحن الجوال.. هكذا قال زوجها حازم
المتوسد أريكة بوسط بهو البيت.

قفزت في هذه اللحظة لذاكرتها صورة من الماضي، قبل عقدين من الزمن،
عندما جاءت إحدى قريبات شمس لزيارتهم، شابة في مقتبل العمر أتت
من مدينة عدن برفقة أبيها لإجراء عملية استئصال ورم حميد طفر في مقدمة
رأسها، ستجري لها العملية في مستشفى الثورة، كانت تلك المرة الأولى التي
تأتي فيها الفتاة لزيارة أقربائها في شمال اليمن، فبعد الوحدة ساح الناس
فرحين بين مدن الشمال والجنوب.

في اليوم الأول حلولها ضيفة على أم شمس، بعد أن أسدل الليل ظلمة
هجوم لذيد على المدينة العذبة العيش وادعة الأمسيات، خرجت بها ماريّا
لشرفة تطل على حديقة خلفية للمنزل، تجلّى أمامها جبل صبر.. فغرت الفتاة
فاها وقالت بلهجة خليط بين العدنية والأينية وهي مندهشة:

- يا بوي.. ماله كذا السماء عندكم قريبة؟! كأن النجوم بتلامس الأرض!

غرق الجميع في الضحك عندما عرفوا بأن الفتاة حسبت أضواء المنازل المتراشقة على جبل صبر نجومًا دانية تتدلى مصافحة أودية تعز.

كانت يمن تمضي الكثير من الأوقات في اللعب واستذكار الدروس عند صديقتها شمس في سنوات طفولتهما، تذكرت يمن تلك الأيام الحلوة فانسلت دمعة حرة من عينيها.. همست:

- يا ربا.. لماذا سرقوا من تعز ألحانها وسرورها؟! -

منذ بدء الحرب ويمن تذرف الدموع في كل ليلة، تبكي وطنها الكبير اليمن، وتبكي المدينة الأحب لقلبها تعز.

يبدو أن قوة احتمالها لم تسع الكم الهائل من الخراب الذي يغزو جميع مفردات الحياة من حولها، تضطرم في صدرها رغبة جامحة للغرق في نهر دموع، تشعر باحتدام مشاعر الغضب والحزن في أعماقها يعوزها بشدة التنفيس عن بعضها.

حازم منهمك في تصحيح حسابات متجر والده، يجب ألا يراها باكية، هو يعتبر البكاء ضعفا لا يطيقه، أما يمن فلا تجد غضاضة في إطلاق المرء العنان لضغفه البشري بين فترة وأخرى للروح والتنفيس، لا سيما حينها تحيط به خطوط كهذه التي شوهدت كل معنى جميل.

كل يوم تهيم يمن في عوالم أحلام اليقظة، ترى نفسها تسافر على جناح طائر خرافي إلى بلاد العجائب؛ تقطف قدرا جميلا، وتخترق المستحيل ممتطية صهوة موج متلائي نحو الأيام الوردية، تغتسل برذاذ سمو وتلملم انكسارا داخلها يملؤها بشعور الهشاشة والنزع من الجذور، تحيّل نفسها مرارا بطلا من عالم

الخوارق، تنطلق ممزقة رداء القهر الملتحف به جسد المدينة، تكنس قمامة فكر أسود يكدر صفو العقول، وتحفر على جلمود قلوب صلدة كلمة حب تنتزع عمرا جديدا من بين فكي غول الحرب، تطرد زمن الوجع وتسكت ريح الفناء، تزرع ورد حنو في الأحداق غاب لزمن بين ركام الأحقاد، تبحث عن وطن وئد تحت بقايا انتهاء.



بعد رحلة ممتعة إلى عوالم ذكريات محببة، وأمنيات طفولية لذيذة، رجعت اليمن إلى محيط حجيرتها، وجدت نفسها مأسورة لرغبة جامحة تدفعها لإعادة النظر، هبّت من جلستها واقفة.. لم تكديدها تلامس ستائر النافذة حتى أفرعها صوت حازم وهو يجذبها من ساعدها مبتعدا بها عن النافذة.. قائلاً بغضب:

- كم مرة قلت لك لا تقتربي من النافذة ليلاً؟ يمن ما بك؟! أحيانا تتصرفين كالأطفال!

تراجعت وسكتت، أحس بضيقها من تصرفه، طوّق عنقها بساعديه وقال ملاطفاً:

- عذرا يا حبيبتي لم أقصد إزعاجك، لكن أنتِ لا تعرفين شيئا عن نفسية المرابطين في خنادق الموت، خاصة في حرب المدن والشوارع، يسكنهم الرعب، يحسبون بأن أدنى حركة أو وميض ضوء خافت خطرا مسلطا عليهم، ولن يتورعوا عن إطلاق النار على أي مصدر ضوء أو حركة تنتبه لها حواسهم.

هزّتها رعشة مباغته، شعرت باختناق وأهوت بجسدها على السرير
جالسة وقالت باكية:

- هل هذه تعز؟ المدينة الجميلة الأسرة لقلبي؟! وهل هؤلاء المقتلون
بعنف ووحشية هم أبناء وطني الذين عشت عمري كله وأنا أتغنى بطيبتهم
ورقة أفئدتهم؟! كيف صاروا لما هم فيه اليوم؟ أيّ روح شريرة سكنتهم؟
وكيف توارت الذات الطيبة عنهم وتنمرت فيهم الذات الشريرة هكذا
فجأة؟!

صمتت لوهلة ثم استدركت:

- لكن مهلا هل يحدث مثل هذا التحول الشاسع في سلوك البشر
فجأة؟!

كان حازم يصغي لها فحسب، هو يدرك متى تفكر بصوت عال فيلتزم
الصمت.. استطردت:

- مرّت ريح سموم في ساعة شؤم، ورفع غطاء اللطف من رب السماء
عنا؛ فتلبستهم، أحالتهم مسوخا كما يحدث في أفلام الرعب حين تخمش
المسوخ الشريرة بأظافرها البشر الأسوياء؛ فيستحيلون من فورهم آكلي لحوم
البشر، لكن هذه الفوضى العارمة من حولنا واقع وليست فيلما خياليا، ثم
نحن مسلمون.. كيف ننسى هذا؟! بالله عليك قل لي ألسنا من قال فيهم
رسولنا الصادق - صلى الله عليه وسلم - أننا أرق أفئدة وألين قلوبا؟!

جلس بجوارها ومّرّ كفّه على رأسها بحنو قائلا:

- قالها المصطفى.. ليس مدحًا كما يقال؛ بل قالها واصفا إيّانا بما هو فينا.

التفتت نحوه باستغراب ونظرت إليه بتفكر، لم تسمع شيئاً كهذا من قبل، تفسير خاص بحازم لكنه أربكها، لم تنطق بأي كلمة، بالكاد يمكنه رؤية ملامح وجهها على ضوء الشمعة الخافت، لكنه لمس سؤال استفهام في صمتها فاستطرد:

- معناها أننا عاطفيون، انظري حولك، الكثير منا كلمة تقيمهم وكلمة تقعدهم، مثل زرع غض تذهب به الريح في كل اتجاه.

- وهل العاطفة نقص؟

- في كثير من الأحيان تكون نقصاً، فلكل مقام مقال، ولكل موقف ردة فعل تناسبه.

- لكنه وصفنا بالحكمة أيضاً.

- الحكماء كثر، والعاطفيون الانفعاليون أكثر، اليمن بلد التنوع البشري المذهل.

- فأين هؤلاء الحكماء اليوم؟!

- الحكمة تغيب في أوقات الحروب، استطاع العدو أن يسلبنا ميزة الحكمة حينما نجح بإيقاعنا في فخ الحرب.

- العدو! من هو هذا العدو؟ سؤال يؤرقني.

همّ بالإجابة على تساؤلها، وقد رغبت بتطوير النقاش وتشجيع الحوار، لكن فجأة علا صوت الرصاص المقيت ممطرا الحي من كل اتجاه، سيهّب صاحب الدبابة كالعادة مصوباً قذائفه بعنف وتتابع، مسدداً رمياته على

المقاومة في المدى البعيد، وستسافر قذائف الهاون من جهة المقاومة فوق سطوح منازل الحي لتحط في معسكر للحوثيين يفترش مهاد الأرض خلف التلال المحيطة بحيهم، سينهض مجهول من مكان ما ليرشق وسط الحي بوابل نيرانه.

أطفأ حازم الشمعة، وانكمشا بزاوية آمنة، وكتما الأنفاس لبرهة.

كان أفعوان الحرب يعزف صليل هلاك في الخارج، وكان الصمت حائرا بداخل المنزل الكبير، وفي لحظة سكوت مريبة؛ تراقص في أرجاء البهو الفسيح مواء هواء أعقبه ارتفاع شديد لصوت قعقة السلاح، مازجه نحيب ريح عاصف رحل بغيوم مطر وشيك نحو بقاع بعيدة، عزف مقيت لأهزوجة الموت، غدا السمع أيقونة عذاب.

تنهدت يمن:

- ها قد بدأت وفي وقت مبكر ليلة أخرى عصيبة من ليالي الحرب.



المهمشون..

ذهبت شمس بعد أسبوع النزوح الأول بصحبة أمير لتفقد بيتهم، واستبدال ملابسهم بأخرى نظيفة، وجلب الحاسوب وملازم الجامعة، اختبارات "الفصل الدراسي الثاني" على الأبواب.

تساءلت شمس:

- ترى هل سأتمكن من خوضها في هذه الظروف الحالية؟!

وجدا البيت سالما لكن أثاثه كان مغبرا بصورة مريعة.

جلس أمير يتصفح رسائل "واتس اب" على جواله، صور جثث وأشلاء ضحايا الحرب تكتظ بها خانة الرسائل.. همست شمس:

- لست أدري كيف يحتمل رؤية هذه المشاهد؟!

تركته منشغلا بحذف كم الرسائل التي جاوزت الألف، وبدأت أعمال تنظيف مرهقة، غسلت الملابس على يديها وكنست البيت بالمشقة، كانت رائحة البارود تنبعث في الجو مع تناثر الغبار، شفت الغبار بالمكنسة الكهربائية غدا حلما بعيد المنال، سُعال متقطع يقعدها هنيهات عن مواصلة العمل، العطش يشقّ حلقتها، تحلم بقالب ثلج، ترنو من نافذة حجرة نومها نحو رباب سماء لؤلئي يتكور في الأفق، تمتن تحوله إلى كوب "آيس كريم" ضخم بنكهة الفانيليا والفراولة، وتلتهمه بمفردها.

تحتفظ شمس بمعالم طفولة عذبة في سماتها، تتمتع بشعور الطفولة الذي يملأ حيزا شاسعا من وجدانها، تفرح بأبسط الأشياء وتحتفظ بشعور

الدهشة الذي يفقده معظم الناس بمجرد أن يكبروا، أحب أمير فيها الطفولة التي تفيض براءة على ملمح وجهها، لاسيما عندما تكون منشرة الصدر راضية.. وهي أحببت فيه إحساسه بطفولتها، وتقبله لهذا الجانب الخفي من شخصيتها والذي لم يكتشفه أحد قبله، لذا اعتبرته أشد الرجال ذكاء.

عندما رآته لأول مرة، كان جالسا بين جمهور الحضور في قاعة التدريب وكانت هي ضمن مجموعة من المدربين تقدم فقرة تدريبية، حدّق فيها أمير مليا حتى أربكها، كانت عيناه تبرق بلمعان ذكاء شدها نحوه، ثم رأت خاتم زواج في كفه الأيسر فانقبضت منه وقالت في نفسها ما بهم رجال هذه الأيام؟ متزوج و "بصباص"!

بعد زواجهما سألته لماذا كنت تلبس خاتم زواج وأنت أعزب؟ فأجابها ضاحكا لكي أبعد عني الفتيات.

حز شعور بالعطش حلقها؛ فهتفت بأمر من حجرة النوم:

- أمير لو تكرمت اشتري لنا قارورة ماء.

تملأ قليلا وتذمر وتمتم:

- أنا تزوجت سمكة أم امرأة؟! طلبك للماء لا ينقطع.

قالت ممازحة:

- أنا لست سمكة يا روجي أنا حورية البحر.

- حاضر يا حورية البحر.

سمعته يرددها ثم يصفق الباب مغادرا.. هتفت:

- بارد.

- حاضر.

سارت خلفه وتيقنت من غلقه الباب، دلفت لحجرة الجلوس وجلست ببقعته، عبق عطره يتضوع بشذى خافت، واسترخاء لذيد يسري في أوصالها، أرخت جسدها على الكنية بمقابل التلفاز، ناجته بشوق:

- متى يفك أسر لسانك؟ متى ترجع لتسرد لنا الأخبار السيئة! لا يهم لن أتذمر مطلقا، فقط عد وتكلم.. قل ما شئت.. متى تنطق يا هذا؟!!

طاف بذكرتها أحداث حلقة من مسلسل أنثوي، كان آخر ما شاهدهه قبل غياب الكهرباء.. أما اليوم وبعد تجربة الحرب أدركت كم كان مسلسلا تافها، كم كنّ تلك النسوة مترفات، فارغات ومبذرات بنشاط لولبي في بؤر بطالة، متجملات ببذخ، كفراشات الزينة، ومرفهات كالأميرات، والعجيب حقا هو أنهنّ كنّ ساخطات على الدوام.. لا تدري لماذا تابعت جلّ حلقاته قبل أن تخنفي الكهرباء؟ ربما لأنه ثرثرة نساء جميلات، خفياهنّ، حماقاتهنّ، خطاياهنّ وبوحهنّ.. هي تشعر بسعادة غامرة بصحبة زوجها أمير على الرغم من سوء أحوالهما المادية.. تساءلت شمس:

- ترى كيف سيكون حال تلك النسوة إن خضن تجربة الحرب وفقدن كل مصادر دخلهن فجأة كما حدث لي ولأمير؟! أتوقع أنهنّ سيصبن بلوثة في عقولهنّ، أنا احتجت بعض الوقت كي أتأقلم، الله منحني القوة، وحيي الكبير لأمير خفف عني رهق المصيبة.. الحب أجمل شعور يولد في قلب

الإنسان، إنه إكسير سعادة سحري، ملطف للأحداث وخافض للتوتر، هناك بشر يعيشون ويموتون دون أن يهتز شعور الحب في وجدانهم، وثمة بشر لا يعرفون من الحب سوى عذابات العشق، الحياة بدون حب عميق صادق متوازن رحلة عناء وشقاء لا ينقطع، يا رب احفظ لي حبيبي أمير وأدم مودتنا وزدها عذوبة وسحرا.

انطرحت شمس راقدة؛ لتنعم باستراحة كادح، في تلك اللحظة مرّ أمام ناظرها مجموعة من أطفال "المهمشين" قادمين من مجمع الصفيح القريب من بيتها، مجتازين دهليزا ضيقا بين المباني، يفضي إلى الحي الآخر الداخلي، تبعتهم بناظرها في صمت، فجأة توقفوا متزاحمين أمام زجاج إحدى نوافذ حجرة الجلوس من الخارج، تغريهم مرايا الزجاج العاكس لاكتشاف الفوارق بين ملامحهم، لن يكتشفوا بأنها تراهم، تنافسوا على رسم وجوههم بملامح غضب وهزل وتوحش، يهرش بعضهم قشة شعره يخرج شيئا يفقسه بالتذاذ، رؤوسهم المكتظة أشعارها بالأوساخ غدت مستعمرات للقمل، لطخات متعددة تغطي وجوههم، فقراء مدقعون؛ ولكنهم يبدون سعداء! يعيشون في بيئة لا تصلح حتى لعيش البهائم لكنهم قانعون، صنف من البشر يعيش مقصيا قسرا عن المجتمع، ينقل الأجداد من أهل اليمن للأحفاد تحذيراتهم منهم بأن هؤلاء نسل الغزاة الأحباش، الذين غزوا اليمن قبل الإسلام، اليمن أرض الأصالة لا تمتص الغزاة معها طال زمن مكثهم، يتحاشى كل اليمنيين الاختلاط بهم، تضاعف بغض أهالي مدينة تعز لهم بعدما أظهروا ولاءهم للحوثة ورحبوا بغزوهم للمدينة.. كيمياء الاستبداد تجمع بينهم وبين الحوثة.

رغم شعور شمس بالعطف تجاههم؛ كانت تتحاشى النظر في أعين نسائهم في مشوار ذهابها وإيابها من وإلى الجامعة كل يوم، لا تنبس بحرف بعد إلقاء التحية على مسامعهن، ولا تدري لماذا تتصرف هكذا؟!

سألت نفسها مرة هل أصبت بلوثة رفض مجتمعي لهن؟! ربما أنا أخاف منهن!

لم يراودها مجرد التفكير في خلق علاقة جوار طبيعية معهن، حتى عندما كانت تُخرج لهن شيئاً من قوت البيت كانت لا تتكلم معهن، لم يشعر أحد يوماً بالذنب من سلوك كهذا مع المهمشين، كل النساء يتعاملن معهن هكذا، هل هي عدوى نسوية مثلاً؟!

تنهدت شمس بحسرة وهي تتأملهم وتحدث نفسها:

- سنتقل من هذا البيت بمجرد العثور على شقة أفضل في حي آمن، خسارة.. فوّت على نفسي فرصة اكتشاف عالمهم الخفي.

حياة "المهمشين" رغم أنها تبدو واضحة وبسيطة غير أن وراء ذلك كم كبير من الغموض، الذي يعرفه كل الناس عنهم هو أن جلّ النساء والأطفال منهم يتسولون، الرجال يعملون في شبابهم ويتمتعون بدخولهم دون منح أهليهم أية معونة تذكر، ثم يلازمون البيوت منذ كهولتهم وحتى الممات!

المرأة "المهمشة" مطيعة جداً للرجل في هذا العالم الذي تعيش فيه بؤسا لا يوصف؛ ودون أن تدرك بأنها بائسة وممتهنة، الكثير من رجالهم يعيشون

متآكلين من تسول النساء والأطفال، وأموال قدرة تجلبها بعض فتياتهم اللاتي لم يسلمن من إجبار ذويهن لهن على ممارسة الرذيلة المدفوعة الثمن.

أطفالهم سود البشرة متشعثي الهيئة، رائحتهم لا تطاق؛ لكن براءة الطفولة المفعمة فيهم تنسي الناظر إليهم كل ذلك، لا يمكن لأحد تجاهل روعة طفولتهم الفطرية المتحررة من أدبيات الطبقات المتأنقة.

تفرق جمع الأطفال ركضا وراء لهوهم، زفرت شمس أنفاسا عميقة ووقفت تتابع بناظريها هؤلاء الذين مضوا نحو مساكنهم، غزاها شعور غير مبرر بالحزن والأسى وهي تراهم يتوارون بين دهايز تلك البيوت الصغيرة الملفقة جدرانها بتشكيلة متنوعة من بقايا أخشاب وأحجار متنافرة الأحجام، وصفائح معدنية صدئة مسقوفة بالطين وروث البهائم وأشياء أخرى.

تواتر على مسامعها مؤخرا أخبار بأن طيران التحالف استهدف مواطن تجمعاتهم في بقاع شتى، قيل بأنهم يؤون أفرادا من ميليشيا الحوثي، ويخبئون لهم الأسلحة في مساكنهم العشوائية، تساءلت شمس بوجل وخيفة وهي تتذكر تفاصيل تلك الأخبار:

- ترى هل هذه حقيقة أم أنها بعض أكاذيب الإعلام وإشاعات الحروب المغرضة، أقسم إن كان هذا حقيقي فلن أشعر بوخز ضمير تجاههم بعد اليوم.. تنهدت:

- أرجو ألا تقصف الطائرات مساكنهم القريبة جدا منا، لطفك بنا يا رب.

فراشة الحب..

انسكب شعاع الشمس على وجهه، خيوطا مذهبة تنساب من فسيفساء
زجاج القمرية الأصفر اللون، تتوهج لاسعة خديه، ملهبة جبينه.. تلمل
بانزعاج وتحسس لزوجة عرق تراكم على صدغيه، مد يده وتناول منديلا
ورقيا من على "الكومودينو" مسح عرقه وزفر:

- ما هذا الحر؟ لماذا تأخرت الأمطار الموسمية؟!

نظر يمنة ويسرة، لم يجدها بجواره! تمنع في عقارب الساعة المنبهة ثم تتمم
بانزعاج:

- نمت أكثر مما ينبغي.

هتف بانزعاج:

- يمن.. أين أنت؟!

لم تجبه.. انتزع جسده من على السرير ومشى بثقل.. توقف أمام المرأة،
عيونه حمراء وجبينه متغضن ومتشعث الهيئة سيما الإرهاق جلية على وجهه،
مرّر مشطا بين خصلات شعره توجّع:

- لقد طال كثيرا.

هتف مجددا:

- يمن.. أين أنت يا حبيتي، تعالي لأريك شيئا.

عاود النظر للمرأة:

- لم لا تنبهني تلك المرأة لتسعث شعري وطول لحيتي المروع؟!
توجّس من صمتها وغيابها، مضى منداحاً بين ممرات البيت الواسعة بحثاً عنها، لمحها من نافذة المطبخ منشغلة بأمر ما في حديقة المنزل الخلفية، كانت مُنكبة على تنظيف تتور الغاز.. مشى بهدوء حتى وقف خلفها بخطوات.. سمعها تتمتم:

- يبدو أن أُمي لم تعد تستعمله منذ اشترى لها أخي معين الفرن الكهربائي، كيف سأخبز؟! لا توجد كهرباء، حتى مولد الكهرباء أخذوه معهم للقرية.
وثب وهصرها من خاصرتها بغتة.. صرخت فزعة:
- هذا أنت؟! لقد أخفنتي، تعرف بأني مرهفة الحس، لماذا تتصرف معي هكذا؟! هكذا؟!

أرسل ابتسامة وادعة وضمّها لصدره بحنو قائلاً:

- لا بأس عليك يا حبيبتى، أردت المزاح فحسب.
بالغت في الالتصاق به:

- حسناً.. لكن لا تخيفني مرة أخرى.

طبع قبلة على جبينها:

- لن أفعلها ثانية. تنهد وأردف:

- بماذا تذكرك خلوتنا في هذا البيت؟

فكرت لوهلة:

- تذكرني بأيام عُرُسنا، كان شهر عسل لذيذا، صِغنا ذكريات عُرُس رائعة في شقة أهلي الشتوية بعدن.. استمتعنا بالبحر، والسّمك المشوي، وأرز "الزريّان" العدني، والبوظة العدنية المتفرّدة المذاق، والزلاّبية، والأمسيات الساحرة على الشاطئ، وعقود الفل والكاذي، وهواء عدن العليل.

رنا نحو الأفق وهي تسرد عليه مفردات رحلة شهر العسل.. تنهد:

- بعدها عدنا لتنته في معترك الكدح من أجل العيش، وغبنا بين هموم الأسرة في البيت الكبير.

- إن شاء الله سوف نكرر رحلة شهر العسل مرات ومرات، بعد أن تنتهي هذه الحرب اللعينة.

- سنتتهي قريبا بإذن الله.. لا تبئسي، أراكِ ساهمة واجمة مخضلة العينين معظم الوقت، ستصيبك كآبة.

- كنت أقول هذا لنفسي اليوم، عقب استيقاظي من النوم.

- جيد أنكِ فكرتِ بهذه الطريقة الإيجابية، والآن انظري إلى مظهري، كيف صرت؟!

- أنت رائع دوما يا روجي.

- انظري جيّدا، تشعثت هيّتي وصرت كالغول وأنتِ غير مبالية، أصبحتِ تهمليني في الآونة الأخيرة.

- لا تقل هذا.. أنا أراك دوما رائعا.
- أصدرت أمعاؤه صوتا قال متألما:
- أنا جائع جدا، هل الفطور جاهز؟ لديّ عمل كثير.
- قضمت طرف سبابتها بخجل:
- العجين اختمر لكنني لم أخبزه بعد، وجدت تنور الغاز معطلا.
- لا بأس سأرتدي ملابسي وأخذه معي لورشة تصليح.
- في تلك اللحظة تناهى إلى مسامعها طرق على الباب.. قال حازم:
- من؟
- السلام عليكم.. نريد يمن.
- تهلل وجه يمن:
- هذا صوت شمس.
- انفتل حازم للداخل، هرولت هي لفتح الباب لتجد خلفه شمس وسامية
وسمر، هشتّ هنّ وبشتّ، تعانقن بسرور وشوق، جلبت شمس معها فطائر
الذرة وخبز "الطاوة" الساخن، تناولته منها يمن قائلة:
- كأنما شعرتِ بأني لم أعد طعام الإفطار بعد، سيفرح حازم بالخبز فهو
يحبّه كثيرا، وأنا لا أتقن صنعه مثلك يا شمس، كيف حال ماريّا؟ لماذا لم تأتِ
معكن؟

أجابت شمس:

- تبلغك سلامها، لقد ذهبت للتسوق وستزورك في وقت آخر.

قالت سامية:

- بيتكم مهجور منذ نزوح أهلك للقرية، جئنا سوية لنعينك على تنظيفه وترتيبه.

ابتسمت يمن برضا:

- شكرا لكن.. قامت ابنة عمي فاطمة بالواجب وزيادة، كانت تتعهد بالتبظيف منذ سافر أهلي للقرية، المشكلة الوحيدة هي تنور الغاز يبدو أنه تعطل.

شمريت سمر عن ساعديها قائلة:

- أنا خيرة في إعادة تأهيل تنانير الغاز، والبركة طبعًا في أمي.. دعي هذا الأمر لي.

حالت يمن دون قيام سمر بذلك:

- لا والله.. سيذهب به حازم إلى ورشة التصليح، هيا تعالين إلى الداخل. مضت بهنّ إلى حجرة الضيوف:

- سأعدّ الشاي، وأطعم حازم وأعود إليكنّ سريعاً، البيت بيتكن.

تأملت سمر سعة المجلس وزخرفته البديعة وأثاثه الفاخر باندهاش:

- بيتهم قصر، لن أقبل من زوج المستقبل بيت أقل منه.

ضحكت سامية من قولها.. عَقَّبَت شمس:

- اهدأن.. حازم لم يغادر بعد.

عاشت يمن طفولة سعيدة، وأيام صبا مترفة بالحب والسرور، كانت دوماً محسودة لجمالها الرائع، وثناء عائلتها، وبذخ عيشها، وسهولة حياتها، وحب حازم الكبير لها.

لكن ليت البدايات السعيدة تنتهي دوماً بمثلها.

عند بدء الحرب في تعز؛ انتقلت يمن مع زوجها حازم للعيش في منزل أهلها في حي الدار شمسي بشرق مدينة تعز الواقعة تحت سيطرة المليشيا، بعد أن قرر عمها مراد العودة بأسرته لقريتهم في محافظة إب، وبقي هو في منزله الكائن في حي الجمهوري في قلب المدينة، والذي تشكلت فيه خلايا مقاومة بمجرد بدء الحرب.. استبقى معه شمسان الأخ الأصغر لحازم، شاب في العشرين من عمره.

فضَّل حازم بقاء يمن بقربه، سيمكث في تعز مع أبيه لإدارة شؤون تجارة الأسرة، عمل يؤديه بعيداً عن مجال تخصصه.

حازم خريج ليسانس آداب وفلسفة، درست معه يمن في ذات القسم وتخرجت بدرجة امتياز، أما حازم فقد حاز المركز الأول على الدفعة، بعدها لم يدرك كيف تجاوزته فرص التدريس كمعيد في الجامعة؟!

ثم حُرِمَ من منح الماجستير التي وُزِّعت أمام ناظره يميناً وشمالاً متجاهلة تفوقه بظلم متعمد.. ربما فعلوا به ذلك لأن أباه كان من رجال المعارضة المعروفين.

لم يستسلم حازم أو ينكسر ويتخلى عن حلمه، طفق يعمل مع والده في تجارة الأقمشة؛ ليدخر المال الكافي لتحضير الماجستير والدكتوراه في الخارج.. حلمه الأثير هذا، والمحلق في مخيلته دوماً، تراه يمن منافسها الأول على مساحات قلبه.

عندما اتخذ حازم قرار استبقاء يمن معه في تعز، نزلا في بيت أهلها الذي خلا منهم بعدما رجع أبوها قاهر بجميع أفراد أسرتهما لقريتهم عقب أول غارة لطيران التحالف على مدينة تعز.

ولدت يمن كسائر أخوتها في مدينة إب، وعاشت فيها سنوات طفولتها الأولى قبل أن يقرر والدها نقل طرفا من تجارته لمدينة تعز، والانتقال بهم للعيش فيها، عاشت يمن أجمل سنوات عمرها في مدينة تعز، المجتمع الأكثر حرية، المدرسة النموذجية، ملاعب الطفولة المتأخرة، حي الدار شمسي الأشبه بقرية صغيرة.. تضاعفت متعتها في مرحلة الدراسة الجامعية، وتنعمت بقصة حب مثيرة مع ابن عمها حازم، والتي بدأت منذ الصغر، تفتحت مدارك يمن وهي تسمعهم يقولون بأن يمن ستكون زوجة لحازم.

اختارها عمها مراد زوجة لابنه البكر منذ الوهلة الأولى التي وقع فيها نظره عليها عند قدومها مع أسرتهما للعيش في تعز.. قال بإعجاب وهو يحملق بها:

- متى كبرت هذه البنت؟ ومن أين جاءت بكل هذا الجبال؟! كانت بالأمس القريب مجرد دودة صغيرة واليوم هي أجمل فراشات العائلة.

استوطن مراد مدينة تعز منذ صباه، بعكس بقية أخوته الذين بقوا في مدينة إب معظم سنيّ عمرهم.

أحبت يمن حازم ابن عمها براءة ونقاء وميل طفولي.. سعدت لما يخططون له بشأن إتمام زواجهما، حتى قبل أن تدرك المعنى الكامل لهذه المواضيع.

حازم بدوره بادلها ذات الشعور، كان يكبرها بعام واحد فقط، شاب وسيم متوسط الطول، مفتول الجسد وله وجه حادّ القسمات ببشرة بيضاء مشوبة بحمرة، شعره غزير وعيونه سوداء عميقة لامعة تنم عن ذكاء وفطنة ومحاطة بهالة غموض أسر.

بدت يمن لسنوات عدة أكبر منه لتسارع تفتح زهور أنوثتها وطول قامتها.

وسط تجهم الحياة في زمن الحرب شعرت يمن بالبهجة عند عودتها للعيش في منزل أهلها بحي الدار شمسي، بين جيرانهم القدامى، وقريبا من رفيقات صباها، شمس وأخواتها السبع، وصديقتهن سامية، وسمر الصديقة الأحدث سنا.. شابة مرحة ومشاغبة ومتعة المجموعة ومركزها الإعلامي.

حي الدار شمسي.. هكذا توافق الجميع على تسميته عقب افتتاح فندق الدار شمسي، الذي يفتersh سطح إحدى المرتفعات المحيطة به، هو أحد أحياء مدينة تعز الحديثة التكوين، لم يتجاوز عمره العقدين من الزمن، ينعم بالأمان والتواء بين سكانه الذين يعرف بعضهم بعضا بسبب مساحته الصغيرة المحاطة بتلال متفاوتة العلو، تطوقه من ثلاث جهات كحدوة حصان.

العلاقات الاجتماعية بين سكانه طيبة، مع هيمنة قيمة الاحترام وتقدير الخصوصية عليها نظرا لتعدد أصول السكان فيه، واختلاف المناطق القادمين منها.

تتفاوت طبقات الناس فيه، بين غني مترف، وفقير معدم، وكادح متوسط الحال.. يمثلون خليطاً متشكلاً من جميع طوائف وفئات المجتمع اليمني.

سعدت يمن بشعور الرضا الذي غمرها حين عودتها إلى الحى غير أنها كانت تموت هلعاً، ويأكلها القلق كل يوم وهي تنتظر عودة حازم من مقر عمله في شارع جمال بوسط المدينة، تخشى أن يصيبه عيار خاطئ أو رصاصة راجعة من مواقع الاقتتال المنتشرة على طول الطريق ما بين وسط المدينة وحي الدار شمسي، أو تصويب متعمد من قناص مهووس بالقتل المدفوع الثمن، في كل لحظة كانت ترى فيها حازم مقبلاً عليها من بعيد، تولد من جديد بعد موت جزئي وسبات روح يحمدها معظم ساعات النهار، وكل شيء جميل كان يزيّن عيشها غداً مصدر قلق لها.. عمها مراد هو الأخ الأكبر لأبيها قاهر، الذي يليه في الترتيب بين أخوته، عمومتهما عددهم ستة، كانت أجمل الأوقات تلك التي يجتمعون فيها بمجلس الأسرة الكبير في منزل مراد بتعز، يتبادلون أطراف الحديث، ويتجادلون حول مبادئ وأفكار ومشاريع أحزابهم المتعددة، لا يوجد اثنان منهم في حزب واحد، ومع ذلك لم يكن ليحدث بينهم أي نزاع شديد، أو خلاف يذكر حول تعدد انتماءاتهم الحزبية.

أثناء ثورة ١١ فبراير حدث فتور في مشاعر المودة بينهم، وخدش طفيف في العلاقات، سرعان ما التأم؛ لكن بعد اندلاع هذه الحرب المقيمة، واحتدام الاقتتال بين جميع الأطراف في اليمن، بدأ الجميع يتوجس من حقد أخذ ينفث نيراناً في القلوب، كم ترعّبها فكرة حدوث شقاق بين أبيها وأحد أخوته.

ما أسوأ أوقات النزوح..

تتنقل شمس بتململ بين حجرات البيت الذي نعمت فيه بأجمل سنوات عمرها، تتعرف على بقايا ذكريات أوقات حلوة كانت ومضت كطيف منام، ينكرها الماضي! شعور غامض يسلمها من ذاكرة المكان.. فتنسى بعضها منها.

تتساءل بفزع كيف يحدث هذا؟!

تركع.. تتزلف وتستغفر من ذنب النكران.

تتمرغ على حيطان الحجرات.. ترجو أن تخلع الملل متذمرة متى أغادر سجن الانتظار؟!

تلتصق خدا بأرضية الفناء الساخنة، تلسع مكمّن إحساسها وتبعث بعضها منها.. تصوغ قارب نجاة من قصاصة حياة نحتتها وشماها هنا.. عبثا تحيي رفات موات، طوفان ضجر يغرقها، تتشبث بحبل أمل وتركض خلف غمام أخضر، تزرع حلما وهميا بين ثناياه، تهرب من عدم يأسرها.. ضجرت:

- كأني نمت قرونا في برزخ نزوح خائق.

أطلّت من طرف نافذة بعيون مغشاة بغلالة قلق، طالما استعذبت شمس نسيم هواء يتدفق من خلال هذه النافذة، وكم استمتعت بمرأى أطفال حي الدار شمسي في ملاعبهم، وهم يقضون أوراق عمر ندي بابتهاج عيدي، وصخب لهُو بريء، يخطون سفر ذكريات على لوحة ساحة تتوسط الحي.

هبت زوبعة ريح، صفعها بهتان اللوحة وتلاشى عزف الأطفال، تبعثر لهُو ملاعبهم في هوة غدر الأخوة المؤلم، خفت مرتجلا أهزوجة حزن بين

نعيق البنادق، غابت روعة فن طرب زغب أزلي.. صورة فطرية تُسحل بأيدي شوهاء شيطانية، تمزقها بحقد وغباء، حتى الأشجار تركت بعضاً من رونقها لتسحقه معمعة صراع بوهيمي.

كانت شمس في الماضي القريب تستلهم من بهجة الطفولة وحفيف الأشجار وتلون الأحجار وعبق الطين المبتل بعد نزوع المطر؛ أعذب خواطرها.. هي تنظر اليوم إلى نفس البقعة من ذات الزاوية، تفرك عينيها بقوة تحمش جدران وجدانها وتمزق ستار اللا شيء، تدمع رذاذ وجع؛ فيرتد خاطرها مكدوداً من تبدل الأحوال.. شعرت بأنها غدت جزءاً من سجن كئيب، أنسنتها استحالت جلموداً فاقد الإحساس بكينونته.

تمضي الأوقات في زمن الحرب هباءً منثوراً في مدرج ريح حقاء، في كل ليلة تأتي طائرات نفائة وغير نفائة لتحلق في سماء تعز تقصف أهدافاً شتى، تلقي بالأسلحة في بقاع معينة وحفلات من المال.

يقتتل الناس ويحرقون الأحلام، يغتالون الغد بسابق إصرار وترصد، يقبحون لوحة الطفولة الندية بحبر دماء، يشوهون الطبيعة الخلابة بمخالب سلاح، يمزقون الأشلاء البشرية وينبش كل منهم بطن الآخر ويغرزنابا مسعوراً بين أحشاء المدينة المشبورة.

نظمت شمس يوماً شعر حب، وقصيدة وطنية، كتبت أقصوصة، وطار على أفق عقيق يمانى.. غابت مأخوذة، مسحورة ومأسورة بين ثنايا سفر تاريخ وضاء.. واليوم جمد وجدانها، وتلوى قلمها محسوراً، ذهب الماضي والآتي معاً، توقف الزمن في خانة الدمار والخراب.. طيور شؤم

تحلق في السماء وحيثان نهمة تتربص على الساحل وغربان وخفافيش تنتهك قدسية الجبل.. شنفوا الحياة على صليب بُهتان مجهول الهوية، لن تصلي الدنيا حيناً لأجله ولن يغدو يوماً قرباناً للسماء.

الأخبار مكذوبة والأنباء متضاربة وغير مؤكدة والغايات معمة.

الرعب يحتاج المدينة الوداعة، الناس يغادرونها فرادى وجماعات، النساء تصاب بتشنجات في أطرافهن وقيء، اضطر رجال كثر لترحيل نسائهم للقرى وعادوا لحراسة منازلهم، توقف التعليم وأوصدت المحال التجارية وتعطلت الدوائر الرسمية وعلقت المؤسسات الخاصة أعمالها لأجل غير معلوم، غلقوا الأبواب وسرحوا العمال بعدما تيقن الجميع بأن الحرب ستطول.

ألف مرة سألت شمس نفسها ترى ما الذي أوصلنا لما نحن فيه؟!
قصّ عليها أمير ليلة البارحة ما سمعه في الحافلة العمومية من أحد الركاب والذي بدا آسفاً على حال المدينة:

- لقد رحبت بالعاصفة، حسبتها ستخلصنا من الطاغية وأعوانه وستكون ضربة سريعة حاسمة، لم أتوقع مطلقاً أن يطول أمدّها أو أن تقصف طائراتها مدينة تعز!

أجاب آخر:

- الحرب لا تحايي أحداً يا ذكي.

قال أمير:

- الحرب تكبر ولا تشيخ.

- ستموت إن شاء الله. هكذا قال ثالث..

أجابه أمير:

- أجل ستموت.. لكن متى؟! بعد أن تمت كل حياة هاهنا؟!
- يا أخي قل خيرا، تفاعل. قالها الشاب الذي يجلس بجوار سائق الحافلة..
- أجابه شيخ حسن الهيئة عليه سيبا تأمل:
- أيّ خير في الحروب؟! انتظروا يا أهل تعز أيا ما أسود من ريش الغراب.
- الله يرضى عليك يا حاج لا تزيدنا خبالا، هذه الحرب فرضت علينا، نحن لسنا المعتدين، نحن ندافع عن هويتنا ومدينتنا. هكذا قال رجل متوسط العمر يجلس خلف السائق..
- قال شيخ هرم طاعن في السن:
- هلّلتهم وطبلتكم للحرب فاشربوا كؤوسها المرة.
- غادر سائق الحافلة صمته مجيبا:
- ليس كلنا هلال وطبل وفرح بهذه الحرب، فئة قليلة خرجت تطبل للحرب بغباء وسداجة، لا يعرفون ما الذي تجلبه الحروب من بؤس وشرور.
- تناثرت ألفاظه حديثا مثقفا منتقاة معانيه.
- مطّ أمير الجالس في مؤخرة الحافلة المكتظة بالركاب عنقه متفرسا وجه السائق الظاهر في المرأة:
- أستاذ عبد الحكيم.. الله يحفظك يا حبيب، أين غبت يا رجل؟! زمان والله.. افتقدناك في المنتدى الثقافي.
- كما ترى.. الدنيا تطحننا، اشتريت هذه الحافلة بمدخرات العمر ودين ثقیل، الوظيفة فقر وتجويع رسمي، العيال تكبر ومصاريفهم تكثر.

قال أمير:

- ربك يعين.

- الحمد لله على كل حال، كان ينقصنا الحرب لتكُمّل مصائبنا! لا حول ولا قوة إلا بالله.

انبرى ذلك العجوز الطاعن في السن قائلاً:

- أنتم من استدعى هذه المصيبة.

سأله الشاب متهمًا:

- من استدعى المصائب والخراب يا جد، أليس هؤلاء الغزاة المنبعثون من كهوف مظلمة؟!

رد عليه العجوز بحرد:

- نعم أنا جد... هرم عجوز؛ لكنني أعرف تاريخي وأعرف عدوي، لست جاهلاً مثلك.

- ماذا تعرف من تاريخك يا جد؟! الإمام الذي كان يقطركم كأنكم إبل مسها الجرب؟!

توثب العجوز حانقًا وصاح في سائق الحافلة:

- قف.. أنزلني.. شباب ملاعين!

توقفت الحافلة.. غادرها العجوز بتعجل وهو يسب ويلعن، والركاب ما بين واهم مندهش وضاحك ساخر.

العودة من النزوح..

بعد أسبوعي نزوح في بيت أهلها قررت شمس العودة إلى بيتها..

- يبدو أن الطيران لن يضرب معسكر الأمن المركزي كما أشيع.

هكذا قالت لأمر..

أجابها:

- ربما.. المفترض ألا يستهدفوه؛ فعلى خلفية مبناه تتراشق مساكن "المهمشين" الرثة، كما أن الأحياء السكنية تحيط به كسوار معصم، وهي مكتظة بالأهالي من ذوي الدخل المحدود.. إلى أين سينزحون؟ إمكاناتهم المادية لا تسمح لهم بذلك، وثمة مستشفيات خاصة بجواره، وكذلك بنك قريب منه، إضافة إلى الشوارع الرئيسية التي تطوقه ولا تخلو من المركبات العامة والخاصة نهاراً أو ليلاً؟!

- كيف يقام معسكر بهذا الحجم في قلب المدينة؟!

- فوضى.

- بل إجرام متعمد.. عموماً يبدو أن احتمال قصفه غير وارد، سنرجع لبيتنا أخيراً، لقد سئمت النزوح.

- ما زلت مصرة على تسميته نزوحاً؟! هل نسيت بأنه كان منزل

أهلك؟!

- والله ما نسيت؛ لكن شعوري ووجداني انتقلا لخارطة أخرى، لمنزلنا أنا وأنت، بيتنا ومملكتنا الخاصة.

- أنتنّ النساء عالم غريب.

ضحكت وهي تجمع بقية أشياءهما ولم تعقب.

أردف أمير:

- حسنا.. أرجو ألا يقصفوه، سنعود والله خير حافظا.

رجعا ليجدا الحي تصفر فيه الرياح.. حتى مساكن "المهمشين" خلت منهم عدا بعض شبابهم، يبدو أنهم مرابطون لحراستها، سيقومون لمرة واحدة بعمل ذي نفع لأهاليهم.

مرّ بمحاذاتها رجالان مشتملين سلاحا ثقيلا، لم تتمكن شمس من تمييز نوعه، تعددت المسميات المحلية التي أطلقها الناس على الأسلحة الكثيرة التي ظهرت في تعز من كل نوع.

صاح بهم أحدهما:

- لماذا عدتم؟ ابقوا بعيدا، المعارك هنا تشتد يوما بعد يوم.

هجس أمير:

- يا له من استقبال مبشر.

لم يدركا كنه ما قاله الرجل حتى أسدل الليل ستاره.

قامت قيامة المكان.. نشبت حرب ضروس بين رجال المقاومة المتسللين من خلف الحي وميليشيا الحوثة في النقطة الواقعة وسط الطريق المؤدي لمبنى

الأمن المركزي، اشتد تراشق النيران بسلاح الكتف والهاون والمدفعية ومضاد الطيران وغيرها، الآن فهما لماذا خلا الحي من ساكنيه!

كانت ساعات الاشتباك تطول في كل ليلة بين الفئتين حتى يفصل بينهما سلاح الدبابة.. ضربة وأخرى تتفرق على إثرها جموع المقاومة ويذهبون بعيدا.. بعدها تسوي شمس فراشهما في المخبأ تحت عمود البيت الملاصق للجبل المحاذي للمنزل ويخلدان لنوم زائف قلق، متوقعين في أي لحظة قصفا من الطائرات النفاثة، أو عودة اشتعال المعارك بين أفراد المقاومة والحوثة.

في إحدى ليالي الرب تلك وبعدها سرقتها من قلقها هجعة نوم أسرة.. طرق مسامعها صوت طفل رضيع، فتحت عينيها وأرهفت جميع حواسها، الظلام يلف جميع أركان الحي، ضوء خافت ينبعث من حجرة نومها.. الصوت آت من هناك.

قامت بهدوء لترى.. صرخت:

- يا إلهي.

رأت امرأة متوسطة العمر ترقد على سريرها وتحتها صبي ضخم تُدلي له ثديا كبيرا محتقن بالحليب وتحمل الآخر بيدها، تغطي شعرها بخمار قطني مهلهل، ملابسها تشبه ملابس نساء "المهمشين".. صاحت بها:

- ماذا تفعلين في حجرة نومي؟ من أذن لك بالنوم على سريرتي؟!

رأت حول الأم المرضعة رجلين كأنهم بعض ذويها.. وقفوا دون حراك، صامتين.. خاطبت جميعهم:

- أما تخافون الله؟ كيف تستريحون أشياء الآخرين دون وجه حق؟!

لم يجبها أحد، بقيت تلك المرأة مستلقية على السرير، ترميها بنظرات بلهاء،
 ثبتت عينيها على وجه شمس بعيون وقحة ووجه صلف، تجاهلتها ببرودة
 تامة وانهمكت في إرضاع صغيرها غير آبهة بثورة غضبها.. أردفت شمس:
 - هل أنتم مسلمون؟! هذا الذي تفعلونه حرام، هيا اخرجوا من منزلي
 فوراً.

صاحت بهم وكررت ذلك حتى شعرت بأن صوتها سيغيب، أفاقت من
 نومها على صوت جرس المنبه لصلاة الفجر، قامت من فورها وأشعلت
 شمعة ودلفت نحو حجرة النوم تستجلي الأمر، تنفست الصعداء حين
 وجدت سريرها خالياً، مرتباً ونظيفاً.. همست:
 - شكراً لله.. كان مجرد كابوس.

في الضحى وبعد خروج أمير من البيت فتحت سورة البقرة وآل عمران..
 قالت بإصرار:

- سوف أملأ البيت بالطاقة الإيجابية.

عادودتها منامات مشابهة، كانت ترى نفسها وهي تصارعهم، تفرع جميع
 أبواب الشقة وهي تتلو آية الكرسي والمعوذات، تصرخ فيهم اخرجوا من
 بيتي لا أريدكم هنا، غادروا المكان.

تمزقت شمس بين هم هذه الكوايس وهم الحرب.

في بداية الحرب استعرت المواجهات في أحياء بعينها من مدينة تعز، ثم
 تكاثرت ساحات القتال في مناطق شتى من المدينة بعدما أعلنت المقاومة

عزمها على الاستمرار في الكفاح المسلح حتى تخرج ميليشيا الحوثي من تعز، وتجبرهم على ترك السلاح والعودة لطاولة الحوار.

تعطلت الأسواق.. لم يبق أي سوق محتفظ بنبض الحياة سوى سوق شارع التحرير في قلب المدينة، بقي بمنأى عن المواجهات، كأنها توافق الطرفان على تحييده ليمد سكان تعز بالقوت الأساسي والحاجيات، أفلت المستشفيات أبوابها وسافر معظم الأثرياء وأصحاب النفوذ خارج اليمن قبل اندلاع المواجهات في تعز، حتى محافظ المدينة هرب وتركها وحيدة مهیضة الجناح، تتلوى وجعا وتحتق وتوت بطة.

تقطعت سبل عيش الناس.. فقد أمير عمله وأضحى يواجه الحرب والغلاء المستعر بأيد فارغة من كل حيلة.

عصفت في نفس شمس هواجس شتى، تخشى أن تفقدها الحرب أحد أحبته، القلق يُشعل فتيله في أعماقها بصمت، والميليشيا تطلق نيرانها جزافاً؛ تدمر البيوت وتحصد أرواح المدنيين دونها رحمة.

يعتبرون جميع أهالي تعز متمردين على سلطتهم الإلهية، مستحقين لأقسى العقوبات.

عندما يخرج أمير ليجلب لهم ماء للشرب أو شيئاً لصنع طعام، تموت شمس ألف مرة خوفاً عليه، وعندما يجلس في البيت الأيام المتتابعة والبيت شبه خال من الطعام؛ تتمزق وجعا لعلمها بأنه محصور على حالهم مع قلة حيلته.

قال لها أمير في إحدى ليالي الحرب:

- لا مخرج لنا مما نحن فيه سوى الانضمام لصفوف القتال، بهذه الطريقة فقط سأحصل على المال لنعيش.

قالت باندهاش:

- كيف تفكر بهذا؟!

- ولماذا لا أفكر به؟! ليس أمامي أيّ خيار آخر.

- أمير.. أنت متعلم ومثقف وطاقتك الذهنية مذهلة، ثم إنك شخص حنون، لا يمكنك ذبح قطة!

- سأفعلها.. سأجبر نفسي على فعلها قسراً، وإلا فسنموت أنا وأنت هنا جوعاً دون أن يأبه لنا أحد، الأموال تتدفق لأيدي الفئتين المتقاتلتين وبقية الشعب يموت ببطء.

- كيف ستشارك في القتال وأنت لم تتدرب على حمل السلاح؟ وهل ستقتل البشر وتسهم في إحراق الوطن؟

- سوف أندرب.. ثم أين هم البشر؟! هل هم هؤلاء الغزاة القادمون من جبال مران المستيبحون دماءنا بوحشية الغاب؟ انظري كيف ينهشون لحومنا بضمير ميت، وأين هو هذا الوطن الذي تبكيه؟! بؤرة صراع وبؤس وشقاء لا ينقطع، ليذهب هكذا وطن إلى الجحيم.

- أمير! ما هذا الكلام؟!

- وطنك معقل للاستبداد، وغنيمة للغزاة.. مستعمرة خفية يتنازع عليها كبراء العالم، عرش للطغاة الفاسدين، وطنك هذا لم أذق فيه يوماً طعم الأمان، تجرعت تحت سمائه جميع مذاقات الإذلال، لم أستطع إكمال دراستي الجامعية، حتى الخدمة العسكرية عندما تقدمت لها حرّموها عليّ، لم أحصل على وظيفة تؤمن لي عيشاً كريماً، تأخر زواجي لما بعد الثلاثين، كم مرة نشبت بجسدي الأوجاع ولم أجد ثمن الكشف عند الطبيب، أنحت الصخر مذوعيت؛ فقط لأبقى حياً، ثم بعد أن ضحك لي القدر وفزت بكٍ وصار لي بيت دافئ وأسرة محبة وحصلت على عمل في جامعة خاصة تأتي هذه الحرب اللعينة لتذروا كل ذلك هباءً منثوراً في مجرى صراع متوحش على السلطة والثروة والنفوذ، لقد سئمت كل ذلك، سأذهب لساحة القتال وليكن ما يكن، سأموت لمرة واحدة وأرتاح، بعدما ذقت مرارة الموت كمدا وقهراً مراراً.

قال أمير ذلك ثم بكى.. كانت تلك المرة الأولى التي تراه فيها باكياً، احتضنته بحنو وبكت لبكائه.

لم يمهلوهما حتى يفرغا شحنة أحزانها، سقط وابل رصاص قرب النافذة واشتعل القتال بغتة، قفرا من فورهما صوب المخبأ، تكومت بقربه وحشرة بكاء مازالت عالقة كشوكة مسخنة تحز حلقها.

أمير رجل عصامي، بنا نفسه بنفسه، له أب منسحب من مهمة الأبوة، تزوج بامرأة أخرى بعد موت أم أمير وتركه وأخوته الصغار، تولى أمير مسؤولية رعايتهم حتى شبوا عن الطوق، أحب شمس منذ النظرة الأولى

في أول مرة رآها في المركز الإرشادي عند نسرين، لم يهدر مزيدا من الوقت في التفكير، قرّر من فوره التقدم لخطبتها، وبعد عام من الخطبة تزوجا، فرح بهذه الزيجة وحسب بأن الدنيا قد وادعته وكفّت عن مشاكسته بكدرها، لكن الحرب جاءت لتخيب آماله وتهوي به في قاع معاناة جديدة.

أشاح بوجهه عنها، شعر بالخلجل من دموعه.. تباعدت عنه قليلا كيلا يشعر بمزيد من الحرج.

انطلق لسانها يلهج بالدعاء على مشعلي هذه الحرب، توسلت لله بأن يحفظ لها زوجها ويبقيه كما أحبته مرحا متفائلا، أرسلت دعوات صادقة للجميع، تذكرت أمها التي تنوي السفر إلى صنعاء.

اغتمت شمس وتفكرت كثيرا في الموقف وتساءلت بصمت؛ ترى هل ستنعم أمي بطيب العيش وسط أسرة أخي أمجد بعيدا عن أجواء الحرب، لاسيما بعد أن فاجأهم زوجته بمقترح الهجرة؟ قالت بأن شقيقها المستوطن بلدا أوروبيا منذ عقود سيُرسل لها طلب ضم ومن ثم ستضم إليها زوجها والأولاد تباعا! كيف لأمجد قبول هكذا فكرة؟ رحيل أبدي عن الوطن.

يا للأم المسكينة.. هل تستطيع احتمال فراق ولدها الأثير وأبنائه؟ وماذا عن أخواته؟ كيف يغيب أمجد تماما عن حياتهن وهو أبوهن بعد أبيهن؟! لقد احتدم النزاع بالفعل بين أمجد وزوجته حول مقترح الهجرة.

قالت شمس لأمير الذي بقي يستجدي النوم معظم الليل:

- هل تعتقد بأن زوجة أخي أمجد موفقة في اتخاذها قرار الهجرة؟!

- أرى بأن أجد مخطئ في اعتراضه، المفترض أن يحمد الله على منحه هذه الفرصة النادرة الحدوث في هذه الأوضاع.

امتعضت شمس من رده ولم تجبه.. لامت نفسها بصمت لا يجدر بي طرح هذا السؤال عليه، أمير ساخط للغاية من وضعه الخاص الموشك على الانهيار، يحلم ببساط ريح يخرج منه هذا الجحيم.

تقلبت شمس طويلا في الفراش محاولة نيل سَنة من نوم، تساؤلات شتى تُلح على خاطرها وتؤرقها، ماذا عن أختي لينا؟ زوجها شكري يفكر جديا بالنزوح لقريتهم في ضواحي مدينة إب، ترى هل ستأقلم لينا مع الحياة هناك في بيت أهله؟ وليبة متى تدع العناد وتخرج من حي الثورة الناضح خرابا؟ وماذا عن بشرى التي ركبت رأسها وصمّت على الرجوع إلى عدن، والانضمام لزوجها رغم احتدام المعارك هناك، عندما مُت مليحة على تركها لبشرى تعود وحدها قالت لي تعرفين بشرى وحساسيتها الزائدة، لم تطق البقاء كنازحة.

يا له من شتات.. لم نتخيل حدوثة يوما ما.



مولد فراشة..

بعد زواج شمس من أمير بشهور؛ انتقلت أمها للعيش في بيت ابنها ماجد، ثم غادرت مؤقتاً لتقوم برعاية ابنتها الصغرى لينا التي وضعت مولوداً ثانياً، رُزقت طفلة مثل البدر أسمتها "عائدة".

ذهبت شمس بصحبة أمير لرؤيتها في المستشفى، كانت ولادة لينا الثانية مؤلمة للغاية، قرر الطبيب توليدها بعملية قيصرية؛ لكن أوجاع الولادة باغتها قبل موعد العملية بيومين، عزا الكل ذلك للضغوط النفسية الرهيبة التي سببتها الحرب.

تسكن لينا في حي الروضة، معقل قائد المقاومة في عز.. يتعرض الحي لقصف شديد من قبل سلاح الميليشيا، يعمل شكري زوج لينا مع والده وأخوته في مركز تسوق خاص بهم في أمريكا، يحمل الجنسية الأمريكية كسائر أبناء أسرهم التي هاجرت إلى هناك منذ عقود، جاءت الطائرات الأمريكية لتقل رعاياها عند بدء الحرب؛ لكنه امتنع عن السفر رغبة منه في حضور مولد طفله التي اشتاق لرؤيتها كثيراً وانتظر شهوراً بتلهف واعتباط لحظة خروجها للدنيا.

بعد أن أمضت لينا عدة أيام في المستشفى الخاص، رجعت لبيتها مع أمها وزوجها وشقيقتها سالي التي سافر زوجها للعمل في السعودية منذ سنتين، وجدوا حي الروضة شبه خال من ساكنيه، العمارة التي تقع شقة لينا في الدور الرابع منها هجرها جميع سكانها، لم يبق سوى الحارس.

في كل ليلة عند احتدام المعارك تنزل لنا بالرضيعة وأخيها ابن الأربعة أعوام مع البقية لبدروم العمارة؛ فرارا من وابل القذائف والرصاص الذي يمطر به الفريقان المتقاتلان الحي، ثم يعود جميعهم إلى شققهم بعد الفجر، رحلة عناء ليلية مخوفة برعب لا يحتمل لنفساء بعملية قيصرية.

كانت شمس تكلم أمها ولينا باستمرار لتتفقدهم، بعد مضي أسبوع على ميلاد عائدة أخبرتها أمها بأن زوج لينا قرر النزوح بهم لقرية أهله، بعد أن بدأت عملية لينا القيصرية تلتئم وأخذت تسترد بعض قواها.

أقسمت شمس على أمير أن يذهب بها لتراهم قبل أن يسافروا، فوجدت لينا مصفرة البدن، هزيلة الجسد وغائرة العينين، توجعت بصمت لحاها.

جاءت مليحة أيضا لرؤيتها قالت وهي تظهر حماسا:

- خرجت من البيت وبناتي يتوسلن ألا أخرج، مشيت وسط المعارك غير عابئة بأصوات القذائف، قرّرت المجيء لأراكم وأرى الطفلة التي لم أرها منذ ولدت، كسرت حاجز الخوف، لا أحتمل تحول الحياة لسجن، لن تجبسني الحرب.

قضين معا ساعات وصال وود غاية في الروعة.

كانت والدتهن حزينة لأن ماريأ أخرجتها من البيت بكذبة، ادّعت بأنها ستبيعه لكنها لم تفعل، بدت منكسرة لأنها فقدت السكن المستقل، وخائفة على الجميع.

كانت سالي ترعى لينا بنشاط موفور، جلسن بعد الغداء يحتسين أقذاح الشاي ويقضمن كعكا محلى، ثرثرن طويلا، اغتبن جميع الساسة والمتقاتلين. أزعج روعة اللقاء تبادل ضرب نار بين الفينة والأخرى؛ لم يكثر ثنه به.

قالت مليحة ساخرة:

- يبدو أننا اعتدنا على قعقة السلاح.

ردت شمس ضاحكة:

- أخشى أن أصاب بأرق بعد انتهاء الحرب، عندما كنت طفلة كنت أصاب برعب شديد من صوت الكلاب فأهرب من صوتها للنوم، وبعد أن كبرت صار نباح الكلاب رابطا للنوم عندي.

بعد انطلاق ثورة ١١ فبراير اعتادت تعز على أصوات السلاح، خرج الناس في المسيرات فأمطروا بالكثير منها، قتلت القذائف جموع المتظاهرين في ساحة الحرية، أوقع رصاص القناصة الكثير من الشباب في المسيرات وجرح آخرين، لكنهم بقوا سائرين.

قضى أمير وقتا طيبا بصحبة زوج لينا، وقبيل الغروب قررا الانصراف. ودّعت شمس الجميع بأعين كسيرة، تجمّعت دموعها كحجر محبوس في الأحداق، تدرجت متوارية كنصل خنجر يشق الحلق.

سارت وأمير على الأقدام حتى المنزل، لم يجدا سيارة أجرة أو حافلة عمومية تقلهم، ليس ثمة شيء سوى المتاريس والخراب.. مشوا بخطى حثيثة وأكفّ متشابكة متوجسين، كان الشارع خاليا من المارة، اجتازا نقاطا للمقاومة وأخرى للميليشيا.

الوجوه محمرة منتفخة، والسلاح منتصب على الأكتاف، كان بعضهم هنا منذ سنوات، بدا لزم من إنسانا وأخا، الناس هنا يعرفون بعضهم، بقايا ملامح

معهودة محفورة في الذاكرة، لكن شيئاً مختلفاً طراً على ملامحهم، وجوههم غدت كأقنعة مسوخ.

صار الطريق المعبد الذي لم يخل يوماً من المركبات قبل الحرب موحشاً تنبعث منه رائحة الموت.

سارت شمس بنفس كسيرة، حديث داخلي يؤرقها كانت أسرتنا جميعها تنتظر مولد عائدة بترقب وسعادة، لنتمتع بهجة حضور طفلة وليدة بيننا، تملأ أجواء اجتماعاتنا بالسرور، لكن الأقدار جاءت بعكس ما تمنينا، لم تر كل من بشرى وليبية ومروة؛ عائدة ولو لمرة واحدة، الحرب مزّقت شملنا وذهبت بنا كل مذهب، حتى أمي ستمضي شهر رمضان عند أجد والدة أعلم متى ستعود؟ بعد أيام سيطل علينا رمضان ملتحمفاً بالظلام، سيمر بنا كغريب بحلة كالحة مهلهلة، رمادية ومتربة، سيجيء تزفه الأوجاع والمخاوف ويصحبه غول الغلاء الفاحش.

جاء رمضان ورحل كما توقعت شمس، لم تعش في حياتها كلها رمضاناً مثله، بقية ألق من روحانيته جعلها تحتل هذا الظرف العصيب المصاحب لضيف محب لنفسها، ثم لحق به العيد كثيباً مكتسباً بالأحزان.

تبددت أفراح جميع أفراد أسرتها، صاروا مرتبكين ونازحين في وطنهم، مثقلين بهموم الحياة، خائفين ويتوجسون شراً في كل لحظة.. ترى هل مرّ بتعز غول نحس فشر أحشاءه في الأحياء والأزقة ومضى؟!!



حيه الدار شمسيه

تشنجات ليلية توقظها عقب أول غفوة نوم تحصل عليها، تؤزها بإلحاح ثم تقذف بها في أتون معاناة صامتة تخفيها عن زوجها ماهر، قريض مؤلم يقضم ظهرها ويأسرها في حبال أرق ممتد، أوجاع غريبة تغزو جسدها ليلا، وترفع درجة توترها نهارا.

ترى ما الذي يحدث لي؟! تساءلت سامية بفزع..

ذهبت عصرا لعيادة الطبيب شادية التي تقع على قارعة الطريق قريبا من الحي، وجدت العيادة مغلقة، توقفت الطبيبة عن العمل منذ بدء الحرب في تعز.. هكذا قال لها صاحب الصيدلية التي تقع تحت العيادة.

اتصلت بالطبيبة.. رقمها مغلق، ومستشفى الثورة تحول لشكنة لرجال المقاومة، والطريق للمستشفى الجمهوري مخوف بالمخاطر، جبهة الجمهوري تشكل أشرس جبهات القتال.

"أهل دماج" يقاتلون الحوثة باستبسال واستماتة؛ لإطفاء نار ثاراتهم.

قالت لها إحدى قريباتها التي أتت نازحة من حي الجمهوري:

- عندما غادر الدماجيون صعدة وجاءوا للسكن في تعز بعد أن أجلاهم الرئيس منها عنوة؛ رأيناهم يشتعلون غضبا، كانوا يحملون قناني ملأى بتراب من دماج، قالوا سنرجع لدماج ولو بعد حين.

لا يمكنها الذهاب للمستشفى الجمهوري، الموقف هناك ملتهب ومرعب للغاية، رفعت بصرها نحو المستشفى الدولي القريب من منزلها، تأوهت:

- أسعارهم مرتفعة.

عرجت على صاحب محل بهارات قريب:

- أعطني بابونج بمائة ريال.

وزن لها القليل منه.. قال متذمرا:

- بمائة ريال فقط؟! لم أبع شيئا منذ الصباح.

لم تجبه.. أعطته ورقة المائة ريال وتناولت البابونج ومضت نحو البيت، سمعت بأن شربه دافئا قبل النوم يطرد الأرق. هجست:

- ربما إن تخلصت من الأرق ستتلاشى هذه التشنجات المزعجة وتزول عني أوجاع الظهر.

لمحت إعلاناً عن نقطة "وايرلس" قريبة، دخلت للمحل واشترت بطاقة من فئة ثلاث ساعات، رغم معرفتها المسبقة بمدى سوء وثقل هذه الخدمة لكنها فكرت بالقيام ببحث عبر "جوجل" لمعرفة كنه ما تشعر به من أوجاع ليلية وتشنجات وأرق، قبل بلوغها مدخل الشارع التراي المفضي للحي رمت ببصرها نحو مئذنة جامع الحكمة حيث تسكن صديقتها شمس، لم ترها منذ آخر لقاء جمعها عنديمن.. ترددت:

- هل أمر لأطمئن عليها؟ أتصل بها منذ أيام فلا أسمع سوى عبارة "الرقم خارج الخدمة".

نظرت إلى قرص الشمس المؤذن بانحسار نهار آخر:

- لا.. الوقت متأخر ونحن في زمن حرب.. سأزورها غدا إن شاء الله.

مشت بخطى متسارعة نحو البيت، عبرت نقطة العسكر التي ترض على فوهة الشارع، اختفت الوجوه القديمة وحل مكانها وجوه جديدة. همهمت:

- هذا ما كان ينقصنا.. لماذا ينتشرون بهذه الطريقة المستفزة في تعز؟! المصيبة بأنهم يقولون نحن لا نريد تعز، نحن ماضون نحو الحرم المكي.. حمقى ومغفلون من خدعهم وأخبرهم بأن طريق مكة من هنا؟! قبحهم الله.

تلك الوجوه المَحْمَرَّة غدت غير محببة إلينا، نستوحش من مرآهم ونزعج ونحن نراهم ينتشرون كطفح حمى في المدينة، نحن نسالمهم منذ قرون ونجتهد لرؤية الجانب الإيجابي فيهم، نقب بين ركام أفعالهم القبيحة وسياساتهم العرجاء عن نيات سليمة، نتعايش معهم ونتزوج منهم ونزوجهم وندعم قضاياهم ونطالب برفع الظلم عنهم.

سرنا سويا خلال ثورة فبراير، هتفنا معا بذات الشعارات وفرحنا ونحن نراهم ينسلخون من سلاح صدئ على أكتافهم، لازمهم حتى غدا جزءاً من كيأنهم، ثم فجأة تركوه جانبا ورضوا بمنهج النضال السلمي، حسبناهم تطوروا.. طفرة مدنية ندت منهم أدهشتنا، قلنا الثورة بوتقتهم في صياغة جديدة عبقرية الحدوث! صدقناهم ووثقنا بهم في لحظة تصالح مع الذات الطيبة، أحببناهم ونسينا الماضي أجمع، لكن جاءت الحرب لتسقط جميع الأقنعة وتوقد مشاعر سخط وتبعث أحقادا قديمة يتوهج جمرها تحت رماد رفض أزلّي لاستبداد هؤلاء بالسلطة والنفوذ والثروة وانتقاصهم لكل من لا تسري في عروقه دماؤهم النرجسية.

لم يمكنهم الالتحام مع إنسانيتهم طويلا، العصبية تثيرهم وتعمي بصائرهم، تصهرهم في أتونها وتذيبهم فيها حتى النخاع.

بلغت سامية وسط الحي وهي غائبة في حديث النفس. تنبّهت:

- الحمد لله.. لم تغب الشمس بعد.

التقت بماريا التي خرجت من بوابة بيتها الأمامية بحثًا عن أحفادها المبعثرين في ملاعبهم.. قالت ماريّا بعدما تبادلا التحية:

- صدق من قال ولد الولد أعز من الولد، أمهاتهم مرتاحات في البيت وأنا راكضة خلفهم.

تبسمت سامية في وجهها بتصنع، لم تعد تستلطف ماريّا منذ أن غدت متحوّثة.

قالت لها مجاملة:

- الله يعينك يا ماريّا، لكنهم يستحقون عطفك فهم رائعين وأذكاء جدا.

أقبل محمد ابن الخامسة مهرولا.. قالت الجدة:

- حيا بالجنرال.

لحقته مي ابنة عمه ذات السبع سنوات، وضربت على رأسه بكف مكتنز باللحم قائلة:

- قتلتك.

صاحت بها الجدة :

- ما بك؟ هل جنت؟

انكمشت مي ضاحكة وقالت:

- نلعب يا جدة، هو وأحمد مقاومة وأنا ضابط حوثي.

صاح محمد:

- لا.. أنا حوثي، أنا جنرال.

كاد أن يبيكي.. ضرب على فخذه جدته:

- قولي لها يا جدة، أنا الحوثي!

قالت الجدة:

- صدق.. هو الجنرال.

بادرت سامية:

- هل أَلعب معكم؟

هللت مي:

- كوني معي، أنا وحدي وهو وأحمد اثنين.

ردت:

- لا.. أنا سأَلعب دور مريم.

صاح الأطفال:

- لا.. مريم معها طائرة، سوف تقتلينا جميعا.

ضحكت سامية والجدة، هتفت ماريا بأحمد الذي بلغ السادسة منذ أيام،
والقادم بخطى وثيدة من بعيد:
- هيا يا ولد.. أسرع.

ضمّتهم جميعا ومشت معهم نحو البيت.

خرج دبوان - الرجل الستيني المتصابي - يتفقد غنيماته، استأذنه جاره
عوض ليذهب بالحلوب منهن لزوجه لتحلب لبنها فقد نفست منذ أيام، لا
يوجد حليب طازج في السوق بسبب انقطاع الكهرباء، وهي صحتها معتلة..
حليب العنزات يقويها ويزيد لبنها، عنزات دبوان ولودات حلوب، يطعمها
جميع سكان الحي بقايا خبزهم، لذا أشاع دبوان لبنها بين سكان الحي، ثم إن
زوجته وبناته لا يستسغن مذاق حليب العنزات.

وقف دبوان على رأس الحي، وقد صبغ شعره وشاربه وحاجبيه بلون
أسود، مطلقا بصره في الرائح والغادي، اشمأزت سامية من نظراته المخترقة؛
فسارعت خطاها، تذكرت فضح زوجته له منذ أيام، وهتكها سر مراهقته
المتأخرة بعد ادعائه حاجته لزوجة ثانية بعدما تجاوز الستين.

رآه صديقه الوقور أبو عقبة وقد تغيرت هيئته بعد أن صبغ شعره بالأسود
الفاحم؛ فبدا منظره مضحكا، رماء بنظرة سخرية ومشى نحو الجامع
متجاهلا نداءاته، سيؤذن أبو عقبة لصلاة المغرب بدلا عن المؤذن الطاعن في
السن، والذي نرح لقريته منذ بدء الحرب، وسيؤم المصلين نيابة عن الإمام
الذي يعاني من وعكة صحية أصابته حينما علم بأن الحوثة اعتقلوا ابن عمه
إمام وخطيب جامع صفين واقتادوه لسجن "عمائر الصالح".

برزت جدة يزن بنصف جسدها من الشباك الملاصق لدرانهم، مخاطبة ابنها الأصغر قاسم.. كان قاسم صبيبا يلدا يقوم بإدارة الدكان مع ابن عم لهم معاق، يتعرض الدكان لنكبات مالية في زمن إدارتهما له في غياب أخيه الكبير أبو يزن الذي داخ بين مستشفيات صنعاء لعلاج ساق ابنه يزن.

نادته:

- أعطني خبزاً وبيضا للعشاء يا ولد، وعجل بإقفال الدكان قبل صلاة العشاء، الدنيا حرب وأولاد الحرام كثر.

طلبت منه ما تريد وهي ترمي ببصرها جهة عصابة مهند المفترشين دكة بيت بمقابلهم لم يتم بناء بعد.

همس أحدهم لمهند وهو يحملق في منزل فخم بأعلى الحي نزح أهله وتركوه بحراسة همدان حفيد جوهرة:

- تبدو صيدا سمينا، لكن كيف نغافل همدان؟!

لكزه مهند:

- اسكت.. ستفضحننا.. أنا مخطط لكل هذه البيوت الدسمة في الحي، من أين كسبوا كل هذه الأموال؟ أليست أموال البلد؟ ونحن أبناء البلد! سنأخذ نصيبنا فحسب، لن نظلم أحدا.. أما الفقراء فسنتركهم لعذابات فقرهم، هل سمعت عن لصوص أشرف منا؟

- لا والله يا زعيم.. يا أخي لا أدري لماذا ينظرون لك بنصف عين، فليأتوا وليسمعوا كلامك الدرر، ويفهموك حق الفهم.

ضحك جميعهم مأخوذين بفعل المخدر المخالط للتبغ الساكن بين
أضراسهم.

مر بمحاذاتهم أمير العائد من مجلس مقيل بيت مهيب، وقف مهند
مترنحا وحياه بكفه ذات الأظافر الطويلة المدببة.. ضرب أمير كفا بكف
وصاح بهم:

- الله يهديكم أو يأخذكم ويريحنا منكم، لو لم يكن للحرب مساوئ
سوى رؤيتكم صباح مساء لكفى.

سمعه دبوان وأيده متذمرا من رأى عصابة مهند.. أشار له فمضى نحوه
قائلا:

- ما هذا التغيير يا عم دبوان، بصرحة عدت ثلاثة عقود للوراء، اليوم
شكلك عريس.

انتشى دبوان من إطراء أمير، واستبشر خيرا من عبارته الأخيرة، ثم جذبه
من يده وأجلسه إلى جواره، التف حولهم بعض رجال وشباب الحي، جلسوا
على حافة الشارع الترابي يتجاذبون أطراف الحديث في انتظار النداء لصلاة
المغرب.



رويتز الحية!

دخلت سامية للبيت نافضة عنها الهم الجمعي، ملسوعة بلهيب همها الشخصي، جلست وهي تتقد حماسا للقيام بالبحث عن أسباب أوجاعها.. همست:

- هل سأجد بقية شحن في الحاسوب؟

يذهب ماهر بالحاسوب إلى وسط المدينة، يقوم بشحنه هناك عند مقهى إنترنت يعمل على مولد كهرباء بمبلغ معقول، وجدت به ساعة شحن.. تمددت لثلاث ساعات بذكاء الكتروني في خانة موفر الطاقة، بحثت سامية باهتمام ووجل وتوقع للأسوأ، خلال أقل من ساعة وقعت على حالة مشابهة لما تعانيه، وبعد قراءة متمعة هتفت بسرور:

- الحمد لله وشكرا للعم "جوجل" الحالة ليست خطيرة.

أعراض مصاحبة للقلق النفسي، أوصى الطبيب خلال رده على السائلة بإرشادات بسيطة يمكنها القيام بها، شفع نصائحه بإيراد اسم لدواء لم تتحمس سامية لتناوله، كل ما أرادت معرفته هو كنه علتها، وقد حصلت على ذلك.

تنفست الصعداء:

- حمدا لله.. الأمر هين، أن أعاني من القلق في مثل هذه الظروف الطاحنة شيء طبيعي، بإمكانني التزام بعض تلك الإرشادات مثل المشي ساعة كل يوم،

والتدليك الطبيعي ضروري كذلك؛ لكن أين؟ مراكز الطب البديل مقفلة، سأحتال على ماهر وأجعله يدلك لي بحجة التعب من شغل البيت والجلوس الطويل للمذاكرة، ليتني أظفر بعدها بتحسن ولو طفيف، ترى هل ينبغي شراء ذلك الدواء الذي وصفه الطبيب للسائلة؟! ربما سأنتفع به ويفارقني هذا الأرق المقيت، لكن هل سأجده؟ وكم سيكون ثمنه؟

وضعهم المالي سيء، توقف زوجها ماهر عن العمل في المكتبة منذ بدء الحرب، أنفقا كل مدخراتها واستداننا من كل معارفهم، كل يوم يحمدا الله أن بيتهما تمليك وليس إيجارا، كان تشردهما حتميا بدونه.

لا تطيق سامية الإثقال على أحد من الأهل أو الأقارب، الكل لديه ما يكفي من شظف وكبد العيش.

تمضي بهم هذه الحرب لمصير بائس لا يوصف، نفدت مادة الدقيق من البيت ومن السوق أيضا، تجار السوء يزايدون بقوت الناس الأساسي، والحصار سيوقف تدفق المواد الغذائية للبلد، هذه فرصتهم لمصّ بقايا قطرات دماء شعب منكوب.. أنبوبة الغاز فرغت والغاز شح من السوق، يقولون بأن اليمن بلد باطنه يغلي بالغاز المسال العالي الجودة وهو معدوم في أسواقها! وحتى قبل انعدامه بسبب الحرب كانت أسعاره مرتفعة جدا!

في الأمس جلب لها ماهر حمل حطب!

تنقبض سامية كلما رأت أنه قائلة:

- لا أجد الطهي بالحطب. تهتف:

- يا رب أنت حبيبي، فرجها علينا يا رب.

خرج ماهر بجيوب فارغة، مؤملاً الحصول على قرض من صديقه ياسر، أحد أفراد المقاومة.. لا تحبذ سامية ذهابه إليهم، تخشى أن يقنعه بالانضمام لهم.

فجأة استعر قلقها.. ترى كم هي الساعة الآن؟! ساعة الحائط متوقفة، الغيوم تتزاحم في الفضاء تحجب شعاع الشمس، الحمد لله.. خريف باذخ بموسم أمطار مباركة، نظر الله لحالنا فرحمنا، مع شحّة مادة البنزين وارتفاع ثمنها، غلا سعر "وايت" الماء لأضعاف، لكن المطر أنقذ الناس..

أخبرتها يمن أن الأيام في تعز عادت كما الماضي، كانت الأمطار تغرق الوديان، حتى أنها تهدد المساكن القديمة بالانهيار، أما البقاع الترابية فتكتسي بالخضر، هذه هي تعز الجميلة وقد عادت من جديد.

كم هي حالمة ومثالية صديقتي يمن، تنظر إلى الأشياء بتأمل شيخ ودهشة طفل، تلك هي الحكمة كما قال سقراط، كم أغبطها على روحها الشفافة الغضة والتي لا تشيخ أبدا.

الناس في الحي يجمعون مياه الأمطار من على أسطح بيوتهم ويخزنونها في براميل أو خزانات أرضية، شبكات الأنابيب البلاستيكية المتشعبة عبر الأسطح توفر كل قطرة ماء تجود بها علينا السماء، ذكاء فطري في جمع المياه، تلقته الأجيال عبر جينات وراثية من أجدادهم السبئيين، بناء السدود العبقريّة.

الليل يوشك أن يسدل ستاره على الحي، جيش توتر يهز أطرافها، لا تدري كم يمكنها احتمال هذا الضغط، هموم تجمعت كنيزك عذاب يوشك أن يحرقها.

تمت بحق:

- لماذا يتأخر ماهر خارجا والأوضاع الأمنية متردية، ألا يدرك حجم قلقي عليه؟! جوالي معه.. كيف أطمئن عليه؟ يا رب أنت حبيبي فرده لي سالما.

سمعت وقع طرق خفيف على الباب، هرولت نحوه وفتحت؛ كانت صديقتها سمر، استقبلتها ببرود إثر خيبة أمل.
قالت سمر مازحة:

- ما هذا الاستقبال الحار؟ يكاد وجهي يشتعل من حرارته.
- اعذريني.. ماهر خرج للسوق بعد الظهر ولم يعد حتى الآن، تأخر كثيرا.
هزت سمر كتفيها وأدارت جسدها النحيل مدبرة وقالت بنبرة غير وعتب:

- اطمئني، رأيته جالسا في أحد زوايا الحي، بين مجموعة من رجال وشباب الحي، يثرثرون وينافسون على النميمة، لم يعد لديهم من عمل بعد اشتعال الحرب سوى ذلك. ثم أردفت:

- يبدو أنه غير مرحب بي اليوم، سأمضي وأعود في وقت آخر.
بعدها اطمأنت سامية على ماهر، تنبّهت لسوء تصرفها.
قالت متدركة الموقف:

- العفو منك، تعالي.
جذبتها من يدها نحو الداخل وأردفت:
- أهلا وسهلا بك.. نورت البيت.

- الآن أهلا وسهلا! صدق الذي قال العشق محنة.
- ضحكت سامية لتعليقها الأخير وأطرقت بخجل.. أوصدت الباب وعانقتها ثم مضت بها نحو حجرة الضيوف وجلست قبالتها. سألتها:
- ما هي أخباركِ الخاصة، وما هي الأخبار العامة يا رويتر الحي؟!
- قولي ما شاء الله.
- ما شاء الله، عيني باردة لا تخافي.
- حسنا.. أخباري الخاصة لا جديد، الله يرد عقل من سرق قلبي وطار مع العاصفة.
- رمتها سامية بنظرة عتب وسكتت. تنهدت سمر:
- قبل سرد الأخبار العامة.. في البدء أكرميني بضيافة، ولو بكوب عصير.
- والله ما يغلي عليكِ لكن السكر نفذ.
- فنجان قهوة سادة؟
- الغاز نفذ.
- كوب ماء.
- ماء الشرب نفذ.
- وما جلوسك هاهنا؟! هيا بنا نخرج نتسول معا.
- هيا سمورة، ليس هذا وقت مزاحك، أنا والله حامله هم سرد هذه القائمة الطويلة من مؤن البيت على مسامع ماهر.

- الله يعين.. الناس في ضيق وشدة لا يعلم بها سوى الله، حتى أني رأيت الكثير من سكان الحي يقطعون أعشابا برية من الجبل، قالوا بأن الأجداد كانوا يأكلونها في سنوات المجاعات، رأيت عددا من فتيات الحي يتسابقن لقطعها من الجبل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، هيا هاتي بقية أخباركِ.

- لقد قُتل شاهين، وجُرح عمار؛ زميلينا في الجامعة.

شهقت سامية وقالت بتوجع:

- لا إله إلا الله.. أين وكيف؟!

- في القتال مع صفوف المقاومة.

- يا الله.. ولماذا انضموا للصفوف المقاومة؟! كان واضحا للجميع بأنهم

لا يجيدان شيئا من فنون القتال، ولا يمكنهما حمل السلاح.

- صدقتِ والله.. خطيبي محمود كان معهم، لكنه والله الحمد لم يصب

بأذى، قلت له مرارا دع عنك العناد ولا تذهب للقتال فلست من حملة السلاح، ولكن لم يستجب لي.. أصابته لولة عنف.

- تلك لولة أصابت الكثيرين، أخبرني ماهر بأن الجثث تتكدس

بالعشرات في مواقع القتال، ومع ذلك فهم مصممون على المضي في هذا

الطريق، أنا لا أحب الحوثة ولا تعجبنني عصبيتهم الجاهلية لكنني لست موافقة على الحرب.

- ولا أنا موافقة على الحرب، سمعت من بعض الناس الذين لم يهجروا منازلهم في الأحياء المحتدم فيها القتال أهوالا تشيب لها الرؤوس، تصوري بأنهم لا يوقفون تبادل النار لرفع الجثث المتفخة إلا عندما يوقنوا بأنها ستنفجر وتشر الأوبئة.

- يا الله لطفك بنا.. الكوليرا عادت لتظهر في عدن وهي تحصد الأرواح بشكل مروع.

- وحمى الضنك أيضا.. ألم أخبركِ؟!

- ماذا؟!

- شريفة ماتت.

صكت سامية وجهها ثم:

- لا.. قولي غير هذا.. وانخرطت في البكاء..

قالت سمر مهوَّنة عليها الخطب:

- لم أدرِ بأنكِ تحملين لها كل هذا الود، لا تحزني هي شهيدة بإذن الله.

- كانت حاملا في شهرها الثالث، لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما زالت عروسا، لم يمر على زواجها سوى عام واحد، كنا نتمنى ألا تنتقل للعيش مع أهل زوجها في آيين.. مسكينة هي.. كيف ماتت؟

- أصيبت بحمى الضنك التي ضاعفت لديها نوبات السَّل، نقلوها لمستشفى زنجبار، ولكن لم يجدوا أنبوبة أوكسجين واحدة في المستشفى، ماتت بعد معاناة مريرة.

- الله المستعان على هذه الحال، السِّل مرض تلاشى في العالم المتقدم، وهو مقيم عندنا يحصد الأرواح حتى الشباب! أيّ شؤم أصابنا نحن أبناء اليمن؟ لماذا يحدث لنا هذا؟ الحرب تكتسح بشرورها كافة المدن والقرى والبادي.

- يا أختي يبدو أنها حرب عالمية كما يقول الأستاذ حازم زوج يمن، والله كلامه في الصميم، يا ليت محمود يسمعه وهو يتكلم، ربما يعود إلى صوابه.

نفثت سامية:

- ألن تكفي عن حبه؟ دعك منه يا سمر، زواجكما مستحيل.

- لا تقولي هذا، دعينا منه الآن.. تكفينا مصائب الحرب وما تجره علينا من وبال.

- الله يريحنا ممن تسببوا لنا بها، خربوها فوق رؤوسهم.. ورؤوسنا.

لفّ الحجرة صمت ووجوم لوهلة قبل أن تسألها سمر:

لماذا لم تحضري العزاء اليوم بيت أم عزيزة - رحمها الله -؟! -

- كنت خارج الحي.

- سألتني عنك سالي وأخواتها مروة وليبية، الحرب أعادتهن مجدداً إلى الحي.

- نازحات؟! الزمن يتقلب بنا بمشهد مذهل، اشتقت لهن كثيراً، كيف أحوالهن؟! -

- لم نتكلم كثيرا لصعوبة الموقف، لكننا افترقنا على وعد باجتماع قريب في منزل سالي.. يمن أيضا سألت عنك، سوف تأتي.. هكذا وعدت.. وأنت سوف تأتيين حتما؟

- أكيد.. لن أفوت على نفسي فرصة كهذه لاسترجاع ذكريات الطفولة، وشقاوة الصبا.

ضحكتنا معا.

سألته سامية:

- وماذا عن شمس؟ هل رأيتهَا؟

- لا.. لم تأت.

شردت سامية في وضعها الصحي.

ضربت سمر بكفها على فخذهَا قائلة:

- لماذا الشرود يا صديقتي؟

- لا شيء.

- هيا أخبريني أين ذهبتِ عصر اليوم؟

- ذهبت إلى العيادة، كان عندي موعد مراجعة بشأن تأخر حملي بعدما أسقطت جنيني الأول، لكن للأسف وجدتها مغلقة.

- وهل هذا وقت الحمل؟! لو حملتِ ربما ستسقطينه ثانية.. الطائرات تقصف مواقع الحوثة في تعز بأشد مما كانت عليه عند بدء الحرب، والحوثة

يرشقون وسط المدينة بدباباتهم من على التلال المحيطة بالحي صباح مساء، ورجال المقاومة يمطرونهم بوابل قذائفهم.

- صدقتِ والله؛ لكنّ العمر يمرّ ويجب أن أتدارك نفسي قبل أن أشيخ.

- كَفّي عن قول هذا ما زلتِ شابة.

- لكن ماذا لو طال الحرب لعقد من الزمن؟!

- قد يحدث ذلك فعلا، نوايا العالم تجاهنا غير سليمة، هذا ما أحس به.

- لقد شبّهت ما يفعلونه بنا كحال جار ثري، سمع بوجود نمور وقطط وحشية عند جار له فقير، وبدلا من أن يساعد جاره على حل هذه المشكلة بالتي هي أحسن، قام بتفجير منزل جاره؛ فقتله وقتل أهله ودمر المنزل، وبعد ذلك فوجئ الجميع بأن تلك النمر والقطط قفزت بعيدا ونجت!

- والله أحسنتِ التمثيل لهذه الحرب، لكن الحوثة ليسوا نمورا ولا قططا وحشية، إنهم مجاميع حقى، رجال متخشبون، متصلبو الرؤوس، عشاق للحرب، ثيوقراطيين بغيضين.

- هل هذا رأيك فيهم؟! أنتِ لستِ واثقة بالتحالف وتذمينهم دوما.

- وهل يجعلني ذلك حوثية؟! قطعاً لا.. "أنا أشك، إذا أنا موجود"، ثم إنني ضد الحرب والافتتال والتدمير.

- كلنا يكره ذلك.

- كل النساء.. أما الرجال فهوس العنف يحيل بعضهم مسوخا.. هل

سمعتِ من أحدهم تنديدا بالحرب؟!

- الذي سيندد سيُقال عنه حوثي.
- هذا استنتاج غير صحيح، سمعت منك مرة بأن "لازم القول ليس بقول".
- الله يهديك يا سمر.. كيف ستفهمين كل الناس هذه القاعدة؟! قولي الله يخلصنا من كل من يريد بنا وببلادنا شرا، كائنا من يكون.
- آمين.. نحن شعب طيب ومؤمن، الله وحده سيدافع عنا.
- وتذكري "لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله".
- صمتا قليلا قبل أن تطلق سمر ضحكة عالية:
- ليتكِ حضرتِ حفلة نفاس جارتنا أم راوية أول أمس، والله العظيم فاتكِ مشهد درامي بالمجان.
- ما الذي حدث؟!!
- لا يمكنكِ التخيل.. تشابك بالأيدي وشد للشعور وتراشق بالأكواب والتهم السوداء.
- أعوذ بالله.. بين مَنْ وَمَنْ؟!!
- جلسنا في غناء و متعة وأحاديث حلوة ونميمة بيضاء، عدا غداء وصديقتها الحميمة هيفاء، كنّ مستفزات بطريقة مكشوفة، شعر الجميع بأنهن يتأبطن شرا.. وفعلا بمجرد حضور غانية بدأت المعركة، وقفن فور وصولها، لم يمهلنها حتى تسلم على الحضور، انفجرن في وجهها بالسباب

كمن أُطلق من قيد، لم نستطع إسكاتهن، ثم تشابكن بالأيدي بعدما دخلن في العمق وتراشقن التهم بممارسة الرذيلة عبر الجوالات.

قالت سامية باستنكار:

- رذيلة إلكترونية! هذا شيء فظيع.

- تعجبني تسميتك الأشياء بعبارات ضخمة "رذيلة إلكترونية" فعلا هذا هو المصطلح المناسب لتلك القبائح.

قالت سامية مستدركة:

- لكن هل حقا يفعلن هذا؟! غير معقول.. ما هذه التهم البشعة؟!

- والله لن أجزم بشيء.. لكنهنّ قلن لغانية كل يوم نرى معك عباءة شكل، وجوالا آخر طراز، وذهبا وفضة، وأموالا كثيرة.. وأنتِ من أسرة فقيرة ولستِ موظفة ولا متزوجة.. من أين لكِ هذا يا فاجرة؟

شهقت سامية لهول ما سمعت:

- سترك يا الله.

- صبركِ واسمعي البقية.. صفعت غانية غيداء على خدها ونشب عراك فضضنه النسوة بصعوبة. فقالت غانية لغيداء لا فاجرة هنا غيركِ يا صاحبة غرام، ثم..

قاطعته سامية متسائلة:

- لحظة.. من هي غرام؟!

- القوادة "الإنترناشونال" تسكن بأول عمارة على الشارع الرئيسي.. حدثتِ مرة عنها وعن نشاطها الخبيث الواسع.
- تذكرت.. أعوذ بالله منها ومن عملها.
- رأيت معها سيارة آخر موديل وآخر فخامة.. لونها أسود وزجاجها عاكس وتبرق مثل حجر داماس أسود.. يا الله.. الدنيا ما هي إلا هُـنّ، يبدو أن كل الأسواق كسدت في الحرب عدا سوق القتل والدعارة.
- كلها دعارة.. بل إن دعارة الأجساد ليست شيئاً أمام الدعارة بالأوطان.
- دعارة بالأوطان؟ هذا كلام كبير يا سامية، آه لو سمعكِ أبي أو محمود سوف يجنّ جنونهم.
- فليسمعوا.. لم أعد أهتم.. حسبنا ونعم الوكيل.
- وهل تدري من رأيتهـا تحوم حول بيت غرام؟!
- من؟
- سميرة.
- من سميرة؟
- أم الأيتام الخمسة، التي تسكن في الحي الخلفي.
- لا.. هل أنتِ متأكدة؟
- متأكدة تماماً.. أعرفها حتى لو غيرت ضربة خمارها.

- يا الله.. عساك مخطئة في هذا، التقيت بها صدفة بعد ثلاثة أشهر من نشوب الحرب، كنت في طريقي للعيادة، وحدث تبادل ضرب نار في حي الزهراء ففزعت عند سماعي صوت المضاد.. قالت لي ليت رصاصة تدخل من رأسي وتخرج من رجلي وتخلصني في لحظة من هذه العيشة، قلت لها حرام عليك، اتق الله.. قالت لي وهي ممتلئة بالحزن؛ كل يوم أموت وأنا أرى أطفالا يتضورون جوعا.. كان ولدها البكر يعمل في السوق ويطعمهم.. وأضحت بعد الحرب تتسول لتطعم أولادها، قالت أخشى أن تطول الحرب وسكنت.. وحين سألتها من أي شيء تخشين؟ لم تجبني وسارعت خطأها مبتعدة عني.. سمعت صوت نشيجها.. يا للمسكينة؛ اليوم فهمت قصدها.

قالت سمر:

- الذي نعرفه عنهم أن زوجها مات وتركهم صفر اليدين، لكن هذا ليس مسوغا لتلحق بغرام.

- لا يمكن لكل أحد استيعاب مدى الشرور التي تجلبها الحروب للمجتمعات، في زمن الحرب يتضاعف مستوى ممارسة الرذائل، وتتضاءل وتنكمش قيم الخير والفضيلة، وشياطين الإنس ينشطون في اصطيد الضعفاء وإيقاعهم في حبالهم، وهي امرأة جميلة وجاهلة.. نسأل الله السر والعافية.

- آمين.. المهم نعود للدراما، توثبت غيداء وهيفاء على غانية باعتراف متوحش فأوجعها ضربا حتى أسقطنها أرضا، استخرجها النساء من تحتهن بصعوبة بالغة، كدن يقتلنها.

- هل وصلت الأمور لهذا المستوى؟! الحمد لله أني لم أحضر هذه الحفلة، حفلة لحوم مسمومة وتلطبخ للسمعة وطعن في الشرف.. هل أصابهن الجنون؟! نصحتك مرارا بعدم الاحتكاك الزائد بالناس، وأن تتخيري مجالسك، أصلحك الله يا سمر.

- والله إنني تذكرت نصائحك وسط احتدام عراكهن، فكرت بالمغادرة؛ لكن فضولي منعني.

- ترى هل هذه تهم صادقة، أم زور وبهتان؟!

- بصراحة.. لا يوجد دخان بدون نار.

- استغفري الله.

- استغفر الله العظيم.. لكن هذا واقع، هل ندفن رؤوسنا في التراب؟

- لا.. بل سندفن ألسنتنا في حلوقنا.. لا تشمتنّ في أخيك فيعافيه الله ويبتليك.

في هذه اللحظة.. أدار ماهر المفتاح في ثقب الباب، قامت سمر من فورها منصرفه.. سمع صوتها فألقى عليهن التحية واتجه نحو حجرة النوم.. قبل أن تغادر سمر نفضت من جعبتها بخبر أخير:

- نسيت أن أخبركِ أمرا، لقد انتقلت شمس من جوار الأمن المركزي إلى وسط الحي، اشترت منزلا صغيرا من ماريا.

سعدت سامية عند سماعها هذا الخبر.. سمر تغار من تعلق سامية بشمس لذا جعلته الخبر الأخير.

سمر صديقة لسامية وتجمعها صلة قرابة.. لطيفة وخفيفة الظل، ودودة وطيبة القلب، بالرغم من طيشها وغيره تشتعل أحيانا في غير محلها وطفرة تحرر ظهرت عليها مؤخرا.. على عكس شمس العاقلة الرزينة، التي لا تحمّل سامية عبء تكلف شيء لنيل رضاها؛ لذا هي أحب الصديقات إلى قلبها، لا تساميتها في قلب سامية سوى يمن.

كانت سامية تتلاشى وتغيب عن الوجود خوفا وهلعا على شمس كلما سمعت بأن طيران التحالف قام بقصف معسكر الأمن المركزي.

تساءلت سامية بعد ذهاب سمر؛ لماذا لم تتصل بي شمس وتخبرني بأنها ستنتقل؟ كان علي معاونتها في عملية النقل وترتيب بيتها الجديد.

في اليوم التالي ذهبتا سويا لزيارة شمس، استقبلت شمس سامية بفرح ولهفة، وأبدت فتورا صريحا تجاه سمر على غير العادة.

شعرت سامية لوهلة بأن شمس كرهت محبي سمر، أما سمر فتجاهلت كل ذلك.

لامت سامية صديقتها طويلا لأنها لم تمنحها فرصة مد يد العون لها، فاعتذرت لها مبينة أن سبب ذلك هو انقطاع شحن هاتفها، كما أن قرار شراء البيت حدث فجأة ودون سابق تخطيط.



فيه عزاء عزية

سرى النبأ بين أهل الحي كالنار في الهشيم.. أصوات بكاء وعويل تنبعث
من منزل أم عزية، ما الذي يحدث؟!
وقفت النساء على عتبات البيوت، شنى الفتيات رؤوسهن من على
حواف النوافذ.

- ما هذا الصراخ والعويل المنبعث من منزل أم عزية؟!

تساءلت إحداهن بتعجب!

فأجابتها أخرى:

- غادرت الأسرة الحي منذ بدء الحرب، لم يبق في بيتهم سوى عزية
وبنيها، ترى هل حدث لأحدهم مكروه؟!
أشرعت إحدى النسوة المعروفات بطول الرقاد نافذة مطلة على فناء جدة
يزن وهتفت بها متسائلة:

- ما الذي يحدث في منزل أم عزية؟ كان الأب مريضا قبل نزوحه، هل
مات؟!

أطلت جدة يزن بوجهها من باب منزلها المقابل لنافذة جارتها قائلة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد قتل قناص حوثي عزية.

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. أين حدث ذلك؟!

- المسكينة ذهبت لبيتها في شارع الأربعين لتفقدته وتحضر لها بعض
الملابس رغم علمها بوجود خلايا للمقاومة في ذلك الشارع وتقتل دوما

مع الحوثة، المهم وهي في الطريق وقبل أن تصل لبيتها رماها القناص بطلقة في الرأس قتلتها على الفور.

- كسر الله يده.. لماذا قتلها؟ ماذا فعلت المسكينة؟ ألا يكفيها ما عانته من بؤس وشقاء طوال حياتها!

- كانت امرأة منحوسة حقاً، زوجها تخلى عنها وعن أبنائه، خرج في يوم ولم يعد، لا أحد يعرف أين اختفى؟!

- وأختها جنّت بعد فقدها لجينيتها الأول الذي انتظرته دهرًا.

- وزوج أختها خسيس، قبحه الله هو السبب في جنونها.

- ليس هو السبب بل قصف الطائرة هو السبب، كان حملها ضعيفا وبالكاد علق الولد في بطنها بعد علاج طويل دام لسنوات، لم تحتمل هول العاصفة يوم قصفوا القصر الجمهوري فأسقطت من فورها.

- المسكينة نرفت يومها كثيرا، وكادت أن تموت.

- ليتها ماتت، هي الآن مجنونة.. طلقها زوجها، وفقدت جنينها في أسبوع واحد، لا سامح الله من كان السبب.

- زوجها مجرم.

- يا أختي بيني وبينك هو صبر عليها طويلا، وأنفق كل ما يملك من أجل علاج عقمها، ولما تكملت جهوده بالنجاح وكاد يسمع كلمة أبي فقد الولد، الحمد لله أنه لم يجن هو الآخر.

- سمعت بأنه تزوج منذ أيام بأخرى.
- لم أسمع هذا الخبر سوى الآن.. يا الله لطفك بهذه المجنونة المنكوبة، من سيعتني بها بعد موت عزّية؟!
 - أمها وأختها العازبة غادة، أكيد وصلهما الخبر في مدينة إِب وسترجع الجدة لتعتني بأولاد عزّية، ما زالوا صغارا وبحاجة للرعاية والصيانة.. خاصة البنات، ربما أنها قد عادت بالفعل.
 - الله يستر علينا.. هذه حرب خسيصة، لا تفرق بين النساء والرجال.
 - صدقتِ، أين حروب الفرسان؟ أين رجال زمان؟! لم يكونوا يقتلون الأطفال والنساء والعجزة.
 - يا أختي قتلونا وخربوا البلاد، ولم يقتلوا الذين سموهم انقلابيين.
 - اسكتي حتى لا يسمعك أحد المناصرين لهم.. اشتري السلامة.
 - الحمد لله.. الناس في حيننا متراحمون، سمعت بأنه في أحياء أخرى حدثت أمور مخجلة من بعضهم.
 - ماذا حدث؟!
 - خيانات من متحوثين، وبلاغات كيدية للتحالف من أشخاص حاquدين.
 - يعني تصفية حسابات؟ لا أصدق.
 - بل صدقي، ظهرت لدى البعض خسة نفس كانت مخفية، تخلي تسببوا بقتل وسجن جيرانهم، وحرق بيوت وتدمير عمارات وقتل ناس أبرياء بسبب هذه البلاغات.

- أعوذ بالله من الخونة والخيانة، الحمد لله حينًا حتى الآن لم يظهر فيه هذا النوع من البشر، سأدخل لأعد الغداء وإن شاء الله نلتقي عصرًا في العزاء، الله يرحمك يا عزّية.

- قولي الله يرحمك يا وطن.

في العزاء.. كانت الأم تتوسط أعلى المجلس، تتلقى التعازي بسكون، بدت هادئة، رابطة الجأش، راضية النفس ومطمئنة القسمات، تستقبل النسوة بتبسم ووقار.

تهامس بعضهن:

- الأم تتلقى التعازي في عزّية كأنها تتلقى المباركات بعرس إحدى بناتها!

- ولم لا؟ ابتنها عزّية شهيدة.

- أم عزّية امرأة قوية ومؤمنة.. لم تهزها المصائب المتتابة عليها في الحياة.

- هكذا هي أم البنات.. همّها باق حتى الممات.

تدخلت ثالثة بصوت فحيح:

- هل عرفتن أين قتل الحوثة عزّية؟!

- أين؟!

- في شارع الأربعين.

- هذا طبعي.. قريب من بيتها.

- كانت تكثر من التردد على بيتها الذي نزحت منه منذ بدء المعارك هناك، فتوجس منها جنود الحوثة شرا، أوقفوها مرارا وحققوا معها.. لكنها - عفا الله عنها - لست أدري لماذا أدخلت نفسها في دوامة الحرب؟

- كيف ذلك؟ وضّحي.

- قيل بأنها كانت تعمل لحساب المقاومة.

- لا.. هذا غير معقول.

نفث أخرى قائلة:

- لا تصدقن إشاعات الحرب، كلها كذب في كذب.

- لكن هذه هي الحقيقة، وهي سبب تعرضها ليران قناصة الحوثة، صدقوني كانت تحمل الذخيرة لرجال المقاومة، والدليل هو أنهم وجدوا بجوار جثتها عشرة قتلى من رجال المقاومة.

- يا لطيف.. لماذا؟!!

- حاولوا سحبها من وسط الشارع بعد ما أرداها القناص، خرج الأول فقتلوه والثاني والثالث، حتى بلغوا العشرة ولم يستطع أحد إخراج جثتها إلا بوساطة من الهلال الأحمر.

قالت سالي:

- يا لها من بطولة، والله رجال.. وهي بطلة حقيقية.

أجابتها ماريما التي كانت تلقي بسماعها نحوهن:

- عن أي بطولة تتحدثن؟! أودت بنفسها للتهلكة، ضيّعت نفسها وبناتها، من سيتكفل بهن الآن؟ كانت تعمل وتطعمهن.

أجابتها مروة:

- كانت تعمل قبل الحرب، أما بعد الحرب فقد فقدت عملها في المستوصف الخاص الذي أغلق بسبب الحرب.

قالت ماريًا بسخط:

- ربما لأجل ذلك ذهبت لتعمل مع المقاومة.

تأوهت سمر:

- صحيح.. الجوع كافر.

باغتهن من الخلف صوت اعتراض:

- اتقين الله يا نساء.. لم تبرد جثة عزّية بعد.

هكذا قالت عادة شقيقة عزّية، بعدما سمعت كلامهن.

شعرن بالخجل والتزمن الصمت.. ولّت عادة غاضبة ومضت نحو حجرة أختها المجنونة وهي تحدث نفسها قالوا لا عزاء للسيدات، يبدو أنه ولا عزاء أيضا للمجاهدات، قتلت عزّية وهي في خندق المقاومة فلم يمكننا أن نعلن ذلك ونقول شهيدة.. لماذا؟ لأنها امرأة!

دلفت عادة إلى حجرة أختها؛ فوجدتها تقلب ملابس طفلها التي اشترتها له بعدما عرفت من الطيبة بأنه صبي، منذ أسقطته وهي تقلبها بين يديها طوال الوقت، تلتذ بمرآها، تشتمها وتضحك، ترفعها في الهواء ثم تتلقاها بين يديها بعطف وحنو، تتخيل وليدها بداخل تلك الملابس.. تمضي الساعات الطوال في ملاعبته وتوهم إرضاعه.. تهتف بهن متسائلة عن زوجها:

- هل جاء نجيب؟ هو لم ير طفلنا بعد أن أصبح يقول ماما وبابا، لماذا تأخر بالعودة؟ سيكبر الولد وستفوته أجمل اللحظات، اتصلوا به.. قولوا له سيكبر ابنك وأنت لم تسمه بعد.

يا للمسكينة.. إنها تعيش مع حلمها هذا سعيدة محقة في عالم خيالي.. حتى أن عادة لا تمنى لها الشفاء واليقظة لرؤية واقعها المرير.

ربت على ظهرها وقالت:

- لماذا لا تسمينه؟ اختاري له اسما وسيحبه نجيب.

- أسميه أنا؟ والله فكرة.. سأسميه محمد، كلنا يحب اسم محمد.

- اسم جميل يا أم محمد.

لمعت عيناها وبرقت ثناياها بتبسم فوز:

- أم محمد.. صرت أم محمد، قولي للجميع يدعونني بأم محمد، وعندما يأتي نجيب سأدعوه أبو محمد.

ضمت تلك الملابس لصدرها تخاطبها:

- محمدي.. حبيب أمك، نعست يا طفلي الجميل؟ أشبعتك ماما رضاعة، قل شكراً ماما، هيا لنخلد للنوم سوية.

وضعت تلك الملابس على الوسادة، ومررت يدها عليها بلطف، ثم استسلمت للنوم.

غصت عادة بالبكاء.. خرجت من الحجرة مهرولة، انزوت بعيدا وانتحبت طويلا.



فيه بيت ساليه..

علا صوت الأستاذة فاتن على غير العادة:

- لم أتمالك نفسي بعدما قذفت في وجهي عبارتها الأخيرة قائلة تستحقون ما يحدث لكم يا أهل تعز.. لورأيتن كيف تحوّلَت حينها لوحش كاسر، ثارت ثائرتي، صببت على مسامعها أقذع العبارات، عرّفتها حجمها.. المصيبة أنها ليست جنوبية، ولا حتى عدنية كما تدعي، أعرف أصلها من فصلها، تعزّية ومولدة أيضا.. ليست يمنية قحّ.

قالت مليحة:

- هؤلاء هم سوس البلاد الملفقين الأنساب، شعور النقص يحرك مكانهم حقدهم على كل شيء أصيل.

أردفت فاتن:

- قلت لها لماذا نستحق الذي يحدث لنا؟! ما هي جريمتنا؟! هل جريمتنا أننا نطالب بالعدالة الاجتماعية والمواطنة المتساوية؟! هل يجب أن نبقي طوال حياتنا عبيدا ويبقون هم سادة علينا للأبد؟! ثم نحن أهل تعز طول عمرنا كرماء وطيون ومتسامحون، نحتضن كل عابر سبيل، وكل مظلوم مطرود من بلده يجد عندنا الترحيب ورحابة الصدر.. هل هذه جرائم نستحق عليها العقوبة؟! أم هل كفرنا ليفتحوا علينا جحيم سلاحهم؟! قالت مليحة:

- بالله عليكن وماذا عنا؟ هل سبق وطلعنا نحن أهل الجنوب لأهل شمال الشمال نحاربهم؟ هل سبق أن دسنا أراضيتهم بأقدامنا؟!

أجابتها فاتن بحماس:

- ونحن أهل تعز ماذا فعلنا؟ طول عمرنا زيد الذي يضربوه لإفهام عمرو، ما يحزن فعلا هم التعزيون المتحوثون، الذين يطعنونا في الخصرة.. لكن هم فعلا كما قلتِ يا مليحة ليسوا أصلاء؛ بل ملفقي الأنساب.

قالت مروة:

- لحظة.. هل سمعتم عن خلية القناصة التي دوخت المقاومة لشهور؟! بعد متابعة طويلة، وبجهد جهيد وجدوا مخبأهم الذي ينتشرون منه لممارسة القنص، فكانت المفاجأة المذهلة؛ وجدوا أن عشرين منهم تعزيون متحوثون.

قالت فاتن باعتراض:

- أكيد هم مولدون.. أو موالون للمخلوع، لا يوجد تعزي أصيل يفعل بموطنه هذه القبائح الفاحشة.

فرقت مروة أصابع يديها قائلة:

- هذه الحرب الظالمة تقتلنا جميعا ببطء، لكن كله بكفة وأهوال ليلة أمس بكفة ثانية، قمة الرعب.. عندما فتحت عيوني ورأيت السماء محمرة صحت بهستيريا: يا ويلنا.. قامت الساعة.

ضحكت سمر:

- نفس العبارة ترددت على لسان أمي، حاولت أن أهدئ من روعها دون جدوى، بعد دقائق قامت للصلاة، وبقيت في مصلاها حتى اتصل أبي بأحدهم وعرف حقيقة الحادث.

تنهدت لبيبة وتوجهت بكلامها لشمس:

— أنتِ تعرفين زوجة الأستاذ حليم.. منسق البرامج في مركز الإرشاد
عندما رأت ذلك ظلت تصرخ بهستيريا حتى أسقطت جنينها الأول، كم
حزن حليم لفقده.

عقبت شمس:

— الله يعوض عليهم.. أردفت:

— كانت ليلة كئيبة للغاية، الجو حار جدا والنوم متقطع، أفقت من نومي
على صوت حسيس النيران وما إن فتحت جفني حتى فجعت بمرأى احمرار
السماء، قمت لأنظر من خلال النافذة وهمست لزوجي أمير:

— تعال انظر وقل لي هل ما أراه حقيقة أم أني أحلم؟!!

لقد رأيت الجبال التي تحجب عنا وادي الضباب المشتعل فيه النيران، وقد
تعاضمت عند ارتفاع اللهب المحمر من خلفها، كان مشهد تطاول السنة
اللهب من خلفها مرعبا، أنا أيضا قلت في نفسي هل قامت القيامة؟!!

قالت فاتن:

— لقد أحرق الحوثة آلاف الاسطوانات من الغاز المنزلي في هذا الحادث
الذي رَوّع سكان تعز كلهم.

أردفت مروة:

— الذين يفعلون هذا لا يمكن أن يكونوا بشرا، لو رأى إبليس حالتي
بعدها لأشفق عليّ، تبيست أطرافي لساعة وتخشبت تماما، ثم ارتخت كل
أعصاب جسمي بالكلية.

قالت سامية:

- الحمد لله.

عقبت مروة بأسى:

- الحمد لله على كل حال؛ لكن الذي حدث بعدها كان فظيعا، ارتخت أعصابي تماما، صارت كالخرقة البالية، وفقدت السيطرة على جسدي.

تأوه الجميع بصوت جماعي ثم:

- يا الله.

- وكيف عاجلتها؟! سألت فتن باهتمام وقد مطت نصف جسدها العلوي تجاه مروة؟!!

اتصل زوجي بطبيب يعرفه ووصف له الحالة؛ فأملى عليه اسم دواء، خرج زوجي صباحا وجلبه بعد بحث طويل، ودوران مدوخ بين الصيدليات الشبه فارغة من الأدوية بسبب الحصار، حقنني بالدواء في الوريد، الحمد لله أنه أخذ دورة إسعافات أولية.. سبحان الله، بمجرد سريان الدواء بدأت الأعصاب تسترد عافيتها.. لم أصدق أنني استعدت السيطرة على جسدي.

قلن بنبرات متتابعة:

- الحمد لله.. الله يلطف..

عقبت فتن بحنق:

- هيا انظروا.. هذا لون من التعذيب الجماعي الذي يقع علينا ظمنا وعدوانا ما هي جريمة مروة لتفقد قواها ويضيع شبابها وتخسر مصدر رزقها للأبد؟!!

التفتت فاتن المتوهجة في الجلسة ليمن التي لزمت الصمت منذ بدء الحوار قائلة لها :

- ما رأيك يا يمن؟ شاركينا.. نريد سماع رأيك فيما يحدث، ما بك ساكتة؟!

- بصراحة.. رغم تعاطفي مع مروة وزوجة الأستاذ حليم وجميع من تضرروا؛ لكن لا تعجبني نبرة "المناطقية" في كلامك.

قالت فاتن دون تفكير:

- أنتِ تقولي هذا لأن والدكِ واحدا منهم.

سكتت يمن ولم تدرِ ماذا تقول؟

انبرت شمس مدافعة:

- يمن مستقلة، طول عمرها محايدة وعادلة، وطرحها موضوعي.

أردفت يمن:

- ثقف بما أقول، القضية ليست محلية، القضية أكبر من ذلك بكثير، لكن لا يمكنني أن ألومك على شعور الغضب المتحكم في ردود أفعالكن، ما يفعله الحوثة فطيع للغاية؛ لكنها الحرب، تخرج أسوأ ما لدى الناس، لأجل ذلك لا بد من ضغط قوي لإيقافها.

قالت فاتن:

_تفكيرك مثالي يا يمن، أمعني النظر في الواقع، هذه حرب تسلط وإذلال، ما زلت أتذكر كلمة صالح حين هدد ثوار فبراير قائلاً هذه المرة

لن أدع لكم سوى منفذ واحد، وهو البحر، بالأمس التقى زوجي بصديق عاد للتو من جيبوتي، أخبره بأن وضع مخيمات اللاجئين اليمنيين هناك مزرية للغاية، لقد رموهم بأرض قفر لا تعيش فيها حتى القروء.. خيم مهلهلة، حمامات من صفيح صدئ، تأتي الزوابع فتطير خيامهم فجأة وتغمرهم بالرمال، لا توجد تغذية كافية ولا رعاية صحية.

كانت سامية غائبة طوال الوقت.

لكزتها شمس:

- ما بك اليوم خارج نطاق التغطية؟!

تنبّهت قائلة:

- أنا معكم على الخط.

أرسلت ابتسامة باهتة، وأدلت بدلوها في الحديث لتهرب من نظرات شمس الفاحصة قائلة:

- لا تحزنّ واصبرن.. سنتنصر رغم كل شيء.

عقبت سمر:

- سنتنصر اليمن بإذن الله وتوقف الحرب، ويعود كل مقاتل لحضن أحبته. وتنهدت..

توفزت يمن على غير العادة قائلة:

- الله يرد العقل، ويهدي العاصي ويستر المفصوح.

قالت هذا وهي ترمي سمر بنظرة ازدراء، جعلتها تنكمش على نفسها.
قالت زوجة فهمي - المدير في مؤسسة حكومية - وقد خرجت من
صمتها وطفقت تفرك مسبحة بين كفيها:

- الإصلاحيون هم سبب كل المصائب التي تصب فوق رؤوسنا.

أجابت زوجة عبد الرحمن إمام الجامع بحق:

- لا ورب البيت؛ بل هم يقفون مع الحق، يواجهون الباطل بشجاعة
ويموتون في سبيل تحرير تعز، ومن قبل.. خلال ثورة التغيير، قتل خيرة
رجالهم في ساحات اليمن كلها؟!

ردت زوجة فهمي بنبرة غاضبة:

- ومن طلب منهم التغيير أو المواجهة؟! وماذا استفدنا من ثورتهم
هذه؟! أجابتها بحماس:

- أولاً المواجهة فرضت عليهم، وتغيير الوضع السيئ حق مشروع،
المصيبة ليست محصورة فيهم، المصيبة الكبرى تكمن فيمن رضعوا الذلة من
صدور الأمهات، وورثوا جينات العبودية من دماء آبائهم، وصار الواحد
منهم يزن كل شيء بالريال والفلس، لا فائدة ترجى من هكذا ناس.

جحظت عينا زوجة فهمي، واحمر وجهها غضبا لوهلة ثم كظمت غيظها
وأشاحت بوجهها عن زوجة الإمام.

تدخلت سالي لنزع فتيل التوتر:

- ما لنا وللسياسة.. اجتمعنا لنروّح عن أنفسنا وننسى هموم الحرب ولو قليلا، هيا الشاي سيبرد، مالي أرى الأطباق كما هي؟! ألم يعجبك الكعك الذي صنّعته؟

امتدت الأيادي نحو أطباق الكعك، وسرت همهمات النساء بمدح المذاق والتشكيلة، وتنوعت عبارات الاستطابة له.. رُفعت فناجين الشاي للمباسم، وانهمك الكل في قضم قطع الكعك، بعدها التفتت كل واحدة لجارتها في المجلس.. وبدأ تهامس خاص! كان المجلس مكتظا بالعديد من جارات سالي.

مالت سامية نحو يمن وهمست:

- يمن.. ما بكِ تقسين على سمر؟ وشمس فعلت ذات الشيء بالأمس؟! - اقطعي صداقتك معها.

لم تملك سامية كتم دهشتها فشهقت باستغراب، حتى التفت بعضهن نحوها.

فركت يمن يد سامية قائلة:

- سامية رقيقة الفؤاد، تندهش لأشياء لا تستحق الذكر.

ضحكن بخبائة.. همست يمن لسامية:

- ما بكِ؟ ومتى تتعلمين كيد النساء؟!

- حسنا.. سوف أنعلم، لكن لماذا أقطع صداقتي معها؟! ماذا فعلت؟
- سنتكلم بالتفصيل في وقت لاحق.
- تدمرت سامية وبإلحاح طفلة:
- لن أصبر حتى ذلك الوقت، هيا قولي أي شيء.
- تلفتت يمن حولها؛ لتجد زوجة فهمي وقد رمت بأذنيها بينهما فقالت:
- انظري إلى الأعين والأذان المحدثّة بنا، الموضوع حساس لذا سأخبرك على انفراد في وقت لاحق.
- رمت يمن سمر بنظرة عتب وأردفت هامسة لسامية:
- انظري إليها.. كم هي مستفزة.. تبدو مريحة منطلقة ومنشرة الصدر وكأنها لم تفعل شيئاً.
- لم تدرك سمر بأن يمن وسامية يتهاامسن بخصوصها، لوحت بساعديها في الهواء وهتفت بالنسوة:
- لحظة.. قبل الانهالك في التهامس نريد حلاً عبقرياً لوقف هذه الحرب، دواءً ناجعاً يشفي الرجال من هوس عنف يعصف بهم كالوباء.
- قالت زوجة فهمي:
- ليس كل الرجال، لم يخرج للقتال سوى الحمقى والجهلة والمنبوذون.
- ردت بتحفظ:
- لا والله.. وحتى أسألو البية عن زوجها؟!

أغمضت لبيبة جفניה ممتعضة:

- زوجي في العمل.. لم يخرج للقتال، ما بك يا سمر؟ اتركي زوجي في حاله.

- قولي لهم كيف سلبت فكرة المقاومة عقله وهو المثقف المتعلم الوقور.

قالت لبيبة:

- الله يصلح الحال.. زوجي له وجهة نظر أحترمها، ولا أريد مناقشتها الآن.

قالت شمس منقذة لبيبة:

- ثوار ١١ فبراير لم يهتموا بإفشال ثورتهم.. الحماس يشتعل في رؤوسهم، يدفع بهم إلى أتون هذه الحرب بقوة، هم غاضبون وسيبقون هكذا حتى تحقق ثورتهم أهدافها، أراهم محقين.

قرصت لبيبة شفتيها وهي تتذكر وحيد، اجتاحتها شوق طاغ لزوجها، تنهدت:

- أكثرن من الدعاء بالرشد للجميع، في بداية الحرب كنت معترضة عليها أشد الاعتراض؛ لكنني اكتشفت بأن كل ما قالت لي نسرني قبل سفرها كان صحيحا، إن ضياع الدين والهوية شيء لن نقبل به مطلقا، أسألن الله بصدق أن يمنحنا الصبر والثبات، وأن يجعل لنا فرجا قريبا ومخرجا من هذه الحرب.



صراع الأم والزوجة

لبيبة زوجة محبة وأم حنون.. منذ ولادتها وهي تعيش في الحي الذي تلقى أشد الضربات الموجعة من سلاح الميليشيا.

قبل أن تشتعل هذه الحرب لم يخطر ببال أحد بأن حي الثورة سيصبح اسماً لامعاً في سماء الإعلام العالمي، وسيرد ذكره على ألسنة مذياعي نشرات الأخبار في سائر القنوات الفضائية.

هو حي يتوسط مدينة تعز.. يمثل قلب المدينة النابض بالحياة، يتهافت الناس للحصول على سكن فيه، وقد اكتسب اسمه من مستشفى الثورة العام الذي بناه الصينيون على مساحة شاسعة فوق إحدى هضاب الحي.

شوارع الحي تضج بالحياة وبمفرقات العيش المتنوعة، محلات تجارية لبيع كل ما يحتاجه الإنسان في شتى مناحي حياته، وباعة المتجولون يذرعون الحي صباح مساء يبيعون الأكلات الشعبية الخفيفة كالبطاطس والزلاية الحلوة والمالحة وأكواز الذرة المسلوقة والمشوية، وجبات خفيفة ورائحتها تفتق الشهية، إلى جانب الحلويات اليمنية الشعبية المتنوعة، واللوز والزبيب الصنعاني، والبن اليمني المتفرد النكهة، وعقود الفل والكاذي.

بعد العصر تمتزج كل هذه الروائح؛ فتخلق أجواءً لذيذة تثير في النفس حب الحياة، وتوق للعشق.

يتجول العشاق على جزر الشارع ويتاعون عقود الفل لمحباتهم، يروق لكل فتيات الحي الخروج لشراء الوجبات الخفيفة بأنفسهن، خاصة

بعد تساقط المطر، حيث يرق الهواء وتداعب نسماته الندية وجوههن الغضة، ويحلو السير على الطرق المرصوفة المغتسلة توا بماء السماء.. تراهن يتزاحن كفراشات الربيع على ضفاف الجزر الممتدة بوسط الشارع التي تتسامق عليها أشجار زينة عتيقة مجللة بأوراق ندية دائمة الخضرة.

تعيش لبيبة بعد زواجها في إحدى شقق منزل أهل زوجها وحيد الكائن في وسط حي الثورة، الذي يُعد من أحياء عز الحديثة، ويتشكل غالبية سكانه من فئة الطبقة المتوسطة، جلهم متعلمون كادحون يتشبثون بمستواهم المعيشي باستماتة في مواجهة النكبات المتتالية التي تضرب اقتصاد اليمن.

أما الغضبة العظمى التي يواجهها هذا الحي، والعقاب الشديد الذي يصب عليه من قبل الميليشيا فيعزوه البعض لكون هذا الحي محسوب على أحزاب المعارضة، ولم تتمكن السلطة السابقة من اختراقه ما يقارب الربع قرن.

كان الناس دوماً يحسدون سكان حي الثورة لنقاء هوائه وتناسق عمرانه، وتوفر كافة الخدمات فيه، ولكونه يقع قريباً من السوق المركزي للمدينة، ويوجد في الحي جامعات خاصة، ومعاهد لغات وتقنية، و مدارس عامة وخاصة لكل المستويات.

واليوم تغير كل ذلك، بعدما عم الحي خراب لا يوصف.

كف الناس عن حسد أهل الحي، وتمنى سكانه وهم يرونه يقصف بالمدفعية بقسوة وشراسة؛ لو أنهم بنوا بيوتهم بأطراف المدينة.

غادر معظم السكان حيّهم المنكوب، حتى مالكي البيوت هجروا بيوتهم فرارا بأبنائهم وأرواحهم، بعدما أخذت المعارك تحصد بقذائفها ورصاصها عشرات الأنفس، وتدمر البيوت بعشوائية ودونها هوادة.

الاقتتال يزداد ضراوة.. والخدمات تتضاءل شيئا فشيئا، حتى رغيف الخبز وشربة الماء النظيف صار الحصول عليهما مستحيلا؛ فلماذا بقيت لبيبة مصرة لزمن على البقاء هناك، كان أهلها يتصلون بها متسائلين؟! بُحَّت أصواتهم في توسلات متكررة لها بأن تغادر ذلك الحي المنكوب، لكن دون جدوى.

تملك لبيبة من رباطة الجأش وهدوء النفس وطمأنينة اليقين ما يجعلها تحتمل العيش الممض وسط جحيم موت متربص بها طوال الوقت، بإمكانها المكث هناك حتى النهاية.. هي لا تحب فراق زوجها الذي لن ينزع معها لبيت أختها سالي ويترك أمه وأختيه اللتين تسكنان في الدور الأرضي لمنزلهم.

حب الزوجة يقيدها في مربع الموت هذا، لكن حب الأمومة يهزها بقوة حاثا إياها على الرحيل.

الموقف يتصاعد بتسارع.. أصوات الدبابة والقذائف تهز الحي من جميع الأركان وأفراد المقاومة يقتربون، يربطون قبالة منزلهم ويننون المتاريس بوسط الشارع أمام نافذة حجرتها، وعلى مرمى البصر يتمترس جند الحوثة، يتبادل الفريقان ضرب النار طوال الوقت، يمكنها تحمل كل شيء عدا فقد أحد بنيتها، الرصاص يتطاير حولهم في كل مرة يخرجون فيها لجلب شيء للبيت، تفاقم الوضع في الحي وغدا رهيبا للغاية.. همست لزوجها:

- يعزّ عليّ فراقك لكنني أم، سوف أغادر مرغمة فرارًا بالأبناء، أنت اخترت البقاء هنا لأجل أمك وأختيك؛ مع أنها تحت رعاية أخيك الأكبر قائد الذي يسكن بجوارنا.

سكت ولم ينبس.. جمعت لبية بعض الأمتعة وغادرت مع أبنائها الحي والدموع تتراحم في مآقيها.

عند بدء المواجهات نشب عراك في الشارع قبالة منزلهم، نظرت لبية من خلال النافذة، كان قائد ممسكا بإحدى يديه بكتف وحيد ومطبقا بيده الأخرى على عنقه.. صرخ في وجه وحيد والشرر يتطاير من عينيه:

- لا نريد خلايا مقاومة في حيننا، اذهبوا وقاتلوا الحوثي بعيدا عن مساكننا.

اجتمع حولهم نفر من رجال الحي.. تعاضدوا مع قائد وأيدوا موقفه، أظهر وحيد الكثير من الهدوء وامتص غضبهم، اجتهد لإقناعهم بأن المقاومة هي الحل، لكنهم بقوا على رأيهم بأن الاقتتال وسط الأحياء مصيبة وطامة كبرى. هذا رأي قائد ومن معه أما المقاومة فهم يرونها معركة من أجل الهوية والكرامة، وتستحق أكثر من هذه التضحيات.

كانت لبية في فترة النزوح بيت سالي منشغلة طوال الوقت بمصير زوجها، تلتزم الصمت معظم الوقت، تناقش أحيانا الموقف العام مع أخواتها وتتذمر بين فينة وأخرى من المقاومة والحوثة والحرب، وكل شيء مزق شمل أسرتها. في اليوم الذي أعلن فيه عن رؤية هلال شهر رمضان قرر ابنهم عامر الرجوع للحي.. قال بانزعاج:

- رمضان لا يحلو إلا بوجود أبي معنا، سوف أرجع للبيت.

لم يصدق أحد بأنه سيفعلها.. ذلك العنيد ابن السادسة عشر، لكن فوجئ الجميع في مساء اليوم التالي باتصاله من جوال أبيه معلنا وصوله لحي الثورة سالما. فرح بعودته إليهم كل من الجدة والعمات والأب، وابتلعت لبيبة غصة غضب وسكتت.

رجع عامر إلى أمه بعد عدة أيام، بدا هزيلا مروّعا، لا تدري ما الذي أصابه؟ لماذا قرر الرجوع سريعا لدار النزوح بعد إعلانه الرفض لتفرق الأسرة في شهر رمضان؟!

يتعاضم الهم في صدر لبيبة من تغير سلوك عامر في الآونة الأخيرة، هو أرعن ومتهور دوما؛ غير أنه أصبح مشاكسا وعدوانيا للغاية، قتل العديد من قطط حي الدار شمسي، يتناول برودة حجرا ثقيلا ليهشم به رأس قطة مسكينة، يتلذذ بمرآها تموت أمامه ببطء، ثم يمضي باحثا عن غيرها، يطارد الكلاب ويرميهم بالحجارة، يصنع مقلاعا ليقتل به العصافير.

غادر جميع الكلاب مداخل الحي، تطايرت أسراب العصافير التي كانت أعشاشها تتدلى من أشجار الحي كالقناديل، فنت القطط التي كان أهل الحي يألفونها وتألّفهم، وجاء بدلا منها قطط من أحياء مجاورة، أخذ عامر يطاردها ويقتلها تباعا.

غدا عامر قليل الكلام، كتوما وغامضا.. كان طفلا مرحا والآن تغيرت طباعه، كبر جسده بسرعة، بدا أكبر من سنه.. هذا الشاب مغامر عنيد لا يمكن لشيء صد سيل فضوله أو كبح جماح حبه للاستطلاع، أمه على يقين بأنه رأى أهوالا في رحلة عودته لبيتهم في الثورة، لكن من يمكنه استخراج طرفا يسيرا مما رآه؟!

ماريا خالته الكبرى التي تعتزل بقية أفراد أسرتها لأنها غير راضية عن كثير من مفردات عيشهم التي تراها ترفا زائدا وبذخا مذموما ومجاملات مجوجة وتملق.. كل ذلك من وجهة نظرها فحسب.. أما هم فيرونها بغیضة، شحيحة وتأمّر الناس بالبخل.

وهي فوق ذلك لا تتقن فن التعامل مع اختلافات البشر أو القبول بها كحقيقة كونية، واقع لا مناص منه؛ لذا قررت اعتزال الناس، والتباعد عن كل أقربائها؛ كيلا تعيش صداما متكررا معهم.

لديها قدرة على قراءة ما بين السطور، والتي توقعها في الكثير من المشاكل، تجعلها ترى تصرفات عدة من الغير استفزازا لها، منحها الله ذكاءً حاداً وحسّاً قويا وفراصة اكتسبتها من عملها في مهنة تجميل العرائس.

تهوى تحليل سلوكيات الغير ولديها منطق خاص بها، تمتلك قدرة رهيبة على ربط الأحداث توصلها للنتائج تحولها تلقائيا لمعتقدات تحكم على الغير وفقها؛ مع أنها ليست سوى ضرب من التخمين.

تبدو للبعض مجنونة؛ لكن في مرات عدة تصدق تخميناتها وتوافق الواقع، أغراها ذلك في اتخاذ هذه التخمينات حقائق تتحرك بناءً عليها وتحدد نوعية ردود أفعالها تجاه الناس.

كل هذا جعلها شخصا مزعجا بالنسبة لأسرتها، لم يبذلوا جهدا يُذكر لثنيها عن قطيعتهم عندما قررت ذلك.. لقد استراحوا من بخلها وحسدها ورغبتها في التسلط عليهم، وتخلصوا من تبعات نمط تفكيرها البوليسي المتشكك الذي أرهقهم لزمان.

برغم ذلك تربط ماريا جسور المودة مع الأبناء؛ لتسترق منهم أخبارا عن البقية، قصّ عليها عامر الذي بدا غير راض عن المقاومة أشياء ربما لم يقص بعضها على أمه.. فحين سألته عن أبيه قال:

- أبي طيب.. المقاومة أخذته منا، هو لا يعرف كل شيء عنهم، أنا أعرف أكثر منه.

سألته ماريا باهتمام:

- ماذا تعرف؟! -

- عرفت أن فيهم خونة مندسون.

- كيف ذلك؟ -

- رأيتهم يقتلون واحدا منهم.

- أنت شاب مغامر ورائع وتعجبني، لكن هل رأيت ذلك حقا؟!

- أكيد.. كما أراك الآن، فعلوها في وضح النهار.

- لا أصدق.. كيف حدث هذا؟!

- صدقيني.. تخلوا عن ابن الشادي، هل سمعتِ عن مقتله؟

- نعم.. سمع كل الناس بأن الحوثة هم من قتلوه.

- لا.. أصحابه هم الذين خذلوه، تركوه وحده في ساحة المعركة.

- كان مصابا قبل مقتله بأسبوع، هذا ما سمعناه.

- صحيح.. ثم خرج من المستشفى وهو غاضب منهم.

- لماذا؟!

- لست أدري.

- قالت لي إحدى النازحات بأنه تشاجر معهم بعد خروجه من المستشفى.. قال لهم أنتم أوغاد، لم يسأل عني أحد منكم طوال مدة رقودي في المستشفى.. لم أتلق منكم أي دعم.. تخلّيتم عني وأنا أبيع نفسي لكم وأقاتل باستماتة بسلاح قديم صدئ! صرخ بهم وسألهم أين الأسلحة الحديثة التي وصلت لدعم مقاومة تعز؟! تبيعونها في السوق السوداء؟ لم أصدق ذلك حين سمعته في البدء.. لكني اليوم أصدق كل ما يقال عنكم، أقسم بأن أفضحكم أمام الجميع يا أوغاد.

كان مهتاجا للغاية.. كانت المرأة تسمع عليهم خفية، تراقبهم من نافذة ضيقة في بدروم العمارة التي تسكن فيها، التفوا حوله وهمسوا له بكلام، بدأت ثورته تهدأ ثم أعطوه مبلغا من المال أخذه وابتعد عنهم ثم قرر تركهم.. هكذا قيل.

- صحيح هو تشاجر معهم، كانت تلك المجموعة سيئة السمعة، مندسون ولصوص.. لكنني لم أكن موجودا وقت الشجار ولا أعرف ما هي الأسباب؟ في الأسبوع التالي لخروجه من المستشفى جاءوا إليه وطلبوا منه الخروج معهم لمواجهة فرقة من الحوثة دخلت الحي مؤخرا، أثاروا حميته وجعلوه قائد الغزوة، خرج لمواجهة الحوثة بشجاعته المعروفة وأردى قائدتهم من أول طلقة، أمطره جنود القائد بوابل من رصاص تفادها بخفة ومهارة، المفترض أن يقوم رفاهه بتغطيته؛ لكنه التفت ليجد ظهره مكشوفاً.. هربوا وتركوه يواجه الموت منفردا، رماه أحد قناصة الحوثة بطلقة سكنت في رأسه وأتبعها بثانية سكنت في قلبه، استدار بجسده الضخم نحوهم وارتعش للحظات ثم خر صريعا، رأيت يموث وحيدا وسط الشارع، كنت مع مجموعة من أولاد الحارة نراقب المشهد خلسة.

كان عامر يقص لما رآها تفاصيل ما حدث وهو يرتجف.. جف ريقه عندما وصل لمشهد مقتل ابن الشادي، صاحت بعزة ابنتها الكبرى المطلقة والتي تعيش عندها، بعدما تسمرت على الكرسي بمقابلهم مصغية للحكاية قائلة لها:

- هاتي له كأسا من العصير.

ثم قالت معلقة على القصة:

- يا الله.. خلي البلاد تنظف وسيقال بطل.

دفعت عزة بكوب العصير لعامر، شرب رشفة منه:

- لا يا خالة.. الغدر حرام هو كان بطلا وقاتل معهم بإخلاص.

- صدقت، الغدر حرام وخسة.. ما الذي حدث بعد ذلك؟ أكمل لي القصة.

- تركوه ينزف حتى الموت، لو تقدم أحد لإنقاذه سوف يقتله القناصة، بعدما انسحبت فرقة الحوثة ولفظ ابن الشادي نفسه الأخير، تحركوا نحوه وحملوه وهم يهتفون:

- الحوثة قتلوا محمد الشادي.. مات شهيدا.. حملوه على أكتافهم وهم يرددون ذلك.

- أنذال!

- أسألك بالله يا خالة لا تقولي لأمي أي حكاية لك هذه القصة، ستعاقبني لو عرفت بأني أتبع خطوات المقاومة وأزج بنفسني في مواقع القتال، وسوف تخاف على أبي أكثر، أنا سأعود إلى هناك وأبقى قريبا منه، أبي طيب ويظن

أن جميعهم أبطالا، يوجد بينهم لصوص مندسون يستغلون الحرب لسرقة البيوت.

- يبدو أنك تكرههم مثلي تماما.

- ليس كلهم.. أنا فقط غاضب لأنهم يقاتلون الحوثة وسط حيننا؟ ليذهبوا بعيدا ويتركوا حيننا بسلام، مات العديد من أصدقائي تحت أنقاض البيوت التي دمرتها حربهم ضد الحوثة.

- لكن أباك معهم.

- أبي لا يحمل السلاح.. هو طيب ومسلم، حتى أنه توسط لإخراج جارنا قاسم الشامي من سجن المقاومة.

قاطعه ماريا وسألت بتعجب:

- سجن المقاومة؟! أين يقع؟

- في مدرسة خاصة بجوار سوق جفمان، يوجد فيه مساجين كثير.

- مساجين؟! غريب! وماذا فعل قاسم هذا ليسجنوه؟!

- قالوا بأنه جاسوس ضد المقاومة، وبأنه يعطي أسرارهم للحوثة، أخذوه من بيته وضربوه وسحبوه إلى سجنهم، لكن أبي ذهب إليهم وأخرجه من السجن فور علمه بما حدث له، مع أن قاسم هذا كان جارا مؤذيا لنا طوال الوقت، أبي طيب وهذه الحرب أخذته منا.



فراشة بدون ألوان

علامات السهر والتوتر والقلق تنحت خطوط عمر مضاعف على بشرة وجهها الدقيق التقاطيع، ويغزو وجهها شحوب يطمر ملامح جمال متفرد أهملته دهرافهت.. هي امرأة قوية الجسد، تشتعل حماسة، نشطة، فتية، ثاقبة النظر، دقيقة الملاحظة وحادة اللسان، لن يصدق من يراها أو يسمع نبرة صوتها الرنانة المتدفقة حيوية بأنها على أعتاب الخمسين.

ماريا المرأة الطموحة، الجلدة الصبورة.. حياتها ملحمة معاناة وصراع مع الأيام التي عركتها طويلا وتقلبت بها من حال إلى حال؛ فصاغت منها أنموذجا للمرأة الجاحمة القاسية.

شغفت منذ كانت طفلة بتعلم كل جديد يدر عليها مالا، أتقنت حرفا يدوية عدة، صنعت لأخواتها بيديها ملابس الصوف المتقنة بإبداع جعل معلمة الأشغال اليدوية في مدرستها تثني عليها وتندesh لسرعة تشربها للحرفة.

طرزت بخيوط الصوف الملونة أغطية السرير بماكينة يدوية، كانت ترسم نقوشها ببراعة وذوق رفيع، باعت منها الكثير وكسبت أموالا كانت باكورة مكاسبها التي تعددت فيما بعد.. اشتغلت بتطريز الملابس والسراويل التقليدية الشهيرة التي تلبسها نساء جبل صبر وأضافت لها لمسات فنية حديثة ابتكرتها بنفسها، تعلمت النقش على الأيدي بالخضاب اليميني والحناء، مارست ذلك وربحت وصار لها زبائن من النساء والفتيات اللاتي يأتينها

في كل عيد أو مناسبة لترسم على أياديهن وأقدامهن نقوشا غاية في الجمال والروعة والدقة، تعلمت الخياطة بالماكينة التي تعمل بالأرجل وطمحت للحصول على ماكينة أكثر حداثة، وقد حصلت عليها وعملت في تطوير الوشاحات الحريرية، تعلمت حرفا شتى، وأتقنت جميعها.

في يوم ما سمعت حوارا بين والديها وهي بعد طفلة في الثالثة عشر من عمرها، فهمت منه بأن أباه سيخرجها من المدرسة؛ لزوجها برجل يكبرها بعقود، لا تستطيع ماريا إعلان رفضها لهذه الزيجة، ولا يمكن للأم الضعيفة الوقوف في وجه الأب الجامد الصلب والمستبد بكافة شؤون الأسرة.

همست لها الأم مهوَّنة عليها الخطب:

- يبدو رجلا طيبا، هو ثري وسيني لك بيتا.. بزواجك من رجل ثري لن تعيشي في قلق دائم من تعرضك للتشرد أو للفقر أو جوع يمسك وأبنائك.

سكتت ماريا مبتلعة موس قهر.

تم الزواج بهدوء.. غير أنها ثابرت على المضي في عملها وتطوير مهاراتها، هذه الزيجة ليست من اختيارها ولن تكون سجنًا تمضي فيه بقية حياتها مع رجل لم تحبه قط، هي فتاة طموحة لكنها ما تزال صبية فاتنة غضة الروح والقلب والجسد، هاجس الأمان المادي يشغلها بنسبة ضئيلة، في هذه المرحلة من عمرها تريد الحب.. الأمان العاطفي كحاجة أولية، تنمرت وتمردت على زوجها لم تبدِ انصياعها له مطلقا، دخلت بيته بنية النشوز.

بقيت ماريا مصرة على موقفها حتى نالت حريتها بعد صراع مرير مع والدها وشبح العادات والتقاليد التي تشق كل مطلقة بأنشطة الاتهام

والحصار القاسي، حملت بين أحشائها صبيا من هذا الزوج، تشكل كيانه بمزيج من مشاعر الكراهية والغضب الجَم الذي حملته تجاه أبيه وأبيه والمجتمع.

بدا للجميع منذ طفولته ولدا مشاكسا، رحل مع أبيه بعد تجاوزه سن الرضاعة، حزنّت لفراقه حينها؛ لكن عندما رجع إليها بعدما صار رجلا اكتشفت بأنه ليس أكثر من مسخ عقوق لئيم قبيح الباطن.

فعلت ماريا الكثير ليصير ابنها إنسانا سويا لكن هيهات.. هي لم تمنحه سوى جينات مشوهة مضطربة مسمومة، ورث منها جميع طباعها السيئة فحسب، جمع من نسل أبيه ونسل أمه كل السمات الخبيثة.

اصطدم بزوجها الثاني، والد ابنتها وتسبب بحدوث مشاكل عدة بينها وبينه.

أحبت ماريا زوجها الثاني منذ اللحظة التي تقدم فيها لخطبتها، الحب الذي جمعها كان كفيلا بخلق علاقة زوجية متزنة قوية ممتعة؛ غير أن حب ماريا للمال وحافز الإنجاز العالي لديها وحماستها المتدفقة للترقي والنجاح وجمع الثروة كانت أضعاف حماسه.

تشبعت ماريا حبا وعاطفة، وطفّت إلى السطح حاجات أخرى.. لديها طفلتان تريد توفير الأمان المادي لهما، تحلم بامتلاك بيت واكتساب ثروة، حب المادة طغى على كل شيء جميل فيها.

دفعت زوجها بالحاح نحو تتبع سبل الثراء، وجهته كثيرا وصبّت في أذنيه سيلا من النصائح، جلده بسياط اللوم بعد كل تعثر يقع فيه، أطفاله دون

أن تشعر، تواكل عليها وأخلد للراحة.. منطقته كرجل يقول في اللاوعي ما دامت غير راضية عني وتحصي كل أخطائي، وأصغر في عينيها بعد كل زلة تصدر مني؛ فلن أتحرك مجددا لكيلا أقع في مزيد من الأخطاء التي تجعلها ترفضني أكثر.

تعلمت ماريا أشياء كثيرة في الحياة.. لكنها لم تتعلم بأن الرجل لا يجب من المرأة أن تكثر من سرد النصائح وتلقي عليه الأوامر، شعر بأنها تدفعه بإلحاح ليتغير، هي لا تقبله كما هو ولا تمنحه الإعجاب والاستحسان الكافي ليتطور تلقائيا ويزداد عطاؤه، إنها لا تقدر جهوده التي لم تبلغ مستوى طموحاتها العالية، إذا فليتوقف عن هذا السباق المنهك في سبيل إرضائها.

وقعت ماريا في مأزق حرج.. هل تطلب الطلاق منه؟ ستصبح مطلقة من جديد وهي لم تتم العقد الثالث من عمرها.

تألمت لحالته المزرية التي أوصلته إليها دون أن تشعر، تلاشى كل شعور حب كانت تحمله له في قلبها، عانت وبكت طويلا وهي تكدّ وتشقى لإعالة الأسرة.

تساءلت بأسى:

- لماذا يحدث لي هذا؟ أردت العيش الكريم لي وله، أريد سكنا يعتقنا من ذل الإيجار، كل نهاية شهر أعتصر قلعا خشية أن يطالب المالك بالإيجار وأنا لم أجمعه بعد.. لماذا يتقاعس عن القيام بواجباته تجاهي وتجاه بناته؟ ليت هذا فحسب؛ بل إنه يقف عائقا في طريق نجاحي، يُفسد علي العديد من الاتفاقات مع زبونات بتطلبه وأنانيته ودورانه حول تلمود ملاذه الحسي؟! يلح في طلب مزيد من التشبع في الفراش، يظن بأنه يرضيني بهذا؟! لم يمكنه

منحي الأمان المادي الذي أنشده، يعتقد بأنه يغطي بمسلكه النهم هذا جريمة تقصيره في الإنفاق.. ياله من أحق، أنا لا أطيق صحبة الحمقى.

كان قرار الانفصال موجة صراع عاتية قاستها هي وبناتها وزوجها الذي باغته بهذا القرار الغير متوقع.. استمات للبقاء معها، هو يحبها بعشق لا يوصف، ولا يملك فك طلسم حبها عن قلبه.

بجبروت وقوة كل نساء الأرض استطاعت ماريا تنحية مشاعرهما تجاهه والتفكير فقط بسبل تأمين حياة أفضل لها ولبناتها من بعدها، لم تستطع منحه ثقة كافية ليغدو أبا صالحا، لم يمكنه التخلق بأخلاق العناية.. كان يتصرف كطفل، يتوقع إغداق أمه عليه بكافة صور الرعاية.. وحدث الفراق خلعا.

أضحت ماريا بعد الطلاق من زوجها الثاني خبيرة في تزيين العرائس، مشهورة وتربح الكثير من هذا العمل، لقد عشقت المال واستعبدها حبه، صارت بخيلة لدرجة الشح، تمكنت من تحقيق حلمها بامتلاك منزل خاص بها، ثم ثان وثالث لابنتيها.. إضافة إلى عدة شقق للاستثمار، صارت من ملاك الأراضي والبيوت وهو أكثر مما كانت تحلم به، ازدادت أموالها وتعاضم شحها.

في ثورة ١١ فبراير كانت ماريا تساند الشباب في ثورتهم، واليوم هي تناهض المقاومة في تعز.. يرى الناس في ذلك تناقضا كبيرا.

تصرح ماريا بمقتها للمقاومة، تجمعها أحاديث شتى مع التيار الرافض لنشاط مقاومة تعز.. تحدث إحداهن:

- المقاومة إذا دخلت حيا أماتته وشردت أهله وخربت بيوتهم، اللهم اصرفهم عن حيننا.

- آمين.. هل رأيتِ صور الخراب في حي الثورة والروضة وغيرها من الأحياء التي تتمترس فيها المقاومة؟

- فظيعة جدا.. كل يوم أنام ودمعتي على خدي خشية أن يصيبنا ما أصابهم، أين أذهب بناتي وأحفادي إن خربت بيوتنا؟ سنتشرد.. هذا إن سلمنا من الموت.

- الحمد لله لا توجد مقاومة في حيننا، ولن توجد بإذن الله.

- يا أختي فليخرجوا ليتقاتلوا خارج تعز كما يشاؤون، يتركونا نعيش بسلام، قتال المدن قتال دون شرف ولا مروءة، رأيت كيف قتلت عزية! يا لها من ميتة نكراء شنيعة.

- قالوا بأنها مجاهدة.

- وهل انقرض الرجال ليجنّدوا النساء؟! ثم هل نحن في معركة القادسية؟! فوضى وقلة عقل، خرّبوا تعز.. لم يفهموا دروس الماضي جيدا.

- يقولون بأن التحالف سيعوض الناس المتضررين من الحرب!

- كلام فضائيات.. مشاريع إعمار العراق ما زالت حتى يومنا هذا حبرا على ورق، لا نريد تعويضا من أحد، كنا ومازلنا نأكل من كدنا وعرقنا، يبعدوا شؤونهم عنا فحسب.

لا يمكن لأي أحد فهم دوافع ماريا لمناهضة المقاومة، هي لا يشغل تفكيرها سوى مصير ممالكها التي بنتها بعرق الجبين وبشق الأنفس، الحلم الذي ركضت خلفه عمرها كله، وأضاعت حب عمرها لأجله، وعندما

صار شيئاً ملموساً تعيش في ظله مرتاحة البال مطمئنة النفس؛ جاء مهددٌ خطير يوشك أن يذروه في مهب ريح حرب ليست مقتنعة بها.

حرب تراها مهدداً خطيراً لأموالها وممتلكاتها، تقلق بعض الوقت على أمن الوطن، لكن أمنها الخاص.. أمنها المادي وأمن أسرتها الصغيرة؛ يمثل هاجسها الأول.. كل ما ترجوه ماريا هو بقاء كل ذلك، وسلامة أحفادها الذين شغفها حبهم حتى غداً هوساً لا شفاء منه.

من خلال الموقف النفسي المعقد هذا تشكلت نظرتها لأفراد المقاومة ولفكرة المقاومة ذاتها، تراهم متمردين على الدولة وعملاء للخارج.

تغيرت مواقفها القديمة عندما اقترب الخطر من أموالها، تبدلت مبادئها بعدما تغيرت منظومة قيمها، غدت قيمة المال في أعلى خانة.. ماريا على استعداد لأن تفعل أي شيء لتبقي على أموالها وممتلكاتها، ستغير مذهبها وستضحى بهويتها.. ستدفع بزواج ابنتها الصغرى للقتال حتى الموت في صفوف الحوثة!

بامتزاج دافع غريزة البقاء وحب المال تفقد ماريا ذاتها، تناهض كل من يهدد مصالحها الشخصية؛ بل وتناصبه العدا.



القسم الثاني

"الحب تحت العاصفة"

جلس مرسلًا ناظره في المدى.. كان النهار يفتق كالفل على الفضاء،
توسد ساعديه وجال ببصره متمتعًا ببهجة الطبيعة الفاتنة على تلك الهضاب
المعشوشبة بخضرة يتناثر على وجهها زهر يداعب خده ندى الصباح.
عند الضحى يغدو المكان هاجعًا في سكون مهيب، السماء تكتسي رداء
أزرقًا موشى بغمام أبيض، يتراشق على صفحتها كلؤلؤ نظمته يد حائك
مبدع.

جلست بقربه، بمحاذاة بوابة القصر الحديدية؛ متوسدة جدار حجرة
الحارس البارد إثر ليلة مطيرة.

الهدوء يخيم على المدينة وقت الشروق، يصلي العباد في الأسفار وحتى
لحظة انبلاج الفجر لتولد ساعة السكينة الفريدة هذه، بعدها.. تستيقظ
المدينة لتحصي قتلاها، يتفقد كل محب حبيب، يسأل كل قريب عن قريبه،
يتنافس الفائز بعمر جديد الصعداء، كل ناج من الظهور على قائمة القتلى
يحمد الله الذي سلمه وأهله وبيته من هلاك محقق.

أما الحب.. ذلك اللذيد العنيد، عبق الحياة الخالد القديم التواجد بين
شفرات الردى؛ فيبرز بنعومة خجلة بين فصول القسوة والدموية، يحتال تيها
بين المشاهد الوحشية، يحضر برغم غياب كل معنى يمت بصلة للإنسانية
في إلياذة الاستذئاب البشرية المنبعثة من عقد شياطين الإنس والجن، نفثة
إبليسية تتفاحش بوقاحة بين ثنايا ومفردات عيش الناس في تعز.

فجأة مزقت ستار الصمت الذي أسدله بينهما هروبا من نظرات اللوم التي صفعته بها:

- نصحتك مرارا بالأ تفعل.. قلت لك لا تتحاقق فهذا ليس شأنك، لم تصنع لي وأمضيت ما في رأسك وركبت موجة الجنون هذه وتركتني.

- ستعزفين هذه الوصلة مجددا؟!

- نعم.. سأعزفها، وأنت ستستمع إليّ رغما عنك، المفارقة العجيبة أنك ما زلت ترغم بأنك تحبني.

- كنت وما زلت وسأبقى أحبك، قد تكون هذه هي الحقيقة الكاملة في حياتي، صرت أسير هوائك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها معلقة بين السماء والأرض بشباب البيت، متسلقة سلما وتنظفين المروحة الكهربائية بخرقه.

- جئت لتشبك خط النت فأوقعتني في شباك هوائك.

- كان ذلك يوم سعدي.. أدخلني أخوك الصغير فجأة إلى وسط البيت فاصطدمت بالسلم.

- كدت توقعني يومها على الأرض.

- بل أنت من أوقعني في شراك حبك ولم أستطع الفكاك مطلقا، أحبتك حدّ العشق، حرام عليك أن تشكي بحبي لك، لقد طردت من بيتكم مرتين وما زلت عازما على تكرار المحاولة حتى أفوز بك، وبعد كل هذا تشكين بحبي!

نهض واقفا واتجه نحو حافة السفح.. شعرت بأنه غضب فضربت بكفيها على فخذيها بتوتر:

- ماذا أفعل؟ كل الذي يحدث يباعد بيننا، جميع تصرفاتك لا تعجب أبي، زدت الطين بلة بالتحاقل بصفوف المقاومة.

- هذا شأني وحدي، أبوك يريدني نسخة منه.

هبت واقفة واقتربت منه قائلة بحنق:

- لقد مللت كل هذا.. أنت ترى أفعاله قبيحة وهو يرى فعلك أقبح، وأنا تائهة بينكما، يبدو أنني سأقتل نفسي في آخر الأمر.

نظرت نحو الهاوية تحت السفح وأردفت:

- هل أقذف بنفسي في هذه الهاوية لترتاحوا؟

بلمح بصر دفعت بجسدها النحيل نحو الهاوية، تلقفها من فوره وجذبها للوراء بعنف وقوة.. صاح بها غاضبا:

- ماذا ستفعلين يا مجنونة؟! اهدئي.

قتل جسدها نحوه بخفة وحقق في عينيها لوهلة، صرفت وجهها عنه ونفضت كفيه عن كتفيها بحرد وتباعدت، لبست على عجالة حذاءها الذي خلعتة ورفعت حقيبة يدها عن الأرض تنفض عنها ما علق بها من تراب، أما هو فوقف يرقبها بصمت.. قالت قبل أن تمضي:

- أقسم بأن هذه المرة الأخيرة التي تراني فيها، سامية محقة في كل ما تقوله عنك.. متهور، مغامر ولا تعي معنى المسؤولية، أنا فقط الحمقاء بين الجميع،

أراك بعيون الحب الغبية، لكن يكفي ما أضعته من عمري معك، أما قلبي
الأحمق فسوف أنزعه وأرميه للكلاب.

كانت تقول ذلك وجميع جسدها يهتز، ونبرات صوتها تتهدج برعشة حنو
ثائر، بقي متخشبا في بقعته يستمع لها بهدوء ويجللها بنظرات خرساء بعينين
غائرتين مرسلا ابتسامة خبيثة من فم ضيق.

سارت نحو المنحدر الموصل للطريق المعبد، بعد بضع خطوات توقفت
والتفتت نحوه قائلة بنبرة دلال واستعطاف خفي:

- سأذهب.. لن تراني بعدها مطلقا.

عقد ساعديه على صدره ولم ينبس.. اتسعت تلك الابتسامة الخبيثة على
شفتيه حتى غدت ابتسامة فوز.

قالت بنبرة باكية:

- يا بارد.. قلت سأذهب، وأغيب عن ناظريك للأبد.

لمعت عيناه بألق محب لنفسها، تدفق حنان وانساب على سياه كانبلاج
فجر، تلاً لأوجهه ببريق أسر وركع على ركبتيه فاتحا دفتي ساعديه:

- تعالي يا حبيبتى وغيبى هنا، بين أحضانى للأبد.

انفجرت ضاحكة بطفولة وفرح، تقدمت نحوه متبخرة وقذفت الحقيبة
نحوه:

- ممثل بارع.. لا أدري كيف تجعلني أعود إليك وأسامحك بأسرع مما
ينبغي؟ هل أنت ساحر؟!

تلقف الحقيبة بمهارة ووضعها جانبا، وقف وهو يصفق بكفيه باستياء وخيبة أمل:

- ممثل، ساحر، مغامر ومستهتر.. هل هذا يوم الشتائم العالمي؟!
لكزته على كتفه:

- هيا.. انس الأمر ولا تبالغ.

- نسيت وعفوت، لكن بشرط.

- ماذا؟!

- ساعة نقضيها معا في الداخل.

- مستحيل.

- أخشى أن يرانا أحد هنا.. الجدران تستر.

- من سيرانا هنا؟ هذه الحسنة الوحيدة التي منحتنا إياها الحرب، هجرت كل سكان هذا المكان القريب من حجرة العسكر المهجورة هذه.

- منذ بدء الحرب والجميع يتوقع تعرضها للقصف، لذا غادر أهل هذا القصر المكان وتركوا أمر حراسته لابن عمي.

- أين يذهب نهاية كل أسبوع؟

- يسافر للقرية ليتفقد أهله ويترك لي الحراسة، يا لها من هبة فردوسية.

- صدقت.. صرنا نرى بعضنا في نهاية كل أسبوع.

تنهد ورماها بنظرات وقحة:

- متى تصبح الرؤية أوضح؟!

- ماذا تقصد؟ اطرده هذه الوسواس الشيطانية من رأسك وإلا لن أجيء ثانية.

حكّ رأسه وسكت.. جلس قبالتها يتأملها بشغف، كسرت عينيها هروبا من نظراته الجريئة.

- محمود.

- يا عيون محمود.

- هل قتلت أحدهم في هذه الحرب؟

- لا.. لم أقتل بعد، ما زلت أتدرب.

- هل ستقتل؟

- قد أفعل.. إنها الحرب.

- لا.. لا تفعل أرجوك، لا أتخيلك قاتلا.

- وأنا لم أتخيل نفسي في يوم ما قاتلا، عندما ذهبت لأنضم لصفوف المقاومة سألوني هل تملك سلاحًا؟ قلت لا، فقالوا اذهب وأحضر سلاحا لنقبل بك في صفوفنا.

- ألا يعطونكم سلاحا؟

- لا.. كل واحد يأتي بسلاحه، أخذت بندقية أبي القديمة وجئت بها إليهم، سألوني هل أجد استعماها؟ قلت لا.. صرخ بي أحدهم ألم تتجند؟! قلت له عندما بلغت سن التجنيد توقفت خدمة التجنيد في البلاد.

ضحك مني ذلك الرجل القصير الأصلع، والذي تقتصر مهمته على فحص المتطوعين وتوزيعهم على مواقع القتال، شعرت بالخرج ونظر إلى صديقي سليم الذي ذهب بي إليهم معاتبا.. ثم أمروا رجلاً آخر باصطحابي إلى معسكر تدريب المستجدين.

- كيف هي أشكالهم؟

_ماذا تظنين؟! هم بشر عاديون.. فيهم المعلم والموجه والمهندس والطبيب، وفيهم لصوص أوغاد، وفيهم مندسّون.

- توليفة غريبة!

- جدا.. الحرب تصهر بنيتها في بوتقة واحدة.

- بوتقة العنف والقتل ومصّ الدماء.

- لا نرى أنفسنا قتلة؛ بل أبطالاً.

- لماذا انضمت للمقاومة؟

- لأحمي هويتي وجمهوريتي، وأدافع عن مدينتي.

- تحميها من؟

- من الغزاة.

- عن أيّ غزو نتحدث؟ هم يتربعون على قمة السلطة منذ قرون.. ما الجديد الذي أثار حفيظتكم؟!

_الجديد هو المشروع الدخيل الذي تبنيه ليهدموا به عقيدتنا ويذهبوا بهويتنا، الجديد هو الحلم الذي أشعلنا ثورة فبراير من أجله، دولة النظام والقانون والعدالة وتقاسم الثروة والتداول السلمي للسلطة، الحلم الذي كدنا أن نحققه لولا هؤلاء الذين بُعثوا من الكهوف لسرقته من جديد.. لذلك نحن نقاوم.

- أبي يقول بأنكم متآمرون.

- ماذا؟ متآمرون! هل أصاب والدك الخرف؟

- لا تقل هذا عن أبي.. أبي مثقف أكثر مني ومنك.

- كيف يتهمنا بالتآمر؟

- لا أدري.. أسمعه يردد ذلك دوما، يقول بأنكم تحلمون بالسلطة منذ القدم ولذا سمّيت تعز بالحلمة.

- قولي له أن يراجع معلوماته.

- وأنت أيضا راجع معلوماتك، لأنه يتهم جيلنا بالجهل المركب.

- قولي لأبيك الفاضل بأن تعز هي عاصمة الدولة الرسولية إن كان يعرف شيئا عنها، لقد كانت اليمن شامة على جبين التاريخ قبل أن تتسلط عليها الإمامة وابنتها الغير شرعية "الجمهورية المزيفة" التي يتزلف أبوك في محراب تاريخها الأسود.

- لقد قضت ثورة سبتمبر على الإمامة وانتهى أمرها.

- هذا ما يظنه بسطاء الناس.. كل ما حدث هو أنهم ألبسوا الإمامة بزة الجمهورية.

- ماذا تقصد؟

- مالنا ولكل هذا يا سمر؟! لقد أوجعت لي رأسي، أصابني صدام من جدلك وإلحاحك.

- أنت عنيد.. لا تريد التراجع عن موقفك.

- وأنتِ قطة مشاكسة.. لكني أحبك، أنتِ وطني الثاني بعد وطني الكبير اليمن.

- وطنك لا يجب الحرب يا محمود.

- النساء لا تحب الحروب ولا تطيق العنف.

- وهل يجب الرجال الحرب والعنف؟!

- القضية عند الرجل لا علاقة لها بالحب أو الكره.. ثمة دوافع من نوع آخر تحركنا.

- السيطرة، التنافس، شهوة السلطة والمال.

- ولماذا لا يكون دافع القيم، أو دافع البقاء؟!

- هل يجب أن أفني الآخر لأبقى؟! الدنيا تتسع للجميع.

- كلامك ظاهره ساذج لكنه يحوي عمق المحنة، لو آمن كل الناس بمبدأ

الوفرة لما اشتعلت الحروب على هذه الأرض، و لو اقتنع أهل كهوف مرّان بكلامك لما قامت هذه الحرب.

- لا نريد حروبا على أرض وطننا.. ماذا جنينا من الحروب؟ لا شيء سوى الموت والخراب وتعاضم الأحقاد، خرجت منذ أيام مع ماريا للتسوق.. توقفت ماريا أمام عسكر الحوثة المرابطين على فوهة الحبي؛ لتسألهم عن معركة الليلة الماضية، رأيت معهم جنديا صغير السن فاقتربت منه وسألته:

- منذ متى وأنت هنا؟

أجابني:

- منذ بدء الحرب.

- ألا تشاق لأملك، لأبيك، لأهلك ولقريتك؟

تجاهلني.. فأردفت:

- لماذا لا تترك هذه الثكنة الكئيبة وترجع لهم؟

أشاح بوجهه عني وقال بصوت مبحوح:

- لماذا أرجع ولن؟ الحرب قتلت جميع أفراد أسرتي، هدمت بيتي وأحرقت مزرعتي.. لن أرجع أبدا، لقد فقدت كل شيء.

نظر إليها محمود باندهاش ثم انتفض غاضبا:

- هل جنت؟ لماذا تتحاورين مع عسكر الحوثة؟!

صاحت به:

- هل هذا ما أثار اهتمامك؟ ألم تحزن لأجل هذا الفتى المسكين؟ ألا تشعر بالذنب حيال ما أصابه؟

- الذي تسبب بهذه الحرب وأخرجهم للقتال وأرسلهم لإهلاكنا هو من يتحمل الوزر، سادتهم يمدعونهم.. حتى أنهم يعلقون في رقابهم عند بعثهم للقتال مفاتيح ويقولون لهم بأنها مفاتيح الجنة، بكى أسراهم أمام صديقي سليم بعد معركة تحرير عدن عندما انتزع رجال المقاومة تلك المفاتيح من أعناق قتلاهم وحين سألمهم رجال المقاومة لماذا تبكون؟! أجابوا لأنكم أخذتم منهم مفاتيح الجنة.. كيف سيدخلونها دون مفاتيح؟!

- لا أصدق.. هذه بالتأكيد طرفة.

- هي قصة تواترت عنهم في عدد من المواقع التي يسقطون فيها أسرى وقتلى.

- دعك من إشاعات الحرب.

صمت ولم ينبس ببنت شفة.. نفث الهواء وبدا منزعجا.

قالت له بدلال:

- ما بك؟ هل أكف عن الكلام؟ هل ضايقتك؟!

- لا.. بالعكس إن حديثك مسل للغاية.

ابتسمت وأردفت:

- حسنا، اسمع هذه القصة.. منذ يومين جاءت نازحة من حي "وادي القاضي" تريد أن تستأجر أحد بيوت ماريا، ألمحت لماريا بأنها عاجزة عن دفع إيجار، فامتنعت ماريا عن تأجير البيت لها وقالت معذرة أنا أقتات وأسرتي من الإيجار.. قبل أن تمضي المرأة سألتها ماريا لماذا تأخرتم في الفرار؟ مضت

سبعة أشهر على اندلاع المواجهات هناك؟! فأجابتها المرأة لقد خشينا أن تسرق بيوتنا، لكن بعدما سقطت قذيفة هاون على منزل عمي وقتلت جميع من فيه هربنا.

تنهد محمود:

- الوضع هناك شائك.. المقاومة تتمترس في جهة والحوثة في الجهة المقابلة لهم تماما، وقذائف الفتّين تحصد الناس، لكن الأهالي يتحملون بعض الوزر، لقد حذرناهم مرارا من مغبة البقاء هناك.

- وهل مجرد التحذير يريح ضباطكم؟! قساة.

نظر لها متعجبا وقال بتهكم:

- ما بكِ تلقين باللائمة عليّ وكأنني أنا الفاعل؟!!

- أنت معهم.

- وليكن.. لم يرد أحدنا حدوث مثل هذه الأخطاء، لكنها الحرب..

- وماذا عن الإحداثيات التي تعطى للتحالف؟!!

- ماذا عنها؟

- كنت سأموت بالأمس بسبب إحداها.

تحرك منزعجا وسألها مغتما:

- كيف؟ وأين؟

- بالأمس كنت في طريقي لحضور عزاء في حي صالة.. الحمد لله أن أمي أقسمت ألا أخرج إلا بعد أن أتم جميع أعمال البيت وحين تأخر الوقت لم أذهب.

- عزاء في حي صالة؟ من تعرفين في ذلك الحي؟

- في الحقيقة لا أعرف أحدا.. كنت سأرافق حفيدة الحاجة جوهرة لحضور عزاء لأحد جيرانهم القدامى.

- هل كانت جوهرة تسكن في حي صالة قبل انتقالها لحي الدار شمسي؟

- نعم.. المهم أن حفيدتها هي الأخرى لم تذهب، تعكّر مزاج عمها فمنعها من الخروج.. المهم أننا في اليوم التالي سمعنا بأن طيران التحالف قصف العمارة المقام فيها العزاء، كانت العمارة مكتظة بجموع المعزين، تخيل.

- يا للهول.

- ماتوا جميعا.. القصف حصد أفراد الأسرة الكبيرة، الجد والأعمام والأبناء والأحفاد وأناس كثر جاءوا يعزونهم في موت أحد كبار العائلة في حادث سير.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. كارثة.

- كارثة مفجعة.. لم يتبق من تلك العائلة سوى ابنة واحدة خرجت تطلب غرضا من جيرانهم، هي الآن في المستشفى تعاني من حالة انهيار فظيعة.

- تبا.. أخطاء موجعة.

- كلنا قلبه موجوع من هذه الحرب.. بعدها قرر نسوة الحي عدم حضور أيّ عزاء، وحتى الأعراس لن نذهب إليها.

- هل تستطيعين ذلك حقاً؟

- ماذا تقصد؟

- ستموتين كمدا إن دعيت لحفلة عرس وفاتكِ حضورها، أعرفكِ جيداً.

- كان هذا في الماضي.. أما بعد سماعي بأخطاء قصف خيمات الأعراس فلا.. سأعيش حتى أتزوجك وأرفل في ثوب العرس الأبيض وأنجب لك عشرة من الأبناء، وأعمّر حتى أصبح شيخاً هرمة مثل جدتي التي تجاوزت الثمانين.

- ليتني كنت متشبثاً بالحياة مثلكِ.

- يا ليت.. حينها لن تذهب للقتال.

ضحك عالياً.. تأمل وجهها المتورد الحلو الملامح وعيونها العسلية ذات البريق المشع، وأنفها الصغير وفمها المكتنز.. سألها ممازحاً:

- ترى لماذا خلقك الله جميلات وناقصات عقول؟!!

أجابت بحضور ذهن وحنق:

- جميلات لتحبونا وناقصات عقل لنحبكم.

عاود الضحك:

- يا لكِ من داهية.. من أين جئتِ بهذه الإجابة؟!!

- لن أخبرك أيها اللثيم.
قال ملاطفا:
- يا هرتي الجميلة.. هل غضبتِ؟
- لا.. ولماذا الغضب؟! سألتني فأجبتك.
- بل أفحمتني.. أحب ذهنك المتوقد هذا، في الحقيقة كل شيء فيكِ متوقد.. أكاد أحترق.
- محمود.. ابق مهذبا.
- سكتت لوهلة ثم قالت بتنهد:
- أحلم بأن يكون يوم عرسنا مهرجانا صاخبا.
- قبل أن يجيئها حامت الطائرة النفثة فوق المكان.. ارتعدت فرائصها وصرخت برعب:
- يا ويلي.. هل ستقصف المكان؟!
قال مطمئنا:
- لا.. اطمئني فلن يحدث شيء من هذا.
- لكن ماذا عن حجرة العسكر التي تتوسط تلك التلة؟!
- تلك الحجرة؟ لماذا يقصفونها؟! إنها مهجورة.. اهدئي وتنفسي بعمق.
- أخذت نفسا عميقا:
- أتدري؟
- ماذا؟

- صديقتي سماح تزوجت قبل أمس دون احتفال ، كانت تشاطرني الأمنية.. كانت تحلم بعرس خيالي، لكن سقطت قذيفة على منزل جارهم الذي أذن لهم بإحياء حفلة العرس في بهو منزله الواسع فقتلته وجرحت بقية أهله، فما كان من صديقتي إلا أن ألغت حفلة العرس وذهبت لبيت زوجها بهدوء تام.

- فلتحمد الله أن القذيفة تجاوزت بيتهم.

- يا لك من غليظ قاس.. الناس يُقتلون، وكل شيء جميل يتلاشى بسبب هذه الحرب اللعينة وأنت تكتفي بإطلاق هذه التعليقات السمجة.

- حسنا، أعذر.. ماذا يجب أن أقول؟

- على الأقل احزن وتألم.. شاركني توجعي.

- توجعت وحزنت وتألمت.. هل رضيت الآن؟

- بعض الرضا.

سكتت لوهلة:

- مساكين! ماريا ومروة..

- ماذا عنهن؟

- انقطعت أرزاقهن لأن العرائس لم يعدن يتجملن، يمضين إلى أزواجهن

بهيئة رثة.. أنا لن أزف إليك إلا بعد أن تنتهي هذه الحرب.

تأملها بشفقة:

- تتكلمين وكأن والدك قد قبل بزواجنا، ليته يقبل وسوف أرفك على ظهر دبابة.

قال ذلك وضحك.. لكزته على كتفه وقالت مستنكرة:

- ماذا؟ على ظهر دبابة؟!

سكتت متفكرة، ثم أشرق وجهها وهتفت:

- سيكون ذلك مثيرا.. موافقة.

هز رأسه وتمتم:

- مجنونة.. لا أدري لماذا أحبتك؟

قالت بمرح:

- بل تعرف جيدا.. لقد أحبت جنوني ولو كنت بخلاف ذلك لما وقعت في غرامي؛ لأنك أشد جنونا مني.

ضحكا سوية، ثم هب واقفا:

- سأدخل وأعدّ لنا إبريقا من الشاي.

- ممتاز، وأنا أحضرت معي الكعك الذي تحبه.

دست يدها في حقيبتها وأخرجته:

- لقد تفتت.. لا يهم سنأكله.

مديده وتطاول بها حتى لامس كفها.. صاحت به:

- محمود تعقل.

نكس رأسه للأرض وحك أذنيه وتحرك للوراء ببطء.. في تلك اللحظة حدث ما لم يكن في الحسبان، طلعت الطائرة النفاثة من وراء التلال كشيطانة تعزف بوق الموت، أرسلت صاروخا على حجرة العسكر فتناثرت الشظايا حولها، تصاعدت الأتربة وغطت الفضاء.. سدت سمر أذنيها بأطراف أصابعها وتهاوت على ركبتيها، ارتعش جسدها بشدة ثم صرخت بهستيريا ودون انقطاع، بعد برهة توقف القصف ولم تتوقف هي عن الصراخ.

لم يدر ما أصابها؟! وضع كفه على فمها لإسكاتها، وجذبها نحو الداخل.



محاكمة

التحية والتبجيل للتبع العظيم.. تاج الملوك، سليل الأجداد ومُذل
الأحباش الأوغاد، صاحب السطوة، عظيم الخطوة، وحيد عصره وفريد
دهره، ملك ملوك العرب.

استمعت إلى عبارات الترحيب بالملك وأنا واقفة في الخلف مندسة بين
الجموع، اشتعلت فضولا.. تسامقت فوق الأكتاف.. مططت عنقي بشدة
لأراه حتى شعرت باحتمال تمزق بعضا من أوداجي، لم أتمكن من رؤيته
فلكزت أحدهم في مؤخرته ليفسح لي المجال، تحرك فانسللت بخفة من
وراءه، أحس بي ونظر خلفه فلم ير شيئا، صفق كفيه متعجبا.

تقدمت للأمام بسرعة ووقفت أمام الجميع، بدوت كقزمة بينهم، لا
يهم.. المهم هو أنه لا يمكنهم رؤيتي بفضل طاقة الإخفاء التي أضعتها على
رأسي، استعرتها من بعض جان سليمان، على استعماها ليوم واحد فقط..
أعطاني إياها قائلا إذا لم تعيدها لي قبل بزوغ شمس الغد؛ فسينكشف الستر
عنك ويفتضح أمرك.. وقد أعطيته مقابل ذلك سوارا ذهبيا أهدها لي زوجي
في ليلة عقد قراننا.

يبدو أن مراسم الحفل ستطول حتى طلوع الفجر.

يجب علي الاختلاء بالملك قبل انقضاء ساعات الليل.. ماذا أفعل لأجعله
ينصرف لمخدعه؟!

تلفت يميناً وشمالاً.. لمعت في ذهني فكرة وأنا أرى المشاعل المعلقة على أعمدة القصر تندلع منها ألسنة اللهب، ولحت الستائر الحريرية المتدلّية حول كرسي العرش المطعم بالأحجار الكريمة والذي يتوسط مقدمة البهو الكبير في ذلك القصر الشاهق البنيان.

اكتملت الفكرة في ذهني؛ لكن كيف أجعل النيران تصل لتلك الستائر؟!

لقد اكتشفت بأنني أقصر مما كنت أظن طوال حياتي، لا يمكنني الوصول ولا حتى لأقل من منتصف علو تلك الأعمدة؟!

تذكرت شيئاً.. علبة الكبريت التي في جيبتي والتي أحتفظ بها طوال الليل لأوقد الشموع عند كل استيقاظ.

تسللتُ بين حراس الملك الشخصيين الذين يقفون كخشب مسندة عن يمين وشمال كرسي العرش، أشعلت عود ثقاب في طرف إحدى الستائر وما هي إلا لحظات حتى انتشر فيها اللهب ملتهماً معظمها، ارتج المكان بهمهمة وارتباك شديد، الرجال متحيرّون والنساء مذعورات، تحرك الملك كنمر غاضب وزأر نافثاً أنفاسه حنقاً فجثوا جميعهم على الأرض.. امتشق الملك سيفه متوثباً لصرع الفاعل، لوح به يميناً وشمالاً وقد تفجر جبروت غضبه. تحرك الحراس واحتوا النار وأخذوها بسرعة.

تهامس الحضور بوجل:

- من الذي تجرأ وأقدم على هذه الفعلة الشنيعة؟!

صاح بهم الملك:

- يوجد خائن بينكم.. يا كبير الحرس أخرج لي الخائن من بين الحضور.

أقبل كبير الحرس مطأطئ الرأس وعيونه تومض ببريق مبهم:

- على الفور يا سيدي.

قفز الملك مغادرا كرسي العرش، سار بخطوات رشيقة بين الجباه المنحنية، مضى مكدر الخاطر نحو مخدعه.

لقد فزت بما أريد، تبعته ركضا ودلفت لحجرته الملكية قبل أن يوصد حراس مخدعه بابها، كاد كتفي أن ينخلع بين دفتي باب حجرة الملك المصنوع من خشب فاخر.

تمدد الملك بجسده الضخم على سريره الملكي برهة ثم هب جالسا متوقعا سرا وشيكا.. تلمظ وتلوى ثم وقف وزار:

- أشم رائحة مؤامرة، الأوغاد.. أخرجتهم من ظلمات سجون فارس وننتها وبرودتها، جعلتهم أمراء حرب وفرسان ميدان وبطانة ملك، وها هم اليوم يحاولون الخلاص مني، ماذا أفعل لأحمي نفسي وملكي من شرورهم؟!

علا صوتي بقهقهة شماتة.. ارتجف عند سماع صوتي وارتاع لوهلة ثم امتشق سيفه وأهوى به ممزقا ستائر الحجرة.. وقف متحيرا لبرهة ثم أخفض رأسه ونظر تحت السرير بحثا عني، أخذه العجب وقال بصوت مرتعش:

- من أين ينبعث هذا الصوت؟! رفع صوته:

- من أنت؟ إنسية أم جنية؟!
- بل إنسية أيها الملك الضال.
- كيف تجرئين على تسميتي بالملك الضال؟ لماذا تختبئي؟! هيا اظهري لأراك.
- ليس قبل أن تمنحني الأمان.
- قد منحتك الأمان فابري.
- وقفت بعيدا ونزعت طاقة الإخفاء عن رأسي.. فرع عندما رأني قصيرة جدا قياسا بطوله، أخذ يتلو تهمات لم أفهم منها شيئا:
- كيف اقتحمت مخدعي أيتها الجنية المتقزمة؟!
- لا تسألني كيف جئت ولا من أين.. أنا امرأة اقتحمت حُجُب التاريخ لأراك.. أما عن تقزمي فأنا لا أبدو قزمة هكذا في يمن القرن الواحد والعشرين.
- عن أيِّ عالم تتحدثين؟ وأيِّ قرن هذا الذي بُعثت منه؟ وأيِّ يمن تعينين؟!
- يمنك.. وطنك الذي أضعته أيها الملك الضال.
- تنمر وتلمظ:
- يا لوقاحتك أيتها الشيطانة.
- انقض بجسده نحوي تسبقه ضربة مميتة من سيفه، أعدت الطاقة على رأسي وجثوث متحاشية تلك الضربة، حبوت مبتعدة بهدوء وصحت به:
- ألم تمنحني الأمان؟ أي نوع من الملوك أنت؟!

زأر مغضبا:

- أنا سليل الرجال العظام، ملك ملوك العرب.
- إن كنت كما تقول فلماذا أضعت مُلك أجدادك؟!
- لم أُضِعه؛ بل استرجعته.
- تلك خدعة كبرى تُسكت بها ضمير التاريخ وضميرك، هذا إن كان لك ضمير.
- هل تدركين مدى سخف ما تهرفين به أيتها الجنية الملعونة؟!
- قلت لك لست جنية؛ بل إنسية ومواطنة يمنية، تجشّمت مخاطر تشيب لها الرؤوس لتراك.
- أقحمتِ نفسك في هذه المغامرة الرهيبة كما تصفين فقط لتريني! لماذا؟ هل أنتِ عاشقة؟!
- أجل أيها الملك.. عاشقة لوطني اليمن.
- وأنا أيضا عاشق لهذا الوطن.
- لا أظن.
- وقحة.. سأجديك.
- هاج وماج في المكان ملوّحا بسيفه ضاربا به في الهواء يروم قتلي.
- على مهلك أيها الملك وتذكر بأنك منحتني الأمان، دعني أقول لك كل ما يعتمل في نفسي حيالك.

- وما الذي تحملينه بنفسك علي؟! بدوت لي غريبة لست فردا من رعايا مملكتي.

- أنا امرأة يمنية، فرد من شعب يُظلم ويُقهر ويُقتل عبر التاريخ منذ أن صرت ملكا لليمن.

- كيف هذا؟ شعبي يعيش اليوم في ظل حكمي في أمن وبجوحة عيش ورخاء.

- هذا لم يدم طويلا.. وقد جئت لأهلك المسؤولية، وأحاكمك على جرم فاحش اقترفته في حق وطني.

- أنت لست أكثر من امرأة خرقاء، عن أي جرم تتحدثين؟! أنا من استعاد ملك بلدي وحرره من بين يدي الأحباش الأوباش.

- وتركته لقمة سائغة لهؤلاء المجرمين من أبناء فارس.

- إلى ماذا تلمحين؟! أفصحني يا امرأة.

- سيقنتك أعوانك المستجلبين من بلاد فارس ويستأثرون بالملك، هكذا يقول التاريخ.

- تاريخ خرف، لا يمكنهم ذلك.. سوف أتغدى بهم قبل أن يتعشوا بي.

- لن يمهلك، سيفتكوك بك بأسرع مما تظن، سوف يحدث هذا قبل بزوغ شمس الغد، لذا أنا هنا.

- لتحذريني؟! -

- لا فائدة من ذلك؛ لأنه أمر قد قضي، بل لأحاكمك.
- عدت لحديث المحاكمة.. ماذا اقترفت من جرم بنظرك؟!
- ورثت لنا عقدة الاستقواء بالآخر، جلبت الوبال والخراب لليمن السعيد، رهنتنا للآخر، جردتنا من الاستقلالية.. وثمة لعنة أخرى هي أشد وأمر ورثتها لنا.
- ما هي؟!
- سيقتلنا هذا الآخر الذي جلبناه، كما قتلك أوباش فارس الذين جلبتهم لتستأثر بملك لست أهلاً له.
- لم ولن يقتلوني.
- بل سيفعلون.
- لن يحدث هذا؛ بل أنا من سيقتلك الآن أيتها الجنية؟!
- ما زلت تكابر أيها الخائن لوطنك، لا تحاول قتلي فلا يمكنك ذلك، لأنني لست من أبناء زمانك، ولا يشرفني أن أكون من رعاياك، لكن من جاءوا بعدك في عصرنا الحديث قد بدءوا بالفعل في قتلنا، قد تأتيت الأخبار في عالم البرزخ عن خراب اليمن السعيد، ودمار صنعاء.
- ومن ذا يجرؤ على تدمير عاصمة مملكتي؟!
- إنها اللعنة التي ورثتها لشعبك، الطعنة الغادرة التي تنسلُّ سُمًّا بين ثنايا التاريخ لتقتلنا من جديد، فريقان يقتتلان من أبناء اليمن، كلهم يسري في

عروقه عقدتك اليزنية، وكلهم مستقو بالخارج، بعد موتك بقرون تلحقنا مصائب جرمك، دمروا الآثار.. دُمرت قلعة القاهرة في تعز وقُصفت مدينة براقش.. سحقوا مئات الأبرياء في شمال الوطن وتركوا شياطينهم، قتل أحفاد اللعنة اليزنية عشرات الناس الأبرياء في عدن وفي تعز وتهامة برصاص أعمى، وحقد قديم.. دمروا أماكن العبادة وأحرقوا الكتب.. مات آلاف الأبرياء في هذه الحرب الطاحنة التي سببتها العقدة اليزنية.

- عن أية لعنة وأية عقدة تتحدثين أيتها الجنية الملعونة؟! وما هذه الطيور المدمرة؟! هل هي الطير الأبايل التي قتلت أبرهة وجنده؟!

- كلا.. بل هي طيور معدنية لا تحسّ ولا تفرق بين بشر وجماد.

- أتهزئين بي وأنا الملك العظيم سيف بن ذي يزن؟ هل خلق الله من بعدي طيوراً من حديد؟!

- كلا؛ بل هي من صنعة أبالسة بني البشر.

- لقد نفذ صبري ولم أعد أحتمل سماع المزيد من هذه الأساطير، إن لم تغادري حجرتي فوراً؛ فسوف أمزقك بسيفي هذا إرباً.

عاود هياجه من جديد في تلك اللحظة وهو منهمك في تمزيق الهواء بحثاً عني، سمعنا صوت صليل سيوف واقتتال خارج الحجرة، رفعت طاقة الإخفاء عن رأسي للمرة الأخيرة قبل أن أهرب وصحت به:

- ها هم ذا قد جاءوا ليقتلوك.. ستنال العقوبة التي تستحقها على جريمة استجلاب الغرباء ليصبحوا ملوكاً على أبناء وطنك.

أرجعت الطاقة على رأسي وغادرت المكان من فوري بمجرد انفتاح بوابة حجرته الملكية كيلا أشهد مصرع ذلك الملك الضال، طفت في دوامات من التيه عبر دوائر الزمن حتى عدت لمملكة سليمان.

كان يوما رائعا.. جاءت الملكة بلقيس لزيارة سليمان - عليه السلام - وها هما الآن يجلسان على صرح ممرّد من قوارير يتناولان الطعام.. حاولت الاقتراب منهما؛ باغتني الجني الذي أعارني الطاقة وانتزعها من على رأسي.

صحت به:

- لم تطلع شمس الغد بعد.

أجاب:

- كدت أهلك بسببك.. سأل عنها حاجب سيدي سليمان ليرىها للملكة بلقيس في حفل الاستقبال، سيوقع بي عقاب الهدهد.

- لا تخف، سأستعطفه وأطلب لك العفو.. دعها معي بعض الوقت، أريد سماع حديث الملكة بلقيس مع سيدنا سليمان، أريد الجلوس معها ولو لبرهة.

- هل تتحامقين؟! أظنن أن بوسعك خداع سيدي سليمان؟! إنه نبي يوحى إليه وسيكتشف أمرك فوراً.

- يا الله.. كم هي جميلة الملكة بلقيس، وكم هي حكيمة.. عاشت اليمن في عهدها عصر ازدهار وعزة.. شتان ما بينها وبين الملك الضال.

صاح بي ذاك الجنى:

- هيا عودي لزمك قبل أن أغلق دونك بوابة التاريخ وأحبسك هنا للأبد.

بقيت متمسرة بمكاني أتأمل وجه الملكة لبرهة، انطلق ذلك الجنى النكد نحو البوابة ليغلقها، بدأ ثقب الزمن يتلاشى.. تنبّهت وركضت نحوه بسرعة ورميت بجسدي داخله قبل أن يختفي.

وقعت من على السرير وصرخت:

- ظهري.

هّب أمير من نومه فزعا، تحسّس المكان بحثا عن شمعة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

في هذه اللحظة غرزت شمس كفها في خاصرتها متوجعة من ألم ظهرها، تقلّبت ببقعتها وشعور بالغياب يكتسحها.. أصابها فقد ذاكرة مؤقت، أوقد أمير الشمعة ومدّ يده وأسندها، أعادها للسرير.. تلفّت حوله وتناول كوبا فارغا وهرع للمطبخ وجاءها بكأس من الماء:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. اشربي يا حبيتي.

فركت عينيها:

- أين أنا؟!

نضح وجهها بقليل من الماء قائلا:

- أنت هنا حبيتي.. في سرير نومنا، ماذا حدث لك؟!

تذمرت قاتلة:

- هل كان كل ذلك مجرد حلم؟! قبحه الله.

- من؟!

- جني سليمان.

_أعوذ بالله.. شمس أفيقي.. هل رأيت كابوساً؟!

وكانها لم تسمع سؤاله:

- منعني ذلك المزعج من الجلوس مع الملكة بلقيس، سأنام.. سأكمل الحلم.. دسّت رأسها تحت الوسادة بإلحاح.

تخيّر أمير:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما الذي يحدث لك يا حبيبتى؟! ألم تنته من قصص الكوابيس هذه؟!

- اطمئن يا روعي.. منذ تركنا بيت الإيجار وأنا لا أرى كوابيس، هذا ليس كابوساً؛ بل حلماً رائعاً.. لا يهم إن لم أكلم الملكة، لقد قلت كل ما في نفسي للملك الضال.

عاودت شمس دس وجهها تحت المخدة؛ لعلها تدرك بقية الحلم.

غطى أمير جسدها باللحاف:

- نامي يا حبيبتى، وغدا تخبريني بتفاصيل حلمك الخرافي هذا.

خريف فراشة

جلس كل من ماهر وأمير وحازم وأبو صفوان وعبد الرحمن إمام الجامع حول سرير مهيب الذي يلف رجله اليمين بالجبس منذ دخول الحوثة إلى تعز، رحبت بهم أم مهيب من خارج المجلس، دخل حفيدها بصينية عليها أكواب قهوة أدارها على الجلوس.

قالت متذمرة:

- لا أدري أي نوع من الأطباء هذا الذي يعالج رجل ابني؟! كيف يضع له جبسا جعلها تنجبر متقوسة؟

وضّح مهيب الأمر:

- بل قال الطبيب أنها ستصبح أقصر مما كانت عليه قبل الحادث.

سألت الأم بتوجع:

- يعني سيغدو ولدي أعرجا، لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف سيقود الحافلة التي نعيش منها؟!

تداخلت كلمات مواساة نطق بها جميعهم لتخفيف وجعها وحزنها على ابنها:

- لا بأس عليه يا خالة، اصبري.. هذا قدر.

- إن شاء الله يخيب ظن الطبيب، وتنجح العملية الأخيرة وتعود رجل مهيب كما كانت.

- المهم أنه سلم ونجا من موت محقق في تلك الحادثة، مصيبة أهون من مصيبة.

سكت جميعهم.. مضت وهي تتذمر بصوت مسموع:

- قلت له مالك وللسياسة يا ولدي، انتبه لبيتك وأولادك، لكنه لم يستمع لنصحي، الله يهديه ويشفيه وينتقم ممن طرحوه قعيدا وأوجعوا قلبي عليه، قطعوا سبيل رزقنا، حسبنا الله ونعم الوكيل.

من سوء حظ مهيبوب أنه كان متواجدا في مقر حزبه، يوم تعرضه لقصف مدفعي من ميليشيا الحوثة، قتل عدد كبير ممن كانوا هناك، نجا مهيبوب من الموت؛ غير أنه خرج برجل ممزعة اللحم ومهشمة عظامها، فقد صديقه إحدى عينيه وتهشم وجهه وصار مشوها، وآخرون خرجوا بجروح شتى.

تحدث ابن عمه قاسم الذي حضر للتو:

- الحمد لله، استطعنا إدراج اسم مهيبوب في كشف جرحى الثورة، سيسافر إلى تركيا قريبا.

سأل ماهر:

- أي ثورة تعني؟! ثورة فبراير؟!

- نعم.. ما زال كثير من جرحاها معتلين بجراحهم، ينتظرون دورهم للسفر والعلاج خارج البلاد.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. قالها الإمام بانزعاج وأردف:
- متى يتعاملون مع شعب هذه البلاد بإنسانية؟ يا ناس نحن بشر مثل كل نسل آدم.. متى سيرون هذه الحقيقة؟!
- بدا منفعلًا كعادته.
- قال ماهر ببرودة مستفزة:
- عندما نؤمن نحن بذلك، الناس تراك كما ترى نفسك، لو أنا قدرنا ذواتنا واحترمنا إنسانيتنا لما بقينا صامتين لأكثر من ثلث قرن من الزمن.
- من الذي صمت؟! قال أمير باعتراض وهو يتابع حديثه:
- كانت هناك ثورات عدة، أعدموا قادتها بتلفيق تهم كاذبة لهم، وأخفوا البعض بأساليب خبيثة، وكان ثمة معارضات مؤودة ومؤامرات واغتيالات للشرفاء ستكشف خفاياها للناس عما قريب.
- عن أيّ وهم وسراب خادع تتحدث؟ أيّ ثورات هذه؟ ثوراتكم مثل بقرة عقور شربت لبنها وانشت على بنيتها فقتلتهم، يا أخي توقفوا عن تخدير الناس، كفانا ما صرنا إليه من بؤس وشقاء وذلة.
- قال ماهر ذلك، ثم لوى عنقه بامتعاض.
- هَبَّ الإمام غاضبا وأجابه بانفعال:
- وما سبب ذلتنا؟! أنتم السبب، أنتم الطابور الخامس.
- أنا طابور خامس؟

انتفض ماهر مستنكرا.. ثم أردف:

- هذه هي علتكم المستعصية على الشفاء، تهافت على تصنيف الناس ورميهم بالتهم الباطلة، عن أيّ طابور خامس تتحدث يا إمام؟!

- العلمانيون، والباطنيون، والملحدون، وكل من سار على نهجهم.

التفت ماهر صوب حازم الذي كان منهما بتصفح جواله:

- ركز معنا يا أخ حازم، اسمع ماذا يقول شيخنا.. بالله عليك أنا طابور خامس؟ ويضعني في سلة واحدة مع العلمانيين والباطنيين والملحدين.

تنحنح حازم وأغلق جواله:

- لا يا إمام.. الواقع أني جديد على الحي، وليس لي معرفة عميقة بمعظم ساكنيه، أمير صديقي من قديم فحسب، لكن الحق يقال لقد ظلمت الرجل.. هو من مأموميك الذين ينذر تغيبهم عن صلاة الجماعة، الرجل مؤمن بشهادة رسولنا الكريم ﷺ والذي قال: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان".

قال ماهر بارتياح مسندا ظهره لمتكئته:

- الحمد لله.. فتح الله عليك يا شيخ حازم، الصدق أنك شيخهم وإن كنت دون حية وعمامة.

اهتز بدن إمام الجامع وقام نائرا:

- أعوذ بالله.. ويل لكل همزة لمزة، أنا مخطئ لأنني أجالس وأجادل أمثالك.

همّ بالانصراف فتدخل مهيبوب بصوت ضعيف ليهدهه:

- يا جماعة اتركوا الإمام في حاله.. لا تغضبوه في مجلسي، اجلس يا إمام أنت شيخنا وأستاذ الجميع.

همّ أن يقف له ليجلسه فتراجع ممانعا قيامه لأجله:

- حسنا.. سأجلس إكراما لك؛ لكن كُفّ لسان هذا المتشيطان عني.
اعترض ماهر:

- أسمعتم؟ علماني وطابور خامس وشيطان.. أمري إلى الله اهتمونا بالشيطنة حتى كدنا أن نتشيطان فعلا.

عقب الإمام:

_أعوذ بالله من الشيطان وحزبه، يا أخي سنصبر وسيكون بعد عسر يسرا.

ضحك ماهر وقال بسخرية:

- حوّلتم النص أفيونا لتخدير الشعوب وتغييبهم عن الشهود الحضاري.

غضب الإمام واحمر وجهه وصاح:

- هل تسمعون ما يقول؟

قال ماهر:

- اهدأ يا شيخنا.. من أين سيأتي اليسر ونحن جاهلون؟! اقرءوا النصوص بفهم صحيح وافتحوا عقولكم قليلا، اللعبة ذاتها تتكرر في وطننا بألبسة مختلفة، الثعابين تغير جلدها في كل مرة فحسب، اسأل أمير

كيف بدأت ثورة فبراير؟ هو كان ضمن النفر القليلين الذين أشعلوها في تعز، تكلم يا أمير.. أخبرهم كيف ركبت الوجوه القديمة الثورة، وفي لحظة غادرة طعنوها في الخاصرة وحرفوا مسارها ثم خلعوا جلود الثوار ولبسوا جلودا جديدة وذهبوا لـ"الموفنيك" ليؤدوا عروضاً أخرى، وعندما رأوا أن القلة الصديقة الموجودة بينهم كادت أن تفسد المسرحية وتحول العرض الهزلي لقارب نجاة حقيقي سيُخرج البلاد لبر الأمان أشعلوا ثورة مضادة، وبعد كل هذا سترونهم يلبسون بذلات الدولة الجديدة، لأنهم جميعاً يتزلفون لبلاط واحد.

فرّ الإمام وقال بانزعاج:

- بالله عليك كف عنا فلسفتك المشوشة.

- أنت لا تقبل مني شيئاً، ولم أطمع في يوم أن تفهم ما أقول؛ لكن أمير فاهم، وحازم كذلك، ثورة الشباب أرعبتهم؛ فأحدثوا هذه الفوضى من حولنا ليرجعونا للوراء، ليشغلونا بأنفسنا ويكسروا فينا الإرادة، لكن هيهات.. يظن المتآمرون معها بأنهم قد هشموا عظامنا بهذه الفوضى، لن ننكسر.. نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد، أقسم بأننا سنثور من جديد ونقلب خشبة المسرح عليهم ونفضحهم، ونخرج من جعبتهم كل الثعابين بجلودها المتلونة؛ ليراها كل الناس.

قال أمير:

- اتركني في حالي، أنا مسافر.. اكتفيت ومللت، سأسعى على صلاح شأني، وللوطن رب يحميه.

رد ماهر:

- إلى أين ستسافر؟ ومن سيقبل بك بعدما صيروك بنظر العالم إرهابيا داعشيا أو إرهابيا حوثيا، ثم هل نسيت بأننا محاصرون؟ ليس أمامك سوى أن تركب البحر إلى جيبوتي.

سكتوا جميعا لوهلة.. قطع ماهر صمتهم بنبرة ساخرة:

- اسكتوا.. لكن إلى متى؟ أنت يا أمير بمجرد أن تسد حاجاتك الأساسية ستنبعث في قلبك أشواق الحرية من جديد، أنت يا مهيبوب بمجرد أن يلتئم عظم فخذك سترجع أشواق البطولة تغازل وجدانك، وحازم كما يبدو لي متأنيا في اتخاذ قراراته لكنه سيتحرك.

قال الإمام متهكما:

- وماذا عنك؟

- أنا مهما ابتعدت أعود أكثر شوقا لبلادي.

قال أبو صفوان الذي كان فاعرا فاه طوال الوقت:

- يا أخي ماهر، يبدو لي بأنك تقول كلاما هاما؛ لكن والله ما فهمت من كلامك أي شيء.

- إن لم تفهم كلامي فافهم كلام السلاح، انظر إلى ماذا وصلنا؟ البلاد تدمر وتسحق في عرض درامي خبيث، وبعدها ماذا سيكون؟ سوف يأتي ما كان.

لف الوجوم الجميع.. انبرى الإمام قائلا:

- بل سينتصر المجاهدون وسنقيم دولة الحرية والعدالة، وسوف تخيب كل تخرصات المخذّلين.

تنهد ماهر وقد فهم أنه يلزمه بعبارة تلك:

- من هم المخذّلون؟ هل تعلمون أين تكمن مصيبة هذه البلاد؟ هي ليست في العوام البسطاء، بل في جهالة العقلاء.

قال ماهر تلك العبارة وهب من فوره مغادراً المجلس قبل أن ينفجر في وجهه الإمام الذي امتقع لونه وهم بنثر جعبته الملتهبة على مسامعه.

تبعه حازم ملقياً بتحية توديع مقتضبة، وقفا قليلا وسارا سوية يتهامسان، وعند منعطف الطريق دس حازم في جيب ماهر ظرفا سمينا.. ثم افترقا.

وفي مجلس مهيب.. قال أمير:

- الحقيقة يا إمام مع احترامي الشديد لك، أنت عصبي وتُسْتَفْز بسهولة ثم ترمي بالتهم جزافا.. هداك الله.

شعر الإمام ببعض الحرج.. تنفس بعمق واسترد بعضا من هدوءه:

- صدقت.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، سأعتذر له غدا، أنا متوتر جدا مما نعانیه من وضع كارثي في تعز، بالأمس جاء كبير الحوثة في منطقتنا وطلب مني الخطبة لهم وسب ولعن الصحابة، رفضت فهددني بالحبس.. كيف لا تريدني أن أكون متوترا؟! ثم لا تنس بأن حزب ماهر مؤيد لهؤلاء البدائيين المنبعثين من بين دفتي تاريخ قرمطي أسود.

اعترض أمير:

- ماهر وطني حقا، هو مستقل وكلنا يعرف ذلك، أبوه كان متحزبا فحسب، ولا تزر وزارة وزر أخرى.

سأل أبو صفوان وكان محبا للمزاح:

- أيّ تاريخ قرمطي تعني يا شيخ؟! أنا لا علم لي سوى بالتاريخ الميلادي والهجري.

ضحك جميعهم من سؤاله، وهم الإمام بشرح معنى الكلام له؛ لكنه قاطعه قائلا:

- ألم أخبركم؟ بالأمس كاد ولدي صفوان وأخي نعمان أن يقعوا في مصيبة كبرى لولا لطف الله.

طفق أبو صفوان يقص عليهم كيف سلما من بين يدي الحوثة في منطقة "ماوية" بأعجوبة.

بعدها تنذر جميعهم تعقيا على الحادثة وضحكوا طويلا، شاع في المجلس جو لطيف وسرى طيف مرح.

أسندت أم مهيب ظهرها للجدار في حجرة نومها القريبة، وأشرق ثغرها بابتسامة رضا ملاً وجدانها برداً وسلاماً، لقد أسعدها التفاف أصدقاء مهيب حوله، هم لا ينقطعون عن زيارته والترريح عنه منذ إصابته، يمدون له يد العون لإتمام علاجه، يمنحونها أملاً بأن مهيب سيرجع كما كان؛ ضوء النهار ونور الليل لها ولزوجته وبنيه.

عندما تزوجت أم مهيبوب بأبيه المعاق كانت امرأة باهرة الجمال، عجب الناس من فعلها؛ لكنه كان لها نعم الزوج والحبيب، وجاء مولد مهيبوب وأخوته ليحيل عيشها معه فردوس نعيم لا يضاهى.

كان يكبرها بعقد من الزمن، دب الوهن في جسده مبكرا بسبب إعاقته، كبر سنه وتسارع عجزه جعلاه محزونا منطويا كثيبا، كبر مهيبوب سريعا وورث قامتها الطويلة وجماها الباهر، غدا سندها في الحياة بعد انسحاب أبيه المؤلم، روح مهيبوب الطيبة المرححة تنسيها فقد الزوج الحاضر الغائب، الحي الميت.

يوم جاءوا بمهيبوب محاطة ساقه بالجبس، شعرت بأن جزءا من روحها سجت في ذلك الجبس المقيت.

أجريت له عدة عمليات لجبر تهشم عظم فخذه؛ باءت جميعها بالفشل، وجع يفتّ كبدها مع كل صرخة ألم تصدر منه ومع كل نتيجة مخيبة للأمال يقولها طبيبه، اليوم أشرقت نفسها بسطوع بارقة أمل جديد، سيسافر للعلاج في تركيا مع دفعة من جرحى الحرب، هذا ما قيل لها.



الفراشة الجدة

تطوف به كملاك حارس كلما زارها، تشرق قسما ت وجهها بحب يملأ
قلبه طمأنينة، عندما يجلس بين يديها ينسى أن الحرب تطحن مدينته وتغرق
بلون الدم أجزاء شاسعة من أرض وطنه تهمس له بحب:

- أنت ولد طيب يا صفوان، تبرني وتصلني دوما، كان أبوك عبدالله
مثلك عندما كان بسنك، لكن قسّته عليّ الأيام.
وقتها فقط يتذكر صفوان الحرب فيجيبها قائلا:

- لا يا جدة.. لم يقسّ عليك مطلقا، إنها الحرب يا جدتي، منطقة "ماوية"
تحت قبضة الحوثة، وأبي عاش طفولته في السعودية، ماذا لو سمعوه يتكلم
بلكنة خليجية؟ سوف يقتادونه لسجنهم الكبير في مدائن الصالح، أو قد
يقتلونه من فورهم، ثم هو من يحثني على إدامة زيارتك، والبركة في عمي
نعمان هو معك دوما.

أيده عمه نعمان قائلا:

- صدق صفوان يا أماء.. الحرب قاسية وعمياء.

- أنا أدعو الله في كل صلاة أن يحفظكم لي، أنت وأخوك عبد الله نور
عيوني، مات أبوكم في سن مبكرة، ولم يعد لي في الحياة سواكما وأحفادي
منكما، الله سيلطف بكم وباليمن.

- هيا يا أماء اخلدي للنوم فقد تأخر الوقت، الساعة الآن العاشرة.

تحركت بثقل ومضت نحو حجرها قائلة:

- تأخر الوقت أم لم يتأخر ما الفرق؟ كل يوم يشبه ما قبله، الحرب أوقفت الحياة، حقولنا مهددة بالهلاك بسبب الحرب، البنزين معدوم والمزارعون يغادرون ماوية كل يوم بعد نشر إشاعات بأن الطيران سيقصفنا، الله يقصف عمر الحوثة.

سكتا.. التزما الهدوء حتى ظنا بأنها غرقت في النوم.

قال العم:

- هيا معي يا صفوان.. سنذهب إلى منزلي لجلب المزيد من البطانيات، البرد بدأ يشتد.

سمعت حديثهما.. قالت وهي تغوص في السرير:

- كونا على حذر من الحوثة.. حفظكم الله.

همس صفوان:

- هل نخرج الآن؟ هذا خطر.

قبض على كفه ومضى به واثقا:

- لا تخف، أنت معي.

تبعه صفوان متوجسا خطرا.

لم تكد أقدامهما تفارق الحي الذي تسكن فيه الجدة حتى باغتهم أحد أطقم الحوثة على عربة عسكرية.

صاحوا بهم:

- أئتما.. اركبا فورا.

قال العم بجرأة:

- لماذا؟ نحن من أبناء المنطقة وذاهبون لبيت لنا قريب من هنا.

صاح به قائدهم:

- ألا تعلمون بأن التجول ممنوع ليلا؟ لو كنتما من أبناء المنطقة كنتم عرفتم هذا.. أشار لمن معه بإدخالهم إلى السيارة.

نزل اثنان من أفراد الطقم وتناوشوهما ورموهما في خلفية العربة بين مجموعة من المواطنين، في طريقهم نحو جهة مجهولة استوقفهم شاب في العشرينات من عمره.

قال للضابط الذي بجوار السائق:

- أريد الانضمام إليكم.

تفحص الضابط وجه الشاب لوهلة:

- اركب في الخلف، ذهبوا بهم جميعا لمنزل كبير بأسفله بدروم واسع.. رموهم بداخله وسط مجاميع غفيرة من الأسرى لم يتم ترحيلهم لدائن الصالح بعد، لم يمهلوهما حتى يتعرفا على أحد هناك.

جاء جندي واقنادهم لحجرة التحقيق واقناد معهم ذلك الشاب.

في حجرة التحقيق هم العم بالجلوس فصاح به المحقق:

- قف.. من أذن لك بالجلوس؟!

وقف من فوره وتباعد قليلا، ألصق صفوان كتفه بكتف عمه الذي بدا شجاعا وغير مباليا بهم.

كان وجه المحقق مفزعا، بشعره الأشعث ووجهه المنتفخ.

أخرج العم سيجارة وهم بإشعالها فالتقطها أحدهم وداسها على الأرض وجذبه للخلف بعنف، أوماً المحقق لذلك الشاب بإصبعه ليدنو منه وعندما جلس بين يديه سأله:

- ما اسمك؟

- سعيد ناجي مروان.

- لقبك؟

- العززي.

تهامس مع رفاقه ثم باغته بسؤال:

- أبوك مع المقاومة في تعز؟!

- نعم.. لكن أنا مختلف معه، أريد الانضمام إليكم.

تلكأ المحقق قليلا:

- لا بد أن تفعل شيئا يثبت لنا صدقك.

- أنا مستعد لأي شيء تأمرني به يا سيدي.

- المهمة الأولى هي أن تقتل أباك.

قفز من بقعته فزعا:

- أقتل أبي؟! لا.. مستحيل.

- كيف تنضم لنا دون أن تقاتل خصمنا؟!

- لكن هذا شرط صعب.

- هذه حرب وليست نزهة، الحرب كل شيء فيها صعب.

- إذن اعتبروني متراجعا عن طلب الانضمام إليكم.

- القضية ليست لعبة، أنت صرت مناشئت أم أبيت، إما تقتله أو نعتبرك مرتدا عنا ونقتلك.

صاح الضابط:

- خذوه وقوموا معه باللازم.

جذبه العسكري المتخشب بجوار الباب ومضى به مفزوعا مرتجفا.

بدأ العرق يتقاطر من جبين صفوان مع أن الطقس كان باردا بعد يوم ماطر.

رماهما ضابط التحقيق بنظرات خارقة ضاعفت ارتباك صفوان:

- ما هي قصتكما؟ أنت.. وأشار لصفوان

أجابه من فوره:

- نعم سيدي.

- ما هي حكايتك؟ كل يوم سارح وراجع بين تعز وماوية؟!
- جدتي تسكن هنا، أزورها وأنفق أحوالها.
- عندها ولد مثل الثور.
- من..؟ قصدك عمي نعمان؟
- التفت المحقق نحو العم صائحا:
- اسمك بالكامل.
- نعمان مسعد المقطري.
- أين تسكن؟
- في ماوية.
- هات البطاقة.
- البطاقة في البيت.
- بطاقة الحزب أم البطاقة الشخصية؟
- أنا لست مع أحد، عندي بطاقة شخصية فقط.
- كيف يا أهل تعز؟ قالوا كلكم مقاومة.
- أنا لست مقاومة، لا أنا معكم ولا معهم، أنا محايد.. حالي حال نفسي.
- أشار المحقق بيده مجددا نحو صفوان الذي بدأت ركبته تصطك..
- صاح:
- وأنت؟

أجاب العم:

- هو ولد صغير لا يفهم بهذه الأمور، عمره خمسة عشر عاما، يجيء إلى
ماوية ليرعى جدته أثناء انهماكي في عملي بالمزرعة نهارا.

مال ذلك المحقق برأسه نحو أحد أصحابه:

- ألم تشاركنا في جريمة إيقاع الطقم بيد المقاومة بعد صلاة العشاء؟!

- لا والله يا سيدي، كنا في البيت في هذه الساعة.

في تلك اللحظة دخل أحد مواطني ماوية، بدا أنه أحد مرشديهم، وكان
شاهدا على حادثة الفتك بالطقم التي يتحدثون عنها.

سأله الضابط:

- هل رأيت أحد هذين في المجموعة التي هاجمت الطقم؟

تأملهما لوهلة:

- لا.. مطلقا.

طرق المحقق بكفه على الطاولة:

- كم أنتما محظوظين.. سيروا بنا نرى الوالدة.

- يا سيدي أُمي كبيرة في السن أرجوكم لا ترعبوها.

غضب وصاح قائلا:

- قلت سنرافقكما للبيت لنرى البطاقة ونتأكد من صحة أقوالكما.. هيا.

مضت بهم السيارة نحو بيت الجدة، وصلوا إلى هناك والحى هاجع، نزل أفراد الطقم وتقدموا وتبعهم الضابط المحقق، تناثر الأفراد حول المكان، طرق أحدهم باب الجدة بقوة، فتحت على عجل ففزعت لمرآهم:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تلثم المحقق وهز رأسه:

_ ما بك يا والدته؟ نحن إنس، ولسنا جان.

- ماذا تريدون؟!

- مجرد سؤال بسيط.

- الآن.. في منتصف الليل! أمري لله.. اسأل.

- لك ولد اسمه نعمان وحفيد اسمه صفوان.

صكت وجهها وصاحت:

- يا ويلى ماذا حدث لهما؟ لماذا تسألوا عنهما؟ أولادي ليسوا مع أحد.

- حسنا يا والدته اهديني.. أين هما الآن؟!

- الله يهديه ولدي نعمان.. أخذ حفيدي صفوان وذهبوا لبيتهم لإحضار

بطانيات.

بعدما تيقنوا من صحة أقوالهما، مضوا من أمام البيت وتركوها في حيرة.

قادوا حافلتهم العسكرية لمسافة طويلة ثم توقفت السيارة فجأة، صاح

الضابط في مساعديه:

- افتحوا لهما لينزلا.

مضت سيارة الحوثة بمجرد نزولهما.. حمدا الله بيقين.

قال العم:

- نجونا من التغيب إلى مالا نهاية في سجون مدائن الصالح، سمعت بأن المساجين هناك يتعرضون لسوء العذاب، حتى الذين يطلقونهم بعد قبض فدية من أهاليهم يخرجون بوجوه ممتعة مدمية، وبأفواه منتفخة وشفاه متقرحة وخوف وحشي يسكن أعينهم.

قال صفوان حينها قص على أبيه ما حدث:

- لم نصدق بأنهم تركونا سالمين في بقعتنا ومضوا، تأملنا حولنا.. كان الطريق الرئيسي أمانا مباشرة، صرنا بعيدين جدا عن منزل الجدة، لكن لو سرنا بوسطه قد يقبض علينا طقم آخر، الخيار الوحيد أمانا هو السير عبر المزارع، كانت رحلة مرهقة للغاية، الأرض زلقة بعد هطول المطر، الجو بارد جدا والخوف من نهش الأفاعي يضرب بشدة على أوتار قلوبنا مع كل تماس لجلودنا بأي شيء ناعم أو مدور، لكن قللنا الشد على الجدة جعلنا نحث السير ونتغلب على كل مخاوفنا.. عندما وصلنا للبيت التفتنا للوراء غير مصدقين بأننا نجونا من كل هذا، اطمأننا على الجدة فهدأت نفوسنا.

تناقل جميع سكان حي الدار شمسي هذه القصة، بعدها منع عبد الله ولده صفوان من زيارة جدته حتى إشعار آخر.



مليحة وسط النار

السلام عليكم.. مرحبا.. مليحة هل تسميعني؟ الخط يتقطع..-

- وعلكم السلام.. أسمعك يتقطع.

- كيف حالكم اليوم؟ أنا قلقة جدا عليكم، الطائرات تقصف معسكر الأمن المركزي منذ أيام، كانت الشبكة معطلة فلم أستطع الاتصال بك إلا هذه الساعة، لماذا أنتم هناك؟! تعالوا عندنا فمنطقتنا آمنة بعض الشيء.. أحسن حالا من كلابة.

- يبدو أن هذا ما سيحدث، حاولت تجنب ذلك لمدة طويلة، لكن بالأمس ضربت الطائرة نوبة الحوثة التي تعلق منزلنا بأمطار، طارت نافذة حجرة نومي بزجاجها نحو الداخل، من لطف الله أني غادرت الحجرة قبلها بدقائق لأنفق البنات الجالسات في حجرة نومهن في الدور الأرضي.

- حمدا لله على سلامتك.. يا الله.. قلبي دوما دليلي، صدري منقبض منذ يومين، توجست شراً من هذه الطلعات الأخيرة لطيران العاصفة، وماذا عن بقية نوافذ البيت؟!

- الحمد لله البنات يقيّن نوافذ حجرتهن مفتوحة، وبقية نوافذ البيت كانت مفتوحة أيضا، وأخوهن في حجرته وهي آمنة، وزوجي كان في الخارج؛ لكن الرعب الذي أصابنا لم يكن بالشيء اليسير.. الاصفرار علا وجوه البنات، أنا خائفة جدا عليهن، قد يصبن بانهار من تواصل الاقتتال حولنا وضربات العاصفة المتتالية على معسكر الأمن المركزي القريب منا.

- آن الأوان لخروجكم من حي كلابه، لا يجدر بكم البقاء ساعة أخرى في حي الموت هذا، لقد غدا كمقبرة منتفخة البطن.

- أسوأ من مقبرة.. شيء فظيع للغاية.. كل ليلة نسمع عويل وبكاء النساء والأطفال، لمرات عديدة تصك مسامعنا عبارات "قتلوه.. قتلونا" الوضع هنا لا يُحتمل البتة، الحي ساحة معركة حامية الوطيس بين المقاومة والحوثة، تخيلي بالأمس اقتحمت قذيفة هاون منزل جارنا وقتلت كل من فيه، وشيخ طاعن في السن تعرض بيته لوابل من رصاص الحوثة فذهب يستدر عطفهم سائلا لماذا ترشقون بيتي بالرصاص؟! أنا مسالم ومحيد.. سأله قائدهم أين هو بيتك؟ وحين أشار لهم على مكان بيته ما كان منهم إلا أن أشرعوا أسلحتهم وأمطروا بيته بعشرات الطلقات، ثم دفعوه حتى كاد أن يسقط أرضا قائلين اغرب عن وجوهنا قبل أن نوصلك للآخرة، يبدو أنك تأخرت كثيرا عنها.. فترنح العجوز ثم ابتعد عنهم مرتاعا.

قالت شمس بتوجع:

- الله المستعان.. إذن تعالوا فورا، هؤلاء قوم قساة غلاظ أجلاف، تعالوا واسكنوا في إحدى بيوت ماريا الخالية.

- يبدو أن هذه الخطوة غدت ضرورية وملحة، رغم أي لا أحبذ ذلك، تعرفين شح ماريا.

قالت جملتها وقد غمرها الحزن.

ردت شمس مواسية:

- بيوتها كلها فرغت من السكان، نرح الجميع إلى قراهم.. حلت عليها لعنة من الله بعد أن خدعت أُمي وأخرجتها من البيت مدعية أنها تريد بيعه.

- ماذا؟ ألن تبعه؟! لماذا أخرجت أمنا منه إذن؟!

- هكذا هي.. صاغت بعقلها المريض مؤامرة وهمية وصدقها.

- مؤامرة ضد من؟!

قالت لأجد حين وبخها على فعلتها.. تريدون سرقة بيتي مني، ستزورون صكا تدعون به أن البيت ملكا لماجد.

قالت مليحة بنبرة استنكار:

- لا.. يبدو أنها ستصاب بالجنون في آخر عمرها.

- هي مجنونة منذ الآن، تخيلي بأنها دفعت بزواج ابنتها للقتال مع الحوثة، صارت وبناتها متحولات، كل يوم يصدعون رؤوسنا بترهات الحوثة، يشغلون المذيع وأعلى صوت يزجر بزواملهم، المهم.. دعينا من جنونها هي تبدي تعاطفا معك فاستغليه، هيا تعالي.. سوف يلتئم شملنا في الحي الذي جمعتنا أنت فيه سابقا، أم أنك نسيت بأنك أول من بنى من أسرتنا منزلا له في هذا الحي؟

- بل كنت من مؤسسي الحي، بنيت بيتي الأول فيه قبل افتتاح فندق الدار شمسي، سكنت الحي وهو عبارة عن منخفض موحش وسط جبال وتلال خالية من البشر.

- ليتك لم تبعه وتنتقلي لحي كلابه، ليتك بقيت في هذا الحي.

- حي الدار شمسي منعزل عن المدينة، أشبه ما يكون بقرية.. لم يتطور قيد شعرة، حتى الطريق إليه ليست مرصوفة.

- لكن ها هو اليوم يغدو حيا مزدحما بالبنيان مكتظا بالبشر، ومنطقة نزوح لكثير من سكان غرب تعز.

- مع أنه قريب من خط التماس، وتحت الفندق الذي يتمترس فيه الحوثة.

- رغم ذلك هو أفضل حالا من حيكم، وأرحم من وسط المدينة.

- الأمر لله؛ لكن ولدي سامح مصمم على البقاء هنا.

- سامح هذا عنيد، اتركه حتى يرده الله لرشده، البنات مرهفات لن يحتملن أكثر.

أفقلت شمس الجوال بعدما تأكدت بأن مليحة اقتنعت بضرورة النزوح من حي كلابة.. رمت ببصرها نحو أمير:

- مسكينة أختي مليحة، كافحت طوال عشرين سنة في صالون التجميل الذي صنعت له شهرة وسمعة حسنة؛ حتى كونت ثروة رأتها كافية لتعيش من ريعها حياة كريمة بقية حياتها فتركته لأختنا مروة التي شربت منها الصنعة، أخشى أن تفقد مليحة كل شيء بين عشية وضحاها، دمر الحوثة سقف بيتها الذي في عدن بقذائفهم، واليوم تواجه مع أسرتها مصير الموت تحت ركام بيتها في كلابة، أو برصاص المتقاتلين في شوارع الموت تلك.

- ثقي بأن الله سيكون معها.. لأنها عطوفة وكريمة وتصل الرحم.

- أشعر بأنها تعبت من حمل مسؤولية سلامة أفراد أسرتها، كانت طوال شهر رمضان تقوم بأعباء إضافية خوفا من تعريض ابنها أو زوجها للمواجهة مع الموت.

- امرأة محبة وصبورة، لن يفجعها الله في حبيب.
- كانت تصر على الخروج لشراء كل مستلزمات البيت بنفسها، القناصة لا يتورعون عن قصص كل كائن يرتابون فيه ولو كان عابر سبيل، حتى كلاب الحي وقططه أبادوها قنصا.



في عيد الفطر جاء الفرج الذي انتظرته مليحة طويلا.
انسحب الحوثة من عدن عقب هزيمة نكراء أوقعها بهم رجال المقاومة الشعبية بدعم من قوى التحالف العربي الذي قام بإنزال بري مباغت أربك الحوثة وأجبرهم على الفرار.
هذا ما قالته مذيعة الأخبار.

شنفت مليحة مسامع الجميع بأصوات الزغاريد وهي تتابع تفاصيل الحدث عبر شاشة التلفاز في ثاني أيام عيد الفطر، تابع جميع الناس الحدث عبر الشاشات، أثناء زيارة يتيمة خاطفة من الكهرباء المنسية، لم تدم سوى خمسة أيام، كانت هي العيد.

لم تدر مليحة لم تذكرت في خضم نشوتها بتحرير عدن يوم أطلقت زغاريد مشابهة وسيلا من أعيرة نارية في الفضاء ليلة عودة الزعيم "صالح" سالما من السعودية، بعد تلقيه علاجا مكثفا لإصابات لحقت به عقب تعرضه كما قيل للحرق في جامع النهدين.. عضت على شفيتها وهي تسترجع مشهد تلك الفرحة التي استهجنتها منها بعض أخواتها، كانت يومها مؤمنة به حتى النخاع.

قالت وهي تتابع أخبار تحرير عدن:

- كم هو أمر مؤسف أن يكتشف المرء بأنه كان مخدوعاً طوال الوقت، وقع بيني وبين أخواتي جدالاً شديداً باللهجة بسببه، صدقته طويلاً وها هو اليوم يقترب أكبر جرم في تاريخه، أرسل علينا تنانين جبال مران فألهبوا الوطن بنيران أحقادهم وأفسدوا عيشنا، خربوا بيتي في عدن، واليوم بيتي هنا مهدد بالتخريب على أيديهم أيضاً، يا له من جزاء.

جزاء سنمار.. صدق القائل من ناصر ظالماً سلطه الله عليه.

هكذا قالت ماريّا بتشف.. معلقة على الموقف عندما بلغها كلام مليحة وندمها؛ غافلة عن التشابه بين ما تفعله هي اليوم وما فعلته مليحة بالأمس.

سافرت مليحة إلى عدن بمجرد سماعها خبر تحريرها، وتردد إشاعة عن تشكل لجان التعويضات؛ لكنها أدركت بعد مضي أيام من عودتها إلى عدن بأن جبال لجان التعويض طويلة.. سكنت في منزلها، وغطت سقفه مؤقتاً بألواح خشبية؛ حتى يأتي فرج صادق وأيام حلوة تنسيها ما عانته من محن وما رأت من أهوال خلال الشهور المنصرمة من هذه السنة الشؤم، لم يدُر بخلدتها لوهلة بأن أعاصير أعظم قادمة نحوهم من بعيد، وأن الأيام حبلت بأجنة أشد قبحاً وتشوهاً.

عادت مليحة إلى عدن بصحبة زوجها وبناتهم الثلاث.

وبقي ابنها البكر سامح في منزلهم بكلاية، حاول كل فرد في الأسرة ثنيه عن قراره هذا؛ غير أنه أصر على موقفه متجاهلاً تومسات الجميع وتحذيرات

أبيه الصائبة، هو شاب عنيد متصلب الرأي، لكنه في هذه المرة قد يلقي بنفسه إلى التهلكة.

غادر جميع سكان كلابة المحيطين بمنزل مليحة الحي، لم يمكث فيه غير سامح وشيخ عجوز يسكن قريبا منهم وليس له أحد، لبث سامح في منزلهم بكلابة وحيدا منقطعة أخباره عن الجميع عدا مراسلات تتم بينه وبين شقيقاته، تطمئن مليحة عقب كل رسالة منه وتحمد الله سرًا على بقاءه على قيد الحياة، هي لا تكلمه منذ أعلنت مقاطعتها له بسبب عصيانه الدائم لها مع اعتصار قلبها خوفا عليه وتمزقه شوقا إليه.

في صباح عيد الأضحى خرج سامح من بيتهم مكرها، تكرر تهديد الحوثة له بالتصفية إن لم يغادر كلابة، أرادوا تحويل البيت إلى ثكنة لهم.

بعد أيام من خروجه علم بأن القناصة قتلوا جارهم العجوز، قيل بأن جثته بقيت ملقاة على الأرض حتى انتفخت ونهشت لحمها الطيور الضارية.

فاجأ سامح الجميع بظهوره في حي الدار شمسي صبيحة يوم العيد، كانت هيئته رثة، بدا أشعثا أغبرا هزيلا ومسود البشرة، ملابسه متسخة متغضنة، كان مهموما، مثقل النفس كأنها كبر عقدا من الزمن.

قال دبوان وهو يراه مقبلا عليهم من مدخل الحي:

- هل هذا سامح المتأنق المتوقد حماسة ونشاطا؟! لا بد أنه رأى أهوالا في مثلث الموت بكلابة؟!

فرح الجميع بقدمه، اغتسل ولبس ثيابا نظيفة وتطيب في منزل خاله ماجد الذي سافرت زوجته لرعاية أختها النفساء في حضرموت، دار على بيوت خالاته معايدا، كانت كل واحدة من خالاته تتشبث به ليمضي عندها نهار العيد، تملص سامح من الجميع ووعد بجلسات طويلة معهن، سيقص عليهن طرفا مما عاصره خلال الشهرين الماضيين في كلابه.

في مساء العيد التف حوله الجميع، تعلقت أحداقهم بشفتيه تلهفا لتدفق سيل بوح.. لكنه لم يزد عن قول:

- رأيت أهوالا تشيب لها الرؤوس، لا أستطيع أن أقص عليكم شيئا من ذلك الآن، ربما سأفعل في يوم ما، كل ما أستطيع قوله هو أنني كنت في كل ليلة أعزم على حمل السلاح الذي تركه لي أبي لأنضم لصفوف المقاومة، وأردع هؤلاء الذين يهددوني كل يوم بالقتل إن لم أخرج من بيتي، لكنني عند الصباح أتذكر دموع أُمِّي وتوسلاتها لي بأن أحافظ على حياتي، وأستحضر كوني الابن الوحيد لها فأتراجع.

سكت لوهلة والجميع ينصت:

- اليوم وأنا أتنعم بالراحة النفسية والأمن معكم، وأستمع بالعيد بينكم سألت نفسي لماذا بقيت هناك في مثلث الرعب والموت طوال شهرين؟!

علت أصواتهم:

- لماذا؟!

- لم أجد لهذا السؤال جوابا كاملا، لكن ربما إنه التحدي لهؤلاء الذين يتعاملون بمنطق "إما أحكمك أو أقتلك" أردت هزيمتهم بالصبر والثبات، كانت هذه سنة تخرجي من الجامعة.. لولا ظهورهم المباغت وتعطيلهم الحياة في تعز لكنت الآن صيدليا، خططت للسفر وتحضير الماجستير والدكتوراه.. لقد أفسدوا كل شيء.

قرر سامح البقاء في حي الدار شمسي بين أفراد أسرته الكبيرة، هيأت له ماريا أحد بيوتها الخالية، سيمكث فيه شهرا أو أكثر ثم سيغادر إلى مدينة إب ليبقى بقرب خالته لينا بعد أن يسافر زوجها إلى أمريكا.



الفراشة المحاصرة..

حي الثورة محاصر من جميع الاتجاهات عدا فرجة تصله بقلب المدينة المحاصرة أيضا منذ انتقال قيادة المقاومة من حي الروضة وتمركزها في وسطها.

يستमित الحوثة في هجمات متتابة على حي الثورة بغية إسقاطه.

منذ أن غادرت لبيبة منزل سالي ورجعت إلى بيتها تقطعت السبل بينها وبين أهلها، لا يعرف أحدهم شيئا عن أحوال الآخر معظم الوقت.

قطع الحوثة شبكة الهواتف الأرضية في مدينة تعز منذ بدء الحرب، قاموا بتخريب متعمد لبعض شبكات الهاتف الجوال.. نزحت أسرة زوجها إلى صنعاء بعد انهيار تام للأوضاع في حي الثورة، الحصار يخنق الحياة ببطء، يقطع شرايين مفردات ضرورية لعيش الناس.. ارتفعت أسعار مياه الشرب للغاية؛ حتى غص الناس وعانوا كمعاناة عطشى تائهين في صحراء قاحلة، شح الخضر وغلا ثمنه، اختفى القوت الأساسي وغدا عيش الناس هناك كابوسا رهيبا.

يتابع الحوثة إرسال صواريخ الكاتيوشا، وقذائف الهاون والهاوزر على الأحياء المحاصرة على مدار اليوم واللييلة.

في صبيحة يوم واحد قتلت القذائف العشرات من الأطفال المتراحمين حول خزانات ماء خيرية متنقلة؛ جعلها فاعلو خير سُقيا مجانية لتلك الأحياء.

بعد أيام من حدوث تلك الفاجعة صاحبت لبيبة في ابنتها البكر "نهى" فور سماعها دوي انفجار قريب:

- أين ذهب عامر؟

- خرج ينتزه مع صديقه ثامر.

حاست لبيبة في المكان مهتاجة، تضرب بيديها على فخذيها وهي تدمدم:

- سيقتلني هذا الولد.. لست أدري كيف أتحكم في جنوحه وأكبح تمرده؟ كل مناهج الإرشاد لم تنفع معه.

ضحكت نهى وأجابت مازحة:

- لا بد أن تحضري دكتوراه في حالته؛ لأنها نادرة وعجيبة.

- هل هذا وقت مزاحك البارد.. أما تسمعين دوي القذائف؟! ألا يكفي ما يفعله أبوك الذي يخرج يركض كل يوم خلف جموع المقاومة، وأخوك خلاد الذي سافر مع جدته إلى صنعاء ولم يعد، أنا وحدي من تعصره المخاوف عليهم، وأنتِ منشرفة الصدر، دائمة التندر وكأن لا شيء مما يحدث يعنيك، يا رب امنحني مزيداً من القوة والصبر.

اقتربت منها نهى واحتضنتها:

- أنتِ والله حبيتي يا أعظم وأحن أم في الوجود، أعترذر إذا ضايقتك، يعني أنا مخطئة لأنني أحاول التخفيف عنك.. اطمئني فأخي عامر عفريت ولن يحدث له شيء.. وأبي إعلامي وحسب.. سيكون بمأمن إن شاء الله.

- أين جوالي؟ لعلّ الشبكة عادت.. سأحاول الاتصال بعامر وسأسمعه كلاما قاسيا.

- لم أره منذ الصباح، ربما أخذه عامر ليشحن بطاريته في المدينة.

- ما تزال بطاريته مملوءة، متى استنفذتها؟! التغطية غائبة معظم الوقت.

في تلك اللحظة تنامي إلى مسامعها رنة الجوال، تحركتا معا بحثا عن مصدر الصوت.. هتفت نهي:

- ها هو.. من دسّه بين الوسائد؟! نظرت إلى شاشته:

- إنه أخي خلاد.

اختطفّت لبسبة الجوال من يد ابنتها بتلهف:

- فذاك روعي يا ولدي.. اشتقت لك كثيرا.

- وأنا أشد شوقا لك يا أحن أم.. كيف حالكم؟

- الحمد لله على كل حال.

- ماذا حدث؟ نبرة صوتك تنبئ بأمر.

- أخوك عامر أفقدني توازني، كنت أطمئن عليه حين كنتما معا، الآن

هو حر طليق، يهيم على وجهه دون تفكير ودون حذر، سيشيب رأسي من تصرفاته المتهورة، تخيل بأنه ذهب لزيارة أهلي في حي الدار شمسي متسللا من خلف القناصة.

- مجنون.. هل هو بجوارك؟ أعطه الجوال.. سأكلّمه.

- خرج منذ الصباح الباكر ولا أدري أين ذهب.. الله يحفظك يا ولدي
كلّمه على جواله وانصحه ليتعقل، ليتني تركته يسافر معك.

- لا.. كانت المصيبة ستتضاعف.

- كيف ذلك؟ سمعنا بأن الأوضاع أفضل في صنعاء.

- الوضع هنا أفضل بكثير من نواح عدة، الناس يعيشون بشكل طبيعي
كأن هذه الحرب لا تعنيهم، لكنني سمعت بأن الحوثة يقتادون الفتيان للمعارك
عنوة، أنا ملازم لبيت خالي ولا أخرج إلا بصحبته وأبقى حذرا طوال الوقت
أما عامر فمتهور.. سيتورط حتما في معارك مع جموع الحانقين من مقاومة تعز
هنا، سيندس بين جند الحوثة وسوف يقتادونه معهم لا محالة.

- أعوذ بالله.. انتبه لنفسك يا حبيبي.

- اطمئنني يا روحي، سأكون بخير.

- ما هي أخبار جدتك وبيت خالك أمجد؟! أحاول الاتصال بهم دون
جدوى، التغطية سيئة معظم الوقت، لا أدري كيف نجح الاتصال معك
اليوم؟!

- كلهم بخير.. تعطل سفرهم بسبب إعصار شابالا.

- الحمد لله.. لعله خير، متى ستعود إلى تعز؟

- قريبا.. اشتقت لكم كثيرا.

- وأمي.. هل سترجع معك؟

- لا.. خالي أمجد رفض وقرر أن يستبقها عنده حتى تنتهي الحرب في تعز.

جاءها اتصال على الخط الثاني.. قالت له:

- أنت وجه خير، كل خطوط الاتصال تعمل، انتظر.. سأرد على خالتك سالي.

- هلا سالي.. كيف حالكم؟

- الحمد لله أني سمعت صوتك.. أين أنت يا شيخخة؟ قلقنا عليك.. ليتك لم تغادرينا، والمصيبة أن جوالك دائما مغلق.

- الله يحفظك يا أختي.. والله كانت أيام حلوة أمضيتها معكم في الحي، لكن زوجي هنا.. الحمد لله على كل حال، اعتدنا على القذائف والله خير حافظا، وجوالي ليس مغلقا لكن التغطية تغيب.

- ماريا أفزعت شمس بتهويلها للأخبار؛ فخرجت المسكينة تركض نحوك لترأك.. لولا لطف الله كان قتلها القناص.

- لا.. الله يحفظها، رجاء لا تقلقوا بشأني، الحي تخلص من المواجهات المباشرة بين الحوثة والمقاومة، تسقط قذائف الحوثة عليه من بعيد، تصيب المارة والمباني التي على واجهة الشارع ويأتي ليس بالواجهة، أنا كل خوفي على عامر وزوجي وحيد، فهم يخرجون ويدخلون، أما أنا ونهى فملازمات للبيت، بالأمس قتلت قذيفة هاون سمير زوج جارتنا هالة وهو يتسوق في شارع المستشفى.

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. الله يصبرها.

- سبحان الله.. كان سمير هذا مناصراً للحوثة بتعصب وهامهم قتلوه.
- أعوذ بالله من الشّجاة لكنه يستحق، باع دينه ووطنه بعرض زائل.
- في تلك اللحظة دخل وحيد للبيت، مرق كالسهم من أمام ناظرها ودلف إلى حجرة النوم.. قالت لسالي:
- أستأذنك.. رجع وحيد الآن من العمل بعد غياب ليلتين.
- الله يحفظكم جميعاً ويجمع شملنا عما قريب، سأذهب لأطمئن شمس أنكم بخير، التغطية عندها سيئة لأن بيتها تحت التلة مباشرة.
- بلغها سلامي واشكرها.. أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.
- قال خلاد:
- سلمني على أبي.. وعلى نهي وعامر، واطمئني.. سأكلمه وأعقله، في أمان الله.
- همست نهي:
- يبدو أبي منزعجا.
- اذهبي وأعدي له الطعام.
- دلفت نهي للمطبخ.. خرج وحيد من حجرة النوم بعدما غيرّ ملابسه ولبس حذاءه.
- قالت له ليبة:
- ألن تجلس معنا؟!

- سأعود ليلا.. عندي عمل، مع من كنت تتكلمين؟
- أختي سالي.
- متى سيغادر أهلك حي الدار شمسي؟ الطائرات ستقصف الفندق.
- لا تقل ذلك رجاءً.
- الاحتمال وارد بقوة، الحوثة يبيتون فيه ويقصفون المدينة منه.
- وإن يكن.. الحي تحته مباشرة ومكتظ بالسكان، أناس كثر نزحوا إليه من الأحياء المحتدم فيها القتال.
- قولي لأهلك أن يخرجوا من هناك فحسب.
- إلى أين يذهبون؟! هم كثر.. هل يهجرون بيوتهم؟! ثم إن البيوت التي هرب أصحابها سُرقت.
- حسنا.. لقد حذرتكم، لكن يبدو أنه لا يغني حذر عن قدر.
- قال لها ذلك وخرج.. هتفت به:
- ماذا تقصد؟
- لم يجبها.. همست وهي تغالب العبرات.. يا رب أنت خير حافظا وأنت أرحم الراحمين، لا تفجعني في أحد من أحبتي.



هروب الفراشة..

ضيق شديد يُطبق على صدرها.. تنهدت بكتان، ثقل الفاجعة ينهكها.

تساءلت:

- هل ستدرو الأفواه في الحي قصة سمر؟!

نظر نحوها لوهلة، ثم عاد وتشاغل بتقليب الأوراق التي بين يديه،
انحدرت دمعة على خدها حين لمست منه نفورا وتجافيا، مسحت تلك الدمعة
وقامت نحو المطبخ.. قالت متظاهرة بأن لا شيء قد أزعجها:

- هل أسكب الطعام؟!

أجاب دون أن يلتفت:

- لا.. أنا مدعو.

- عند من؟ لم تجربني بذلك.

- وهل يجب أن أحصل على إذن منك لأقبل دعوة من صديق؟!

- لكن اليوم جمعة.

- وإذا جمعة؟! ما الفرق؟ غدت جميع أيامنا سواء.

نفض من بين يديه كومة الأوراق بعدما وجد ضالته وفز واقفا.

- ماهر.. لماذا تقسو عليّ؟ ماذا فعلت لتعاملني ببرودة ولا مبالاة؟!

- لا تغني لي موال الضحية، مللت.. أنا مللت.
- هل مللتني؟!
- مللت كل شيء في هذه البلاد.
- ماهر.. ما ذا تعني بكلامك هذا؟ ما الذي يدور في رأسك؟!
- لا شيء.. رجاء سامية، اتركيني حتى يعتدل مزاجي.
- متى سيعتدل؟ أنت على هذه الحال منذ شهور.
- يبدو أنك عازمة على الشجار وأنا لا وقت لدي لذلك.
- لبس حذاءه وخرج صافقا الباب بعنف.
- ارتمت باكية على السجادة بين أكوام الورق، هجمت عليها ومزقتها بهستيريا، شعرت بعدها بارتياح لم يطل المكث.. تذكرت سمر ورنث عبارات يمن في أذنيها واسترجعت الحوار الذي دار بينهما..
- قلت لك البنت انحرفت.. حتى متى ستبقى هكذا؟!
- هكذا كيف؟ أين الخطأ في سلوكي يا يمن؟
- مغرمة بالتنقيب عن الجانب الطيب في الناس، الكل يخدعك لأنك لا تصغين لصوت حدسك، لا تصدقين بوقوع الكارثة حتى تنزل كصخرة على رأسك فتشجّه، لا توقنين باشتعال الحرائق حتى تكتوي بنارها.. افتحي عيونك فالبنت انزلقت في طريق الرذيلة، ألن تصدقي حتى تري بطنها منفوخة من الزنا؟!

في تلك اللحظة تنهى لسمعتها صوت طرقات خجلة على الباب.

- من؟

- أنا.. افتحي.

عرفت صاحبة الصوت، ترددت لوهلة ثم فتحت الباب.

قالت لها وهي تسد المجال بجسدها:

- خيرا؟ ما الذي أتى بك؟

- سامية.. لو سمحتِ امنحيني فرصة لأقول ما عندي وبعدها افعلي ما تشائين.

- هيا قليني ماذا لديك؟ وبسرعة.

- هنا.. على الباب؟!

زفرت سامية وأفسحت لها.. دخلت سمر بخطى متعثرة.. أوصدت الباب قائلة:

- سامية أنتِ إنسانة طيبة و..

قاطعتها بغضب:

- وساذجة والكل يخدعها.

- من قال هذا؟ بالعكس.. أنتِ أذكى مني.. حذرتني ونصحتني مرارا.

- وما الفائدة؟ وقع المحذور وانتهينا.
- لم ننته، محمود لن يتخلى عني.. عاهدني على ذلك.
- وصدقتيه؟! -
- صدقته.. انظري.
- أخرجت ورقة من حقيبة يدها ومدتها إليها.. مرّرت سامية نظرها بين سطورها بسرعة:
- هراء.. هل تسمين هذا عقد زواج؟!
- نعم.. وعليه شهود أيضا.
- حسنا.. سنرى بماذا ستفيدكِ هذه الورقة التي تسمينها عقد زواج.
- سامية أرجوكِ اسمعيني، أنا في مأزق وأنتِ الوحيدة التي يمكنها مساعدتي.
- أساعدكِ! بماذا؟!
- تلعثمت سمر ثم نكست رأسها وهمست بصوت مرتعش:
- أنا حامل.
- صكت سامية وجهها وصاحت:
- ماذا؟ يا للمصيبة.. هل أدعو عليكِ؟ رأيكِ كيف تكون نهاية الاستهتار، أوردتِ نفسك المهالك، أبوكِ سيقتلكِ ويرمي لحمكِ للكلاب، هل نسيتِ من هو أبوكِ؟!

- لم أنس.. شيخ القبيلة ابن الحسب والنسب، تبا لهذا التكبر المقيت.. أما كان أكرم له أن يزوّجني بمحمود بدلا من هذه الفضيحة؟!

- ما أسهل أن نجعل من غيرنا شماعة لأخطائنا.

- والله معترفة بخطئي.. وأقسم بأنه كان دون قصد، الله يلعن الحرب، هربنا من القصف لداخل حجرة الحراسة.. كنت خائفة وارتعش، التصق بي يهدئي، الخوف مثير.. مزّقنا ستر المحظور في لحظة ضعف، والله ما أردنا حدوث ذلك.

- يا له من عذر! تظنين بأن الشيطان سيقول لك اخرجي وارتيبي الفاحشة؟ طبعاً لا.. سيأخذك خطوة خطوة نحو الهاوية.. لأجل ذلك قال جل وعلا "لا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين".

- حسناً.. أخطأنا ومعترفين بخطئنا، ارحمونا يا ناس.

- وترفعين صوتك بكل جرأة! انظري لحالك وما وصلت إليه؟ الناس ستلوك سيرتك صباح مساء.. ما الفرق بينك وبين صويجات غرام؟!

- سامية.. حرام عليك.. كيف تشبهيني بهن؟ رفقا بي.

قالت سامية بتبرم:

- اتركيني في حالي، تكفيني مشاكلي.

انكبّت سمر على يدي سامية تلتثمها، وانخرطت بالبكاء:

- سامية.. أرجوك ساعديني.

- بماذا أساعدك؟ انتهى الأمر، وقع الفأس في الرأس.
- أريد إسقاط الجنين، خذيني للطبيبة.
- لا بد أنك جننت، تريدني أن أشاركك في جريمة قتل طفل بريء،
إزهاق روح؟ هيا اخرجي من بيتي فوراً.
- سامية.. لو خرجت الآن سيحدث شيء يجعلك تندمين طوال حياتك
لأنك لم تساعدني.
- صاحت بها بضيق:
- سمر.. قلت اخرجي، أنا في حالة لا تسمح بطول نقاش.. هيا اذهبي
رجاءً.
- حسناً سأخرج، لكن تذكرني كلامي.
- مشت سمر نحو الباب ببطء، تمت لو أن سامية تتراجع عن موقفها
المتصلب الغير متوقع وتقرر مد يد العون لها، أشاحت سامية بوجهها عنها..
شعرت سمر بخيبة أمل كبيرة تكتسح قلبها فركضت نحو الخارج باكية
بانتهاب.
- تخشب سامية ببقعتها متألمة، تحجرت مشاعرها تجاه سمر، لوهلة شعرت
باشمئزاز وهي تتخيل مشهد السقوط المخزي لسمر، قرأت فصولاً مشابهة
في روايات عديدة وشاهدته في مسلسلات وسمعت عنه بين ثنايا نيميّة
نسوية عن نساء تصورتهن شريرات فاجرات، لم يمكنها إسقاط شيء من

ذلك على شخص قريب منها.. صديقتها وقريبتها سمر غدت بطلة لإحدى قصص السقوط الجسدي، ترتهن لجسدها وتبيع شرفها لإرواء جسد.

شاهدها أناس كثر تفعل ذلك مرارا.. تذهب للقاء محمود متخفية جميع الاعتبار، تختلي به في حجرة حارس القصر بأعلى التلة مستعذبة لذة اختراق السدود وخرق المستحيل، المكان هناك شبه خال.. سكان ذلك القصر هربوا من الحرب وتركوه ليغدو حبلا إبليسيا يلتف حول عفاف سمر ويزهقه بجسارة من عنفوان محمود، ورغبة خفية في أعماقه لكسر كبرياء أبيها الذي أهانه وأذله وطرده من بيته شر طردة.

بعد انصراف سمر بساعات شعرت سامية بوخز ضمير لتخليها عنها، قررت بأن تذهب لزيارتها بعد يوم أو يومين.. سترى كيف يمكنها تدارك الموقف قبل أن يعرف أباهما بأمر حملها، لكنها كانت يقظة ضمير متأخرة.

في مساء اليوم التالي كان خبر اختفاء سمر يتردد في الحي، لاكت الألسن سيرة سمر بقسوة في مجتمع لا يأخذ بيد أنثى تقع؛ بل يدوس عليها حتى الرmq الأخير.



الجانب الخفي من حازم

السماء صافية والهواء نقي، الخضرة تغلف كل بقعة ترابية تتخلل العمران بطول السهل وامتداد الهضاب المحيطة بالحي، غدت السفوح واحات غناء.. الأغصان المرتوية بالماء تلمع بندى ألماسي يتراشق بعبقرية على حدود الأغصان بعد المطر، مشهد طبيعي فطري خالص، يلهم الناظر نبض الحب ونظم الشعر.

أينعت في حديقة منزل قاهر زهور دوّار الشمس بلونها الأصفر المشعّ بالفرح، وتحلق حولها نباتات عشبية مزهرة ملونة ما بين أبيض لؤلؤ وأصفر ذهبي وزهري مائل للبنفسجي.

أتم روعة اللوحة الربانية الفريدة فوج من فراشات بيضاء وصفراء وبرتقالية تطوف بالمكان، وثمة أشجار صبار متزاحمة متحدة وعصافير مغردة تقف على الأحجار السوداء والبنية لتمنحها بعض ألق من جمال ألوانها البديعة.. يحتضن كل هذه الفتنة عشب بري غص الأغصان تهزه نسائم الصباح.

تأملت يمن الطبيعة الغناء وينوع سعادة يترقرق على وجهها، ملأت رثيتها بعبير ذلك الإكليل الطبيعي الذي تزدان به تعز في موسم الأمطار، جمال وفطرية البيئة في مدينة تعز سحر لا يوصف.. ليس له مثيل.

قالت منفعة بجمال المنظر:

- سبحان الله! كم يصبح الجو ساحرا في موسم الأمطار.

التفتت نحو حازم الذي كان منهمكا في قراءة كتاب وأردفت:

- حازم.. هل تدري أن ثمة تغير هذا الموسم في كون تغز؟

أوصد دفتي الكتاب، ونظر إليها متأملا.. أضاء وجهه بفرح طاغ:

- الحمد لله.. تبدين اليوم منشرة الصدر وفي أحسن حالاتك.

ضحكت قائلة:

- وكيف لا أنشرح وأنا أرى الأمطار تتساقط بغزارة بعد سنة جفاف قاسية، كم كانت قبيحة سنة الحرب التي مرت.

- مرّ عام.. والحرب لم تزد إلا استعارا.

- دعنا من حديث الحرب الآن.. انظر إلى العصافير الملونة بالأزرق والأصفر التي عادت تتكاثر وتبني أعشاشا لها على الأشجار، تنتقل مرفرفة لترسم لوحة رائعة بين الأغصان وتملأ الفضاء بزقزقتها الرائعة، هل تسمعها؟ هل تراها؟ ساء الحي مكتظة بها.. وتلك الفراشات البديعة الألوان عادت من جديد.. ألا ترى؟! ورائحة الأرض.. هل شممت؟ عادت عبقة معتقة كما كانت حينما كنت طفلة.

بقي حازم يصغي إليها متأملا.. سأله:

- أتدري؟!

- ماذا؟

- لقد قبل الله توبتنا ودعانا.. غدت رحمته أقرب لنا مما يظن الكثيرون.

- الله لطيف بعباده ورحمته قريبة دوما.
- أقصد رحمة ترفع عنا هذه المعاناة.
- هذه قارعة وجبت بذنوب جماعية، ولن تُرفع إلا بتوبة جماعية.
- وهل يحدث مثل هذا؟!
 - ماذا تقصدين؟
- هل يتوب كل البشر؟ هل سيتأخر الفرج حتى يتوب كل فرد في اليمن؟ أنت تضيّق واسعا بشرطك هذا.
- ليس الكل.. الغالبية العظمى.. مجرد ارتفاع الوعي يضاعف فرص التغيير نحو الأفضل.. ثم أن القضية ليست قضية توبة من خطيئة شخصية فحسب.. غياب الضمير الجمعي خطيئة كبرى توجب العقوبة، نقشي الجهل خطيئة عظمى توقعنا في مربع العنت.
- التوبة من الجهل! استبصار جديد يستحق التأمل، ربما لو أدرك أطراف الصراع في اليمن بأن القضية أكبر من صالح والحوثي.. لو عرفوا بأن القوى العظمى تهدف لإعادة تقاسم فطيرة الكون بتوزيع مختلف يتناسب مع المتغيرات العالمية الكبرى وأدرك جميعهم كُنه التحالفات الخفية المسكوت عنها.. حينها قد يتوقفون لمراجعة ردود أفعالهم الحمقاء هذه.
- لا أعتقد.. أنا شخصا قد أراهن على ارتفاع مستوى وعي الفئة المتوسطة التي تدفع ثمن كل هذه الفوضى في اليمن دماء وأموالا، أما هؤلاء فأعتبرهم لاعبين أساسيين وإن كانوا بالنيابة.

عاود المطر السقوط.. قالت:

- كم يدغدغ مشاعري تساقط المطر.. وكم هي جميلة مدينة تعز، تُرى هل يراها كل الناس كما تراها عيناى؟!!

- ربما.. لا يمكننا الجزم بذلك، لكن لن يختلف اثنان على جمال طبيعتها واعتدال مناخها وعذوبة ونقاء هوائها خاصة في موسم الأمطار، لا سيما في المناطق البعيدة عن وسط البلد أو مناطق تجمعات المصانع.

- ولا تنس وداعة أهلها، عندما أسمع الحوثة يدعونهم بالدواعش أصاب بالدهشة وأسخر من غبائهم.

- لماذا الدهشة والسخرية؟!

- لأنهم لا يفهمون الطبيعة النفسية لسكان تعز، ذكر ابن خلدون في مقدمته بأن كل منطقة تصبغ أناسها بصبغتها الخاصة، وتعز بلدة عذبة الطبيعة.. سكانها أرقاء القلوب، مرهفو الأحاسيس وعشاق من النوع الفريد.. تعز هي بلد العلم والأدب والشعر والفن.. تعز أيوب طارش والمشاقر والبخور والفل والكاذي.. لا يمكن أن يصبح أهلها بين عشية وضحاها دواعش كما يقال.

- يوجد بالفعل قصور في فهم طبيعة النفس البشرية.

- اليمن ليس فقط بلد متنوع التضاريس، بل متنوع في سمات البشر، أهل الشمال مزارعون محاربون.. وأهل الجنوب مفكرون مبدعون.. الصراع

بين الفئتين استنزاف للقوة البشرية.. يجب أن تكون العلاقات بينهما تعاونية تكاملية، وليست علاقة صراع وتنافس.

- هذه نظرة تأملية راقية لا يدرك ساستنا طرفا منها.

- وهذا ممكن ضعف الساسة العرب.

- هم ليسوا أكثر من بيغاوات خرقاء يردّدون ما يمليه عليهم سادتهم.

- ألم يقرأ أحدهم التاريخ؟! ليس التاريخ البعيد؛ بل القريب جدا.. خلال ثورة ١١ فبراير قُتل أبناء تعز في جميع ساحات التغيير والحرية بطول اليمن وعرضها.. مع ذلك تشبثوا بسمة السلمية، كنا نراهم لا ينفكون عن ترديد شعارهم الخالد "سلمية.. سلمية" قوّتهم تكمن في تعقلهم وسلميتهم، هذه السلمية هي من هزّ عرش الطاغية وأخرج الثعابين من جحورها.

- كانت سلمية مبالغ فيها.. يبدو أنهم يستعذبون دور الضحية.

- لا تكن قاسيا في حكمك عليهم يا روعي، أنا أعتقد بأن الذين قتلوا في ثورة ١١ فبراير شهداء حقا، تصرفوا كخيرَي ابن آدم.. موتهم ليس غيابا؛ بل شهود أزي.. دماؤهم وقود انطلاق لليمن الجديد.. ألم يقل البردوني - رحمه الله -: "موت بعض الشعب يحبي كله * إن بعض النقص روح الاكتمال؟" لقد ارتقى عدد من الشهداء لتكتمل روح الثورة وتصبح قوة لا تُقهر.

- الأرواح لا تصنع التاريخ.. الأيدي العاملة والقلوب المخلصة والعقول المفكرة الواعية هي من يصنع التاريخ.

- لن تضيع تضحياتهم سدى، ستُلهم الأجيال من بعدهم، يجب الحفاظ على هذه الروح لأنها تجسيد لحقيقة أبناء تعز، سيخسرون الكثير إن هم فقدوا سرّ تفوقهم وتميزهم البشري، لا يجب أن يستسلموا لموجة العنف التي يحاول البعض بخّها كسُم زعاف في أنفسهم.. سيتيهون عن ذواتهم.

- ليتهم يُدركون مكن قوتهم وضعفهم.

- المهم.. هل توافقني فيما قلته؟

- ليس في كل ما قلته.. أراك مثالية إلى حد بعيد.

قام واقفا إلى جوارها، نظر من خلال النافذة وتنهد مسندا ساعديه على حافتها وتحدث:

- الواقع سيء.. ما يُدار في الخفاء خطير للغاية.. العالم يتعري ويُظهر وجهه القبيح من جديد، منذ زمن قريب قتلت أمريكا ثلاثة ملايين فيتنامي لأجل تنصيب رئيس موالٍ لها في حرب ضروس ظالمة، واليوم تُنصب نفسها أنموذجا للدولة المدنية، تتجمل بشعارات كاذبة عن حقوق الإنسان وقيم العدل والخير.

صكّت وجهها:

- وهل سيفعلون بنا هذا؟ سيستمرون في الاقتتال حتى يحققوا مآربهم أو نهلك عن آخرنا؟!

- كل شيء ممكن في عالم منسلخ من قيم الفضيلة والحب والتعاطف الإنساني المحض ومنغمس في قيمة المادة وتحكمه المصلحة وتمتص خيراته إمبراطوريات اقتصادية مهولة عابرة للقارات، حيتان نهمة تلتهم كل من

يقف في طريقها، وثمة ساسة نخاسون، مقامرون ومراوغون، يمارسون الكذب بحذق ووقاحة غير مسبوقة.

صمتت لبرهة.. ثم قالت:

- يُخادعون الشعوب المستضعفة.

- ويُخادعون شعوبهم.. وحتى أنفسهم، براجماتية فجّة تسير كل تحركاتهم.

- يا إلهي.. أين طريق الخلاص؟!

- يجب أن تتنبه الإنسانية للخطر الداهم، اليمن لن تكون الحلقة الأخيرة في معركة كسر العظم الشرسة هذه، إن لم يتدارك البشر أنفسهم ويقفون بحزم ومسؤولية أمام هذا الإعصار؛ فسوف تتلاشى أمم وتختفي دول.

- ما تقوله مخيف جدا.. هل هذه نبوءة؟! هل هي حرب عالمية ثالثة؟ الله يحفظك يا روجي تسكت دهرا ثم تنطق بالأعاجيب.. أرعبتني.

أطلق ضحكة عالية، لم تسمعها منه منذ بدء الحرب:

- لم أقصد تخويفك.. لكن الوضع خطير بالفعل.. العلاقات الدولية المعاصرة تُهيمن عليها نظرية الصراع.

- صراع.. صراع! سئمنا ذلك.

إنه صراع الكبراء الذين لا يسأمون، الذئاب تتصارع بوحشية مقرزة، والحمالان الصغيرة تُداس بين أقدامهم دون أن يأبه لأمرها أحد.. حتى الإعلام صار خادما لهذه الذئاب النهمّة، لم يعد يكرّس ذاته وأنشطته لخدمة

الشعوب والإنسانية، يكذب ويلفّق ويقلب الحقائق؛ بل ويخفي معظمها.. لا عجب؛ فالعبد عنوان لأخلاق سيده.

- وحتى متى سيدوم هذا الصراع الظالم الغير نزيه؟!

- لست أدري، ولكن إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

- أسمعت؟ قال مفعولا، يعني ثمة فاعلين إيجابيين.. أين هم؟ كم يفزعني هذا الغياب، يجب أن يظهروا قبل أن نضيع جميعنا.

صمت وهو يتأملها بإعجاب:

- ليت العالم يرى بعينيك، وينبض بقلبك يا غاليتي.

لحظة غزل افتقدته خلال زمن الحرب، تورد وجهها خجلا، ضحك وطبع قبلة على جبينها قبل أن يعاود الجلوس للقراءة.. قالت مستبقة غيابه في الكتاب الذي بين يديه:

- مرّت بي ماريا قبل ساعة وهي تلهث.

- الحوثية؟!

- لا تقل ذلك.. ليست حوثية، يخزني أن تظن هذا بامرأة عصامية مثلها.

- حسنا.. سأتوقف عن التصريح بهذا لأجلك فقط، ما هو جديدها؟

- كانت في شارع ٢٦ سبتمبر صباح اليوم.

- مجنونة.. كيف وصلت إلى هناك؟! الطرق مقطوعة والحافلات التي تقل

الناس إلى هناك تسير في طريق مغاير طويل يحتدم على جوانبه القتال، وجبهة حي ثعبات مشتعلة، لم أستطع الذهاب للمتجر لمعاونة أبي منذ يومين.

- الحقيقة لم يختلف اثنان على أنها امرأة قوية، لقد ذهبت لشراء حاجيات ضرورية للبيت؛ هكذا قالت لي عندما لمتها على ذهابها إلى هناك.. لكنها اليوم بدت فزعة للغاية مما سمعته.

- ماذا سمعت؟!

- كانت بوسط السوق حين باغت الجميع صوت انفجار هائل منبعث من جهة حي الجمهوري، دمر طيران التحالف منزلا قتل بأثر الانفجار كثيرون.

انتفض حازم فزعا كمن لدغه عقرب عند سماع ذلك:

- ماذا؟ أين؟

- في حي الجمهوري، ممّ تتوجس؟!

- أين جوالي؟

- على المنضدة.. بجوارك.

تناوله فورا:

- لماذا الجوال صامت؟ هداك الله.. جاءتنا عدة مكالمات من أبي، سترك يا رب.. هل سيتفاهم الوضع هناك؟!

قام من فوره وارتنى ملابسه على عجل.. نادته سائلة:

- حازم.. ما بك؟! اتصل بهم ولا داع لذهابك إلى هناك، منزل عمي بعيد عن موقع الانفجار.

لم يعبأ بكلامها.. أتم ارتداء ملابسه ومضى.. تدمرت:

- كم يصبح بغیضا عندما يُشغله أمر ما.. يكاد ألا يراني.

بحث عن جوالها.. وجدته خاليا من الشحن.. تأففت:

- ما العمل الآن؟ سأذهب لأشحنه في بيت مروة، لست أدري متى سيركب لنا حازم نظام طاقة شمسية؟!

انقضى النهار.. أمضته أسيرة انتظار رهيب، قبيل المغرب اتصل بها حازم.. قال بنبرة حادة:

- هل اتصل بك أحد؟

- مثل من؟

صرخ غاضبا:

- أي أحد؟

- لم أتلّق أيّ اتصال اليوم.. كان جوالي خاليا من الشحن إلى ما قبل ساعة، ما الذي يحدث؟ أنت تخيفني بسلوكك هذا.

شعر حازم بأنه صبّ جرعة خوف كبيرة في نفسها ففاض شفقة وقال مهونا:

- لا تخافي يا حبيبتى.. أعذر فلم أقصد إزعاجك، سأمضي هذه الليلة مع والدي، هل بإمكانك البقاء بمفردك ليلة واحدة فقط؟!

- يمكنني ذلك.. الجيران طيبون، لكن لماذا؟ هل حدث مكروه لعمي؟!

- لا.. اطمئني هو بخير؛ لكن يوجد عمل متراكم، علينا القيام به سويا.

لم تستطع يمن النوم في تلك الليلة.. شعرت بأن حازم يخفي عنها أمرا جللا، غموضه الذي يأسرهما معظم الوقت يقتلها أحيانا.

مكث حازم بعدها ليال متتابعة عند أبيه في مخزن بيع الأقمشة، تسارع خيف في وتيرة الأحداث يشد أعصابه، ويرفع درجة قلقه.. توالى الأخبار عن تشكل خلايا مقاومة في مدينة إب وتم تفكيكها قبل اكتمال وشيك، توتر ظاهر يهز العلاقة بين أبيه وعمه قاهر.

صرخ أخوه شمسان في وجهه منذ أيام بعدما لامه حازم على همز عمهما قاهر ولزّه:

- ماذا تريدني أن أفعل حينما أعرف مصادفة بأن عمنا المبجل ضابط سري، يعني جاسوس ببطاقة أمن.

- تعقل يا شمسان.. هذا شيء كان في الماضي.

- عن أيّ ماضٍ نتحدث؟ ألا ترى ما نحن فيه؟! الماضي ما يزال قائما بيننا، متشبهاً بكرسيه ومنتمرا علينا، مغروزا في رقابنا كنصل سرمدى.

سكت حازم.. زفر شمسان وتابع:

- هل كنت تعلم بحقيقة عمنا المبجل؟!

- نعم.. لكن هو عمنا رغم كل شيء.

استشاط شمسان غضبا وحرك كفيه بهستيريا قائلا:

- هذه هي المداھنة التي أضاعت الوطن وستضيع الدين، ودوا لو تدهن

فيدهنون.

- رعاية صلة الرحم ليست مدهانة، فكّر فيما تقول قبل أن تنطق.
- عمك المبجل ينظم لقاءات سرية للحوثي في بيته، يعطيهم لائحة بأسماء رجال المقاومة، يعني خائن.. وعقوبة الخائن الموت.
- أهوى حازم بكفه على وجه شمسان فأوقعه أرضاً، انتفخت أوداجه ودنا منه مهتاجاً.. ثبّت عينيه في عيني شمسان، وقال مهدداً:
- تأدب والزم حدودك يا ولد.
- خنس شمسان ولم ينبس.. استعاذ حازم بالله، وتباعد عنه، مسح شمسان قطرة دم سالت من بين شديقه، رمى أخاه بنظرات حارقه ثم فح قائلاً:
- ديني هو أدبي، وحدودي خريطة الوطن.. أقسم بأني سأقتل كل خائن لها.
- أهوى حازم بيديه على جسد شمسان الهزيل، رفعه ممسكاً بياقة قميصه:
- وأنا أقسم بالله العظيم إن بلغني أنك عاودت التردد على مجاميع الدماجين فسوف أقيّدك بيدَيّ وأرميك في بדרوم هذا المخزن حتى ترجع إلى صوابك، أو تنتهي هذه الحرب الشؤم.
- قال ذلك ثم قذف به وسط كومة أقمشة، وتحرك غاضباً:
- عن أيّ خيانة تتحدث؟ كلهم أوغاد، الجميع يستعدي الخارج على وطنه.
- تنفس حازم بعمق واسترد هدوءه بجهد ليتلف بأخيه.. اقترب منه وقبض على كفه.. قال له بنبرة عميقة:

- اثبت يا أخي ولا تهزك الشعارات الزائفة.. سيمر الطوفان ويكنس الغناء، وأما ما ينفع الناس فسيمكث في الأرض.. الزم الأرض الطيبة وانفض عنك هباء الزيف.

جانب صلب حاسم من شخصية حازم، ربما لم تر منه يمن ملمحاً، أو قد تكون رأته بعين المحبة مرة أو مرتين، ولم تتمكن من لمس مدى قسوته.

يعرف كل أفراد أسرته عنه ذلك، يخشاه الجميع ويهابونه ضعف ما يهابون أبيهم؛ الذي منحه صلاحيات واسعة لضبط سلوك البقية ثقة منه في رشده وسداد رأيه وعدله.. يتحدثون بإعجاب عن ثوراته المحدودة الصائبة، يصفونها بغضبة حليم، ومن الحكمة أن تُجتنب.

التحق عدد من أصدقاء حازم بصفوف المقاومة في تعز، كان يرقب مصرعهم بارتياح متزايد، كلما وارى أحدهم قبراً أحسّ بأن جزءاً من عالمه يُطمر وتأكله بؤرة تراب.

يمضي وهو يردد بأسى "الإنسان بنيان الله في الأرض، وملعون من هدم بنيان الله".



سامية.. الفراشة المتألّمة..

منذ صلاة العشاء وهي ملازمة حجرة نومها تتبّتل في محرابها وترجو من الله فرجا قريبا، مدّد قدميه أمام ناظرها وهو يتلو ورده اليومي، ختم التلاوة بدعاء هامس، تحرّك خياله على الجدار؛ خفت لهيب الشمعة مع حركته ثم علا، اختلست النظر نحوه، مدّ يده وتناول كتاباً من خزانة الكتب وجلس في الزاوية بقرب الشمعة يقرأ ويسجل تعليقاته في حواشي الكتاب كما هي عادته، مسحت شمس بصرها ما يصحّ تسميته بهو البيت الذي لا تزيد مساحته عن خمسة في ستة أمتار.

اشترته من ماريا مقايضة بكل ما اقتنته من مجوهرات طوال حياتها مع صكّ دين برقم كبير.

تشعر بغصة كلما تذكرت مجوهراتها العزيزة على قلبها، تقارن حالها مرارا بحال نساء "صعدة" تتساءل دوما ماذا عنهن وقد سلبتهن الحرب كل شيء؟ فقدن أبناءهن وأزواجهن.. هُدمت بيوتهن.. قُتلت أبقارهن ودواجنهن.. أُحرقت مزارعهن.. سلبت مجوهراتهن باسم المجهود الحربي، برغم كل هذا الظلم الواقع عليهن يظهرن سرورا عجيبا.

يطلقن الزغاريد يوم يأتي إحداهن نبأ مقتل ابن، وتنذر بإلحاق الثاني والثالث به، مظلمتهن كبرى، وغباؤهن ليس له نظير.

قالت ليمن ذات مرة لقد تنازلت عن مجوهراتي بوعي تام، ومع ذلك أشعر ببعض الحزن عندما أستحضر بأن الحرب هي من دفعني لهذا القرار،

لست أدري هل غبت أم ربحت في هذه الصفقة؛ لكن المهم هو أنني فعلت ذلك بوعي ولم أخدع.. يكفي تخلصنا من ذل الإيجار ومن صاحب البيت سيئ الخلق، لم أخبر أمير بأنه هدد مرة بوضع قفل على الباب من الخارج عندما تأخرنا في دفع الإيجار بعد فقد أمير لعمله بسبب الحرب، رغم صغر هذا البيت إلا أنه نعمة جلية من الله.. أنقذنا به من طرد وتشهير كاد يوقعه بنا صاحب ذلك البيت الكئيب المسكون بالطاقات السلبية.

يومها، سرت بضع خطوات في البيت وتنهدت. فهم أمير شعوري على الفور فقال مواسيا :

- لا تخزي يا حبيتي، يوما ما سوف أكمل البناء على ما تبقى من مساحته، سأجعله لك قصرا.

تسترجع شمس تلك الذكريات وهي تعاود النظر نحو أمير المنهمك في القراءة، عادت تفكر وهي تحاول استبصار المستقبل.. تُرى هل سندرِكُ زمنا جميلا في هذا الوطن الملتحف بالعناء، المعمم بالجهل.. هل سنكمل بناء بيتنا.. حياتنا المستقبلية أنا وأمير، كما خططنا طويلاً في سهرات ممتعة امتدت حتى طلوع الفجر..؟! هل سيُشيد أمير هذا البيت بالحديد المسلح كما يحلم؟ يتداركه قبل أن يهوي سقفه الخشبي فوق رؤوسنا بفعل الضربات المتوالية من الطائرات التي لا يحلو لها إطلاق الصواريخ إلا من قاعدة وهمية تتمركز فوق مساحة فراغ قريبا من سماء هذا البيت الصغير جدا، أو بفعل قصف وحشي مستمر من دبابة الميليشيا القابعة على تلة قاب قوس أو أدنى منه؟ يا لها من تقلبات رهيبة باغتتنا ومادت بسفينة حياتنا لجزر نائية من عوالم الخيال.

لو أن أحدهم أخبرني قبل الحرب بأني سأعيش هذه التجربة المستحيلة على مدار عام وسأصمد فيها محتفظة بكافة قواي ومثانة أعصابي ورباطة جأشي وخلايا دماغي وتناغم دقات قلبي.. حتما كنت سأضحك منه لدرجة السقوط أرضا ثم أرميه بتهمة الخبل والتهويل والخيال المفرط.

حتى عندما رأيت تلك الرؤيا عن تمدد الحرب، لم أتوقع أن تكون بهذه الوحشية، لقد عاصرت كل ما لم أتخيله يوما قبل بدء الحرب من رعب السلاح والافتتال، اكتشفت بعدها أني امرأة قوية، عصرتني تجربة الحرب مرارا وأخرجت خبايا نفسي.. بعثرت ذاتي لمرات وأعادت صياغتها من جديد، تجرعت غصصا مرة وأنا أرى وطني مستباحا من الجميع، اشمأززت من عروبتني وأنا أرى بعض الأصدقاء العرب يوصدون بوابات سفاراتهم ويغادرون بلادي معلنين رفض بلدانهم استقبال أي مواطن يماني قد يفكر بالهرب من نيران الحرب نحو بلدانهم.

أعيش وزوجي في زمن الحرب على مساعدات الأهل والأصدقاء، كل لقمة من جيب معونة تحزني كموس جديد.. لم أتخيلني أعيش يوما على الصدقات في وطني.

أنا وأمير من الفئة المثقفة، نخبة المجتمع خدعونا بهذه التسمية ثم استحوذوا على كل شيء.

علمنا الجميل رغم بساطته ينهار بأكمله فجأة، كرهت لوهلة هذا الوطن، غدا تهمة لا براءة منها.

بقيت زمنا على هذه الحال حتى ليلة أمس، مد لنا جارنا بسلك كهرباء من مولده، تابعت نشرات أخبار شتى لعل بصيص ضوء يلمع من خبر منقذ

مبشرا بانحسار المد وباقتراب موعد طي صفحة الموت والخراب، لم أجد
سوى مزيدا من خبال، ضاع وطني وضعنا جميعنا بضياعه.
كان أمير ممسكا بالريموت يقلب القنوات. صحت به:
- لحظة.. قف هنا.

تجمدت مذعورة عندما رأيت أخوتنا السوريين يهجرون عنوة من
وطنهم، يتشرون في أوروبا بمكر خبيث، رأيت في تقرير حول أوضاعهم
بعد التهجير رجلا كهلا موفور الصحة تم تمكينه من عمل في مصنع بألمانيا،
ولكنه يعترض ويصرخ:

- أريد وطني.. أريد سوريا.. أنا هنا رغما عني..
العبارة الأخيرة لم يقلها حرفيا؛ بل قالها دموعا.

وضعت يدي على قلبي المحزوز بطعنة إفاقة، شعرت بنبض حياة يوقظ
مكمن عشقي لوطني.. بقاع نور وفخر واعتزاز، كانت قد اسودّت وغمرها
رماد الغضب لزمان، رأيتها تستيقظ كجمهور غفير، تهب واقفة وثائرة؛
كهارد أفاق بعد طول رقود، اهتز وجدان وطنيتي وتوثب.. نفص عنه ركام
الرماد..

سالت دموعي رغما عني ثم نظرت إلى أمير:

- هل سيفعلون بنا هذا؟

كان أمير مختنقا بعبرة وجع.. سكت.. وحينها خبت بركان غضبي من
وطني، تبدد سخطي دفعة واحدة كأن لم يكن. همست باعتذار:

- ما معنى الحياة دونك يا وطني.. ما قيمة العيش دونك يا تعز؟!

أوصد أمير دفتي الكتاب، تمطى قليلا وهبّ واقفا.. لمحته مقبلا فتناومت على مخدتها، نفسها مثقلة بهم كبير ولا رغبة لها بشيء، حتى بمجرد الكلام.

استوقفه صوت طرق متتابع على الباب، انقبض صدرها. همست:

- من سيزورنا في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟!

- من على الباب؟! سأل أمير..

جاءه صوت امرأة مشنوق بنوبة بكاء:

- أنا سامية.

قفزت شمس من بقعتها عند سماع صوت سامية.. قالت باستنكار:

- سامية؟!

فتح أمير الباب قائلاً:

- خيرا إن شاء الله.

مطّ عنقه للخارج:

- ادخلي.. الوقت متأخر.. هل جاء ماهر معك؟!

- اعذروني.. لم أستطع الصبر حتى طلوع النهار.

هوت بجسدها نحو شمس، احتضنتها وبكت، لم تدر شمس ماذا تفعل؟

بدا حال سامية مريبا.. بعد لحظات التفتت سامية نحو أمير متوسلة:

- ماهر.. أدركه يا أمير، لن يثنيه عن فعل ذلك غيرك، أرجوك.

أهوت برأسها نحوه وهمت بتقبيل كفه، تنحى مبتعدا وقد أجمته وشمس الدهشة وأخذهما من سلوكها العجب.. ضمّتها شمس إليها:

- بسم الله الرحمن الرحيم، سامية اهدئي.. أمير ناولني كأسا من الماء.

قبضت سامية على ذراعه:

- لا أريد ماء، أريد ماهر، أرجعه لي.

لم تتمكن من إتمام كلامها، وانخرطت بالبكاء، خارت قواها بغتة، وقعت على الأرض. تلقفتها شمس لكنها غابت في إغماءة.. ولولت شمس مفزوعة.. نهرها أمير:

- تماسكي.. نحن في منتصف الليل.

لملمت شمس شتات نفسها، وسّدت سامية على ساعدها، طرقت بكفها على خدها فلم تفق، نظرت نحو أمير وذهول تام يشل وعيها، صب أمير الماء على وجه سامية التي بدأت تسترد وعيها رويدا رويدا.. انخلع قلب شمس وجعا لحالها:

- يا إلهي.. ماذا حدث لك؟!

أخرجت سامية من حقيبة يدها ورقة، تناولها أمير من فوره وقرأ بصوت مسموع:

"حبيتي،"

لم يمكنني احتمال رؤية دموعك في لحظات الوداع.. أعرفك ستسكين الدمع نهر وداد يجتاحني لأبقى غريق بحر جبك الدافق.. لن تدعيني

أمضي بمفردي، سوف تتشبثين بملابسي كطفلة تمسك بثوب أبيها في سوق مزدحم.

ستصيرين على السفر معي، ستثورين كنمرة جريحة إن أنا رفضت ذلك، لا يمكنني إخماد جحيم غضبك الذي غدا ينفجر براكيننا بعد سبات طويل، لذا هربت.

أعترف بأني جبان حين هربت، يحق لك أن تصميني بالحقارة، ابغضيني قليلا لبعض الوقت، اجلديني بغية أبيع لك فيها كلي.. لكن بعد ذلك أوقن بأنك ستلتمسين لي العذر، عندما تقرئين هذه الرسالة سأكون قد ركبت البحر نحو جيوتي.

الحياة في الوطن غدت غربة موحشة، وموت بطيء، الأوضاع لا تطاق في زمن الحرب، البطالة تنخرني من الأعماق كسوس حقود... يراودني رفاقي مرارا للانضمام لصفوف القتال.. هل أحمل السلاح؟

هي الوظيفة الوحيدة المتاحة في هذه الأيام!

لقد وُضعت بين خيارين كلاهما مرّ، إما الموت بمطرقة البطالة وسندان الفقر والعوز، أو الموت المعنوي بحملي للسلاح الذي أمقته طوال حياتي.

لو بقيت بجوارك مطحونا في هذه البيئة المضطربة بظروفها القهرية؛ فسيموت بداخلي كل شيء جميل يجعلني قادرا على منحك الحب، ومنح زواجنا الحياة.

أقرضني حازم مبلغا من المال، تركت لك نصفه عند يمين، لا تلومي أحدا لعدم إخبارك بعزمي على السفر، منعت الجميع من ذلك.

حببتي،

أعدكِ بالأُطيل الغياب هذه المرة، سأعود سريعا عندما تتوقف هذه الحرب اللعينة، كوني كما عهدتكِ محبة وصبورة.
زوجك المحب ماهر.."

لم يتم أمير قراءة الرسالة حتى عاودت سامية النحيب.. بكت وبكت حتى كاد حلقها ينشق، لم تفلح شمس في تهدئتها، كانت منهارة تماما، وعندما أسلمت نفسها لإغفاءة طويلة شعرت شمس ببعض ارتياح.. لم تكن تعلم بأن صديققتها المسكينة قد ذهبت نحو برزخ مجهول، ربما لن تعود منه أبدا.
أصيبت سامية بحالة سبات، قال الأطباء بأنها نادرة الحدوث.

ولولت أمها وهي تسمع ذلك منهم، صكّت خدودها وتمنّت لو أنها وقفت بصلابة في وجه سامية ومنعت زواجها من ماهر.

عندما بلغ ماهر نبأ سقوط سامية في بؤرة الغياب هذه، لم يصدق في البدء، حسبها خدعة لإرجاعه، ثم بعدما تيقن من حدوث ذلك غرق في لجة حزن خانق، تمزق قلبه تحت سياط الندم، حزم أمتعته وركض نحو الميناء ووجه سامية البريء يلسع عينيه..

كان يمني نفسه بأنها ستفيق حتما عندما تسمع صوته، ستغادر سباتها وترجع من هذا البرزخ.. كان يقول لنفسه ستعود من أجلي.

دخل ماهر إلى الميناء ليجده قفرا، لقد علقوا جميع الرحلات حتى انقضاء موجة الأعاصير التي تضرب البحر الأحمر بوحشية ليس لها سابقة.

ملحمة حب ماهر وسامية بدأت بست سنوات خطوبة، وخمس سنوات عقد.

غدت حكاية سامية مع ماهر أنموذج صبر طال وامتطّ حتى عجب منه الجميع.

عنست سامية وهي تنتظر ماهر الشاب الطموح، الذي يأبى الدخول بها في بيت زوجية بالإيجار، أو في بيت أسرته كما يفعل كثير من الشباب، يريد منزلا خاصا، النجاح والثروة والتفوق البشري غايته، دافع الإنجاز لديه عاليا في بيئة عقيمة، ووطن منهوب، يقتل الطموح ويبدد الأحلام.

نظر حوله.. وجد كل بناء نجاح أو مجد ليسوا إلا مغتربين أو مهاجرين أو متنفذين أو لصوص.

من بين كل هذه الخانات ثمة خانة واحدة فقط يمكنه اقتحامها، لديه سجية خلق رفيع تمنعه من فعل القبائح، يملك قلبا حرا ينبض بالوطنية، لم يستطع الوصول لبلاد العم سام أو لأوروبا أو للخليج.. ليس لديه أية قرابة في تلك البلدان المتخمة بالثروة، جميع أقربائه فلاحون أو مثقفون كادحون.

لم يبق أمامه سوى جيوتي، منفى أحلام فقراء اليمن، بعد مضيّ سنة على الخطبة رحل ماهر إلى جيوتي، قضى هناك خمس سنوات تباعا، دشّن بتماها أساس البيت الخرساني، أراد الغياب لأمد طويل حتى يقطف كل حلم يلوح في وجدانه الطامح؛ لكنه رجع مرغما بعد مكاملة مشتعلة بالغضب، وتهديد شديد اللهجة تلقاه من عمته.

هاتفته غاضبة.. إن لم تأتِ لإتمام الزواج فوراً؛ فسوف أزوّج ابنتي سامية لأول خاطب يطرق علينا الباب، زوّجت جميع أخواتها وصرن أمهات وهي قابعة ببرودة أعصاب تنتظرك.. الناس أكلوا وجوهنا بوقاحة أسألتهم ومتى سيرجع العريس؟! وأخواتها ألهبوا كبدي بسؤال أين خطيب ابنتك؟ متى تتزوج؟ حتى متى يبقّيها معلقة؟

كل هذا يحدث وأنا أعرض على وجعي وأكتم الأمر عن أبيها، أنت تعلم بأن عمك مريض بالسكر، ولا يحتمل كل هذا الضغط.. قلت لها اتركيه يا بنتي وابن خالتك جاهز للزواج منتظر إشارة منك لكنها مسحورة بحبك ولا أدري لماذا؟!

وأنت ولد مستهتر بلا ضمير وبلا إحساس.. هل ستترك البنت معلقة حتى تعنس؟! خاف الله يا ولدي.. هي قبل كل شيء بنت عمك، عرضك وشرفك يا قليل الشرف.

عاد على عجل بعد سماعه لهذا السيل من السباب الغير مسبوق، تم عقد القران

لم يبق سوى القليل لإتمام بناء البيت.. توسل لعمته:

- سنة فقط وأعود لتتزوج.

لمحت نظرة رضا في عيني سامية؛ فسكتت وأذنت له مكرهة، رجع لإتمام الزواج بعدما ضاعف المدة، ولكن مات أبو سامية فتأجل زواجهما لعام آخر.

انطلقت ثورة ١١ فبراير، جرفه موجها الواعد بإزالة الفساد واجتثاثه من جذوره، شفيت نفسه لوهلة في زخم توهجها من إحباط الانتظار ووخز أمل بغداد لا يرغب بالمجيء أبدا، تبددت سستان في نضال كان يراه واجبا مقدسا، أضافت الأم رقما جديدا للمود صبر ابنتها المعجز!

قررت سامية العودة لمقاعد الجامعة التي تركتها في المستوى الأول، لم تُقبل في الجامعة الحكومية.. فاتتها الفرصة.. قيل لها لقد تأخرت كثيرا. التحقت سامية بجامعة خاصة، ورَّحِبَ ماهر بالفكرة ودعمها ماليا. هام هو في مهابِّ الثورة وبقيت هي صابرة، تتبَّلت في محراب عشقه بصمت، وتنتظره بحب ورضا.

بعد خبو لهيب الثورة.. رجع ماهر من ساحات نضاله الأخير مجلَّلا بهزيمة أثخنه جراحا.. يدندن بأبيات "للبردوني" قديمة لكنها حاضرة:

لماذا العدوُّ القصي اقترب؟

لأن القريب الحبيب اغترب

لأن الفراغ انتهى الامتلاء

بشيء فجاء سوى المرتقب

لأنَّ الملقَّن واللاعبين

ونظَّارة العرض هم من كتب..

لماذا استشاط زحام الرماد؟

تذكر أعراقه فاضطرب!
لأن "أبالهب" لم يمت
وكلّ الذي مات ضوء اللهب!
أضاعت "أزال" بينها غدت
لكلّ دعي كأم وأب
وأقعت لها قلب فاشيّة
ووجه عليه سمات العرب!
لماذا الذي كان ما زال يأتي
لأنّ الذي سوف يأتي ذهب!
لماذا؟! ويمحو السؤال.. السؤال
وينسى الجواب اسمه واللقب
ويُضني المغني يديه وفاه
وشيء يُجلد حسّ الطرب
ويصحو الغرام يرى أنّه
على ظهر أغنيّة من خشب!

وصار قلب ماهر قطعة من خشب، طمره يأس كئيف، جاشت نفسه
حزنا وإحباطا.. غدا مختلفا وأضحى ساخطا، غاضبا طوال الوقت.. يمقت
الدنيا ويلعنها صباح مساء.

رغب بالسفر مجددا.. حينها لم تملك سامية سوى إشهار سلاح الأنثى
الذي لم تسلطه في وجهه من قبل، جثت على ركبتها أمامه وبكت بانتحاب
مرير.. المرة الأولى التي تبكي فيها المرأة أمام رجلها المختار؛ في لحظة تجرد
وبوح إنساني فريدة، تستحيل دموعها مطارق ضخمة تقع على وعي الرجل..
تهشم جلمودا يحجب بصيرته..

تهاولى ماهر بقامته العالية، وتضائل منكمشا أمام تجلي ضعفها الصافي
البريء.

انهارت في لحظة كافة مقامات غروره، وهوى عرش نرجسيته، فجأة
التصق بذاته الناعمة وقدر موقف سامية، رآها محقة بوضوح.

تقبل ضعفه البريء المتهم وسحّ معها دمعا نقيًا ساخنا أذاب جليد سخطه
وأطفأ لظى غضبه.

أحس بتوازن رائق غشي أعماقه.. خلود للأرض، للأم، للأنوثة المتعطشة
توقا للمنح والحماية ولبذل العناية.. شعر بحاجته الجاحمة لحبها، لحنوها،
لالتصاق بها، للغوص في نهر عطائها، للغياب في جنة عشقها الصامت،
للتمرغ على عتبة صبرها الطويل، للتلزف بمحراب إخلاصها النادر والتطهر
في كوثر عفتها والاغتراف من نبعه العذب، للغرق في لذته المعسولة المنتظرة
باحترق لسنوات.

وكان يوم زفافهما.. مهرجان سرور منقطع النظر.

اشتعل ليل الحي بأنوار منبعثة من مولد كهرباء ضخمة جلبه أصدقاء ماهر لإحياء سبع ليالٍ لفرح ماهر وسامية، الفرحة المنتظرة منذ أكثر من عقد.

جاء رفاقه بصحبة زوجاتهم و أبنائهم، قدم أخوه الوحيد المقيم هو وأسرته في جيوتي؛ لحضور الزفاف، ظهر بينهم بشكل مفاجئ في صبيحة يوم العرس فضاغف حضوره سرور الجميع.

وقف أبو ماهر مشرّح الصدر يستقبل المهنيين، طافت أمه بسامية وهي بين يدي ماريا تحملها؛ تتلو حولها المعوذات وتدير المبخرة بعود وبخور عدني، وطفقت أمها ترفرف وتطلق الزغاريد بفرح كفرح الطيور.. بكت لوهلة من شدة الفرح.

ذبحت العجول، وأطعم جميع سكان الحي، استحالت ساحة الحي الواسعة مسرحاً لرقص الرجال والفتيان، مُسجل كبير يشق صوته الفضاء بترديد أهازيج الأعراس ليل نهار.

مر شهر.. شهران.. عدة أشهر؛ سامية تترقب بتوجس تكوّن طفل بين أحشائها، تصلي بلهفة وتعجل ليأتي وليدها، لم تبدِ بعضاً من شغفها هذا طوال سنين صبرها منتظرة مجيء أبيه.

لم يحدث ما أرادت.. همست لها الأم:

- قلت لك مرارا عجلي بالزواج، عماتك قليلات الإخصاب.. لم تصغي لنصحي، سرقتك سكينه الحب.

ذهبت سامية لطبية ولأخرى.. اختزلت كل صبرها وتقيأته دفعة واحدة سعيًا لاهثًا لمجيء طفلها.

ذهبت أخيراً الطبيب مشهور قال كلمة الفصل "تلقيح صناعي".

تكلفته أتت على جميع مدخراتها، حملت سامية بطفلها المنتظر، ابتهج الجميع، وابتسم ماهر برضا فحل موفور العطاء.

وفي اليوم القاتم المفردات، الكئيب المحيا، الذي صب فيه القدر بؤساً منقطع النظير على سكان تعز.. كان حظها العاثر يهوي بها على طريق سوق الجملة، ذاهبة برفقة ماهر لزيارة والدته التي تسكن قريباً من جولة القصر، حينما شقّ بطن السماء بغثة كائن فضائي غريب؛ لامع كبرق حارق، مرفوق الرؤوس المكتظة بالأمل العاثر، اجتاز البقاع بلمح البصر متوهجاً صاخباً كبوق يوم المحشر، مخترقاً فضاء السوق كوحش خرافي فاغراه.. ملأ الروع قلوب الناس وهم يلمحونه متوجهاً كسهم فناء نحو خاصرة مبنى القصر الجمهوري.

أيّ فصل من شقاء الإنسانية ذلك الذي نزل منه هذا القدر على سامية وهي تتهاذى في سيرها الوئيد، آمنة مطمئنة بكل حبور الأنثى، تنتظر برهان كما لها الفطري، ترسل يدها بتلطف وخفة روح متأبطة ساعد فارسها، محيطة بطنها المتفتح بخمسة أشهر بيدها الأخرى، تغدق على الضيف المحتفى به حناناً ورعاية وتلهفاً ملتهباً للقاء.

تهاوى مبنى القصر.. وتهاوى معه جسد سامية الواهن الضئيل، غابت من فورها عن الوعي، موت مؤقت سكنها كغزو مباغت، شلت الصدمة

شعور ماهر.. تلقف حبيبته بين يديه ركام إنسان، سال فلذة كبده تحتها دما ساخنا في مشهد يدمي القلب.. سقط القادم المؤمل على قارعة الطريق، تدرج بدفع شديد وتكوم لحما، انزوى قريبا منهم ضيلا متغصن الجلد وباهت القسمات، تناثرت دماؤه بين أتربة وشظايا تطايرت من مبنى القصر المتهتك الجدران، اختلط رماد ماض أسود مع احمرار غد مؤؤد.. خطأ معا لون فناء قان.

هل غضب طفل سامية لهجمة الغريب القادم من عدم؟ هل استشعر قبح الزمن الموعود؟ هل فرّ من غد مشوه كمنسخ شره متوحش؟!

كان وقع المصيبة على ماهر أعظم منه على سامية التي أفاقت لتجد جوفها فارغا من حياة.. استعصى عليها البكاء المحبوس كحجر مدبب بين أحداقها، شتق روحها سؤال ملح أين سبيل الهروب من دنيا البشر القبيحة هذه؟! تمت موتا عاجلا واستمطرت جنونا يُنسيها فجيرة عمر سرقة أحلام واهمة وقسوة بني الإنسان.. مرّت ساعات صمت رهيبة، طافت فيها سامية بين عوالم شتى، دوار وغشاء نفس أحسّته دام قرونا في حيز وجدانها.

فجأة عادت بقوة خفية لوعي تام، كان مهددا بين لحظة وأخرى بغياب أبدي، تأملت ماهر ممسكا بكفيها بتلهف وفزع، حاسر النظرات، كسير النفس، ملتهب الفؤاد، جامد الدمع ومتشعث الهيئة.. نظرة واحدة في عيني ماهر كانت كافية لمنحها قوة من لون آخر، لم تحتمل سامية رؤية حبيبها مأسورا في قيد فجيعتها، متوجسا حد الفناء من خطر قد يُذهب بها.. قرأت بين أحداقه رعبا مميّتا ويأسا طاحنا.. صوت بداخلها يصرخ؛ سيموت حبيبي إن لم أتمالك نفسي، وأقبل هذا القدر بشجاعة.

يا لعظمة المرأة المحبة.. في لحظة واحدة تحولت من ضحية لمنقذ، من ريشة متطايرة بين إعصار عذاب مسّه جنون، صارت كطوق نجاة وادع بسكون.
لحظة غوص عميقة في نفس حبيبها جعلتها امرأة خارقة تركب صهوة مهمة إنقاذ مصيرية لا يصلح لها سواها.. ماهر هو الماضي والحاضر، هو سبب وجود المفقود، وهو أمل عودته من جديد.. لن أضيعه لن أفقد قلبي مرتين.

جلست على سريرها بشموخ عاشق وسطوة متيمة بحضور فروسي فريد، ابتسمت مطلقة ساعديها في الهواء، فرشت صدرها مهاد حنو ودفع وأمان..

همست له:

- تعال.. ضُمّني بقوة.

ارتمتي ماهر بين أحضانها وبكى، نشج حتى تشرج حلقه وانشق وجعا، انفكّ حبس دموعها وذابت أحجاره وعلا صوت نحيبها حتى صدّع الفضاء.

تحرّر من ضعف موهن.. حفلة تقيؤ ألم.. صياح تفرغ وصخب شفاء مزّق من حولها سكون مهيب متشح بالقهر، وترقب كسير لصدى الصدمة من أحبّتهم الملتفين حولها.. انفرجت أسارير الجميع وانصرفوا وتركوهما.



الحاجة جوهرة

في منتصف ليلة ماطرة باردة، فتحت السماء أفواه مزن محتقنة على جميع أحياء مدينة تعز، ثلاث ساعات طوفانية تموج في ليل المدينة، ملأت قلوب جميع السكان بالرهبة.

الأمطار الغزيرة تتوالى دون انقطاع، تنهمر بتدفق باذخ.

استقبله بعض الناس بالفرح مبتهجين لامتلاء خزاناتهم الأرضية بالماء، واستقبله آخرون بالوجل بعدما بدأت قطرات منه تتسلل من شقوق أسقف منازلهم، تسبب المطر الغزير للبعض بكوارث، جرفت مياه هذا الغيث المنهمر عدة بيوت قديمة مبنية على أراض ترابية هشة.

في منزل الحاجة جوهرة بدا الموقف مروعا، أعلنت الجدة جوهرة حالة الطوارئ في البيت.. أيقظت النساء وأمرتهن بارتداء الحجاب، استجبن لأوامرها وقمن بإيقاظ الصغار وأخرجن الملابس الثقيلة من خزانة الملابس ارتدوها جميعهم كبارا وصغارا، فزّ كل من في البيت فزعا وتأهبوا، أخذوا كافة الاحتياطات تحسبا لحدوث الكارثة.

الجدة تدور متعثرة بأكوام البشر، في البهو الضيق الممتد بين حجرات البيت الثلاث.

بيت صغير بنته جوهرة حديثا لأحفادها الأيتام، فقدوا أباهم منذ سنوات، البيت مكتظ منذ بدء الحرب بجميع أفراد أسرتها الكبيرة، ثمانية

وعشرون فردا رجالا ونساء وأطفالا مهددون بالموت غرقا بمياه المطر المتجمع في حفرة ضخمة محاطة بسور هشّ، تربض قريبا منهم كوحش متربص بهم.

إن استمر هطول المطر حتى الصباح سينهار ذلك الحائط حتما ويغرقهم. همهمت جوهره بغيط:

- أيّ نوع من الجيران هذا الوغد؟! كم مرة قلنا له بأن الحائط الذي أقامه بجوار منزلنا يحتجز مياه الأمطار فتتكون منها بركة كبيرة تهدّد منزلنا بالغرق، تسبح على وجهها أكياس القمامة ويتكاثر فيها البعوض، توّسلنا له مرارا يقوم بردمها أو فليتم البناء لمنع تجمع ماء المطر فيه لكن دون فائدة، هذا الرجل يريد قتل أبنائي خاصة، وقتل جميع أهل الحي بالآفات التي ينقلها البعوض المتكاثر في مستنقع حائطه المشؤم هذا.

كانت جوهره تتّقد غضبا، والصغار يغالبهم نعاس لذيذ، صوت المطر يجعل مداعبات النوم ممتعة مدغدغة لا تقاوم.

نهرتهم قائلة:

- ابقوا مستيقظين، قد ينفجر هذا الحائط اللعين في أيّ لحظة ويغرقنا جميعا.

أمضت الليل بطوله تذرّع مساحات البيت وتأمل وجوه أسرته بقلق، نصفهم نازح عندها، هجروا بيوتهم في الأحياء المحتدم فيها القتال، يتجمد شعورهم وهم يرقبون السيل السماوي بتوجس، تخرج جوهره بين الفينة

والأخرى لتنظر عبر الباب، تهبّ زخات مطر باردة فترشقهم وهم مرابطون بالقرب من الباب استعدادا للهروب في أية لحظة، كانت الرؤية مستحيلة، القمر المكتمل في نصف الشهر مغطى بركام غيوم سوداء، جميع بيوت الحي ساكنة هاجعة، المعارك هدأت بسبب هطول المطر، ومعظم السكان ينعمون تحت الأغطية في سبات عميق عدا أصحاب البيوت ذات السقوف الخشبية والتي يتسلل المطر من شقوقها فيقلقهم.

هجست جوهرة:

- يا الله خارجنا، حفيدي همدان يحرس بيت المدير، وعمه مرابط في عمله بمديرية شرعب، أين أذهب أنا وكل هذه الأنفس تحت هذا المطر الغزير؟ أتقل بهم لبيت أحد الجيران؟ لكن عددهم كبير، ثم من سيرغب في استقبالنا في مثل هذه الساعة؟! الجيران كلهم طيبون؛ لكن الإنسان يعز نفسه ولا يرميها بموطن ذلة.

ترفع وجهها نحو السماء:

- يا رب لا تفجعني في أولادي أو في بيتنا، أنت تعلم كم عانيت حتى بنيت هذا البيت ليكون مأوى لنا.

أصوات تساقط المطر تنزل على مسامعها كمطرقة خراب، تتضاءل جوهرة رعبا من قوة طبيعة لا تقاوم.

كانت الأمطار تغمر كل مدينة تعز، الرعد بوق شديد والبرق سيف صقيل، حتى الأمطار في الحروب تتشح بإهاب مرعب.

طالت ساعات الانهار حتى تجاوزت الأسحار، غادر النوم جفون
الكثيرين، بدأ القلق يدب في نفوس الناس، الألسنة انطلقت تلهج بالدعاء
اللهم سقيا خير ورحمة لا سقيا هدم وعذاب.

شعور بإجلال لرب السماء ملأ الأنفس، لم تر تعز موسما مطرا كهذا
الموسم منذ عقود.

انشق الفجر مطمئنا الأنفس المتلهفة للخروج من بوتقة خوف يشل كيان
المدينة التي كادت أن تغرق لولا لطف الله.

ربما لو لم تكن مدينة تعز جبلية التضاريس تنساب خلال وديانها مياه
الأمطار لكانت غرقت في هذه الليلة لا محالة.

بعد طلوع الضوء.. كانت جوهرة تقطع الطريق المرتوي من ماء السماء،
تنطلق كالسهم مضيا نحو مالك ذلك الحائط، سارت بخفة ورشاقة ابنة
الثلاثين وهي على أعتاب الثمانين من عمرها.

كانت تتقافز بأقدامها الصغيرة وسيقانها النحيلة ببراعة على رؤوس
الأحجار المغروزة بطول الطريق الترابي، تتخير مواضع أقدامها بدقة تجنباً
للوقوع أرضاً من شدة تطين الطريق بعد المطر.

في طريقها التقت بماريا التي اعتادت الاستيقاظ مبكراً والخروج للتسوق
كل يوم، ألقت على الحاجة جوهرة التحية:

- صباح الخير يا حاجة، حمداً لله على سلامتكم، كم خفت عليكم من
الغرق ليلة أمس.

- أين الخير وهذا الجار السوء مصمم على قتلنا بحائطه الشؤم الذي أقامه كسيف موت مسلط على رؤوسنا؟ " لا إنه أتم بناءه ولا إنه ردمه.

- صدقتِ والله، أين الخير والناس صار كل واحد يقول نفسي نفسي.

- نفسي نفسي؟! حسنا.. أنا سأعلمه كيف يرى حق غيره مثلما يفكر بنفسه، ماذا يظن في عقله؟ أني سأبقى ساكنة حتى يقتل حائطه أولادي؟! لا والله وأنا بنت أبي!

- يعني أنتِ متجهة إلى عنده الآن؟

- نعم.. وإلا كيف، وإلى متى أصبر عليه؟!

- لماذا لا ترسلي الرجال يتفاهمون معه؟!

- هذا ليس وقت الرجال يا بنتي، البلاد مضطربة مختلة وبلا نظام، وأولادي الغضب يلعب برؤوسهم، أخاف أن يقتلوا معه، هذا ليس وقت المشاكل، البلاد خربت.

- صحيح.. خربت جدا، البركة فيك، أنتِ بمائة رجل.

هزت جوهرة رأسها رضا بعبارة ماريا الأخيرة، وصلن لمفترق طرق، توقفت ماريا لوهلة قبل أن تواصل طريقها قائلة:

- هل أجيء معكِ يا خالة؟!

هزت جوهرة رأسها بالرفض:

- لا.. هذه مشكلتي، وأنا سأجد لها حلا، امضي يا بنتي وراء حاجتك.

لمحت ماريا في عيني جوهرة لمع إصرار، ودعتها بدعاء مخلص ومضت نحو السوق.

سارعت جوهره خطاها نحو الهدف، هوت بكفها الخشن بطرقات عنيفة على باب صاحب الحائط؛ جعلته يهرول لفتح الباب ويصرخ:

- من هو زائر الساعة السادسة صباحاً؟!

فتح الباب.. رآها.. وعرفها، كظم غيظه وقال:

- خيراً يا حاجة جوهره؟!

- أيّ خير وأنت مصمم على قتلي أنا وأولادي بتكبرك وعنادك؟!

- اهدئي يا حاجة.. ما الذي حدث؟

- تعال وانظر بنفسك، حائطك تحول لبركة ضخمة، كانت المياه طول الليل تموج فيها مثل الثعبان الهائج، لولا ستر الله لكُنّا غرقنا ومنتنا تحتها نحن وجيراننا الذي بيوتهم أسفل منا، اتق الله وتعال اشفط الماء المتراكم قبل أن تتصدع جدراناه ويغرقنا.

- الله يهديك يا حاجة، لن يحدث شيء من هذا الذي بفكرك، الماء سيتبخر تلقائياً، ارجعي لبيتك واطمئني ودعيني أكمل نومي، أفزعني من صباح الصبح.

كان يخاطبها بلهجة لطيفة غير معهودة منه.

استأذنها وكاد يوصد الباب ليرجع ويكمل نومه، لكنها دفعت دفتي الباب بقوة وزمجرت:

- يبدو أنك لا تعرفني، اذهب واسأل من هي الحاجة جوهره؟ أقسم بالله العظيم أني سأفجر بيتك هذا بمن فيه إذا حدث لواحد من أولادي مكروه

بسبب حائط الشؤم الذي بنيته جانب بيتي، والليلة سآتي بكل أسرتي ونحتل بيتك هذا، واذهب أنت وارقد بيتنا تحت تهديد الغرق.

قالت له ذلك ثم غادرت وهي تهدد بصوت عال:

- علمك معك.. واشهدوا يا ناس أفي جئت لبيتته أرجوه بالتي هي أحسن أن يحل لنا هذه المشكلة مرات ومرات، واليوم حذرت.. وقد أعذر من أنذر..

صفق جيرانه الذي أطلوا برؤوسهم لاستجلاء الأمر نوافذهم بمجرد انصرافها.

هو رجل سيء الطباع، علاقاته بجيرانه متسمة بالشحناء وعدم الارتياح.. امتلأت صدورهم عليه تشفيا وهم يرون الحاجة جوهره تهدده وترفع صوتها عليه وهو واقف أمامها يستمع لها مرتعدا وجلا خائفا.

الحاجة جوهره من سكان حي الدار شمسي الجدد، سكان الحي يالفون كل قادم إليه بيسر، جوهره امرأة من نوع فريد، شجاعة وتمتلك شخصية قوية، حذرة في تعاملها، لا تخترق القلوب والجدران بسهولة.. لكن من يعرفها تمام المعرفة لا يملك إلا أن يحبها.

قبل خمسة عقود من الزمن، كانت جوهره امرأة فتية، فاتنة وجميلة، تشتعل جميع صدور نساء منطقة عمران حسدا لها وغيره منها.

باهرة الجمال، أصيلة المعدن ونقية المنبت، كان زوجها يسامي شيخ مشايخ المنطقة مكانة ومهابة ونسبا.

أحبتّ جوهرة زوجها بعمق، منحته عشقا فطريا خالصا، تحببت له بسجية المرأة اليمينية التي تقدس رباط الزوجية وترفع زوجها تاجا على رأسها، بدوره منحها الحب والتقدير والمكانة التي تليق بامرأة متميزة مثلها. نثرت له بطنها دررا، ذكورا وإناثا.. كانت جوهرة سيدة عظيمة النفس بالسليقة، وكان حب زوجها واحترامه الوافي لها يدفعها لإظهار أفضل ما لديها بين الناس من عزة وأنفة وعفة ووفاء، كانت تنساب بين يديه حرير ود ناعم عطر، عابق بالعطاء والحنو، كل الرجال يحسدونه عليها، وكل النساء يحسدنها عليه.

لكن الزمن لم يسلمها من تقلبات موجعة، ذهبت بها إلى البعيد، زوابع قهر دعتها؛ فأقصتها عنوة عن شاطئ الحب والأمان الذي كانت ترفل فيه مترفة ببذخ العيش وطيب الحياة في علاقة زوجية متفردة، برغم البيئة القبلية القاسية، التي قلما تمنح المرأة طرفا من التقدير والمكانة التي حباها بها زوجها المحب.

في ليلة يؤس مظلمة فُتحت صفحة قدر مؤلم لقادم عيش جوهرة.

أتاها نبأ مقتل زوجها بيد مجهول تعلم من هو! طار فؤادها من وقع الخبر وشعرت بأن خنجر الغدر الذي كان يتوجس منه حبیبها طويلا قد نال منه، غيَّبه عن عينيها وهوى بصرح مملكتها ساعة وارى مليكها الودود المحب التراب، فتكوا به غدرا وهو الرجل الشهم القوي، ينضح توثبا وطموحا.

أخذوه غيلة وهو في أوج مراحل الشباب، خلفها بعده أرملة مسكينة مهیضة الجناح، وتيتم بنیها دونما جنایة، قتل شیخ قبیلتهم زوجها بدم بارد

وضمير ميت ليزيحه من طريق مجد رآه منافسه الوحيد عليه. هكذا قالت جوهره..

وحدها من يوقن بأن الشيخ هو اليد الخفية التي اغتالت زوجها، واغتالت معه عيشها الرغد وأمنها وأمن بنيتها، لم تملك كتم غيظها، وكبح نار تنين غضب يحرق جوفها، ووأد رغبة أخذ بالثأر تلهب قلبها، حملت سلاح الحبيب المغدور وتوجهت لبيت الشيخ لتأخذ بثأره، حال بينها الحرس وانتزعوا من بين يديها السلاح، اقترب منها الشيخ وقال بنبرة تلكؤ تفضح سوء نيته:

- الزمي بيتك واحرسي أولادك، الذي نزع الأصل سهل عليه أن يدوس على الفرع.

أدركت جوهره مغزى كلامه، وتيقنت بأنه قاتل زوجها، وأنه يهدد بقتل بنيتها. أجابته بثبات وبنبرة تحد:

- والله إن مسست أحد أولادي بسوء فسوف أحرق بيتك بمن فيه.

ارتجت ملامح وجهه من وقع تهديدها، اهتزت خلعجاته وهو يرمق في عينيها لمع روح قوية متصلة بالله، نظرات عينيها المتقدة برغبة ثأر محمومة ملأت نفسه بالخوف. صاح بجنوده:

- خذوا هذه المجنونة من أمامي، وارموها بعيدا عن بيتي.

مضت وهي تصيح:

- لن يذهب دم زوجي هدر، سأنتقم له إن عاجلا أو آجلا.

بعد هذه الحادثة، سلط الشيخ عليها شقيق زوجها المتوفى، أو عز لأسرته
بوجوب تزويجها من رجل قوي يوقفها عند حدود الأدب. حسب زعمه..
قال لهم ساخرا:

- يبدو أن المرحوم دللها كثيرا حتى نست حدود الأدب مع الكبراء
ونست عوائد القبيلة.

لكن جوهره المحبة المخلصة لذكرى حبيبها، دفنت شعور الأنثى مع
جثمان زوجها المغدور، لم يعد يتحرك في وجدانها غير شعور الأمومة، ونار
ثأر لن تنطفئ.

طافت بأهل زوجها تشكو إليهم عم بنيتها وتحرشاته المتكررة بها، تلقاها
الجميع بتجاهل غير متوقع أدركت منه رضاهم بما يصنعه هذا الوغد.

مع غياب نهار يوم جمعة.. باغتها الوغد وهي في الحظيرة تحلب البقرة
لتصنع طعام العشاء لبنيتها، أراد كسر نفسها لتقبل به زوجها، عزم بإصرار
على سلبها تاج الاعتزاز بالذات، والأنفة التي تتزين بها؛ فتجللها برداء قوة
يجعل الناظر إليها يشعر بالمهابة.

كان سلاح الزوج المغدور لا يفارقها في كل ساعات الليل والنهار، تحمله
على كتفها في خروجها للمزرعة وخلوتها في حظيرة أبقارهم، هجم عليها
ذلك الوغد ببهيمية مقززة، دفعته بعيدا عنها وأشهرت بوجهه السلاح..
لاك لسانه ملتذا بتوثبها ثم:

- هل ستقتلين عم أولادك يا جوهره؟!

- سأقتل كل من تسول له نفسه بتلويثي.

ولم تمهله لينطق بكلمة أخرى.. أطلقت رصاصة لم تخطئ الهدف.. فجرت ساقه؟ تلوى وصاح مستنجدا، غادرت الحظيرة من فورها وأخفت البندقية الملتهبة وأخرجت ثانية وعلقتها في مكانها بصدر المجلس، جاء أخوة الزوج مصطحبين الجاني المصاب، صبوا جام غضبهم عليها، أنكرت أنها الفاعلة وأشارت لهم نحو البندقية المعلقة قائلة:

- هذه بندقية المرحوم، باردة مهملة منذ موته، اشتموها وتحسسوها ستجدونها لم تستعمل منذ زمن، ثم لماذا أقتل عم أولادي؟! أنا لم أر منه إلا كل خير.

نكس الوغد رأسه، وشعر بالصغار أمام جوهره، لكنه انكسار لحظي لم يدم طويلا.

فرضت الأسرة على جوهره حصارا اقتصاديا، حرّموا أبناءها من ريع أراضي أبيهم، ضيقوا عليها الخناق بغية الاستسلام والرضوخ لرغبتهم بتزويجها من عم أبنائها، تمنعت جوهره وأبت الخضوع لهم بإصرار زادهم غيظا وحنقا عليها، لم يبق لها سوى خيار وحيد.. الهروب من القرية.. اقتحمت جوهره غمار رحلة هروب خطيرة قادتها للعاصمة صنعاء، وهناك وجدت من أصدقاء زوجها الراحل من يقدر نضاله القديم ضد الإمامة، وبلائه الحسن في تثبيت دعائم الجمهورية بمنطقة عمران، مدّوا لها يد العون وقدّموا لها الكثير بشرط أن تتوقف عن اتهام شيخهم بقتل زوجها.

فهمت جوهرة بذكائها الفطري أن الشيخ غدا أكبر مما كانت تظن،
لزمت الصمت، خنس ثأرها صامتا كالسر، هي الآن أم أولادها وأبوهم،
سوف تنسى لزمن ثأر الزوجة وحزنها وافتقادها لوليفها.

تمكنت جوهرة من قبض راتب زوجها المرحوم فأنفقت منه على بنيتها،
ضمتهم لها بحنو الأم وقوة اللبوة، خاطبت ضمير الزوجة سوف يأتي زمان
أقتص فيه من قاتل زوجي، لم أنسك يا حبيبي، سأحيي أبناءك حتى يكبروا
ويشدد عودهم، وإن مت قبل أن أثار لك سيئاً لك أولادنا.

انتقلت جوهرة للعيش في مدينة تعز، انكفأت على تربية أولادها ورعايتهم
حتى شبوا عن الطوق وصاروا رجالا، ألحقتهم بالجيش وفقدت أحدهم في
حادث سير، بقي لها اثنان وبنت واحدة، تزوج أوسطهم بزوجة أخيه الأكبر
المتوفى ليرعى أولاده من بعده، وتزوج أصغرهم بامرأة لم تكن جوهرة راضية
عنها، وأنجب منها العديد من الأبناء وعاش في حي كلابة.

بنت جوهرة هذا البيت في حي الدار شمسي من راتب ولدها المتوفى،
وعاشت فيه مع أولاده وابنها الأوسط وابنتها الوحيدة في سعادة وهدهوء
بال.

اشتعلت الحرب؛ فجاء ولدها الأصغر نازحا بأسرته من حي كلابة.

تشعر جوهرة بقلق بالغ لأن ابنيها ضباط في الجيش، هل ستفقد أحدهما
في هذه الحرب؟ سؤال يؤرقها كل ساعة.

بعد ساعة من زيارة جوهرة لصاحب الحائط وتهديدها له، جاء بسيارة شفت الماء وأفرغ الحائط، تنفس أهالي حي الدار شمسي الصعداء، طالما تأذوا من تكدر القمامة فيه وتكاثر البعوض المسبب للحميات، لهجت ألسنتهم بالثناء على جوهرة والدعاء لها، صاحب الحائط رجل صعب المراس، لثيم ولا يراعي حق الجوار، وحدها جوهرة من استطاع دفع أذاه عنهم.

زم دبوان شفثيه وقال معلقا:

- ما أروعها.. لولا أنها متحوثة!

جوهرة ليست متحوثة كما يظن كثير من أهل الحي، بل هي لا تعرف شيئا عن الحوثة، ولا تدرك طرفا من أهدافهم، ثمة جانب خفي يجعلها ممتنة لظهورهم؛ فعندما دخل الحوثة لقريتها التي هجرتها مرغمة، كسروا تكبر وجبروت قتلة زوجها وشردوهم في البلاد.

يومها حمدت الله وملأت أجواء البيت بالزغاريد والتكبير، حملت سلاحها وخرجت بابتهاج لفناء البيت مطلقة بروق فرح من فوهته نحو الفضاء وتقول اليوم برد قلبي وانطفأت جذوة ثأري، الحوثة كسروا ظهر من كسر ظهري بقتل زوجي، شردوهم مثلما شردوني، يتّموا بنبيهم مثلما يتّموا أبنائني.

أولادها وأحفادها الثمانية والعشرون شاركوها ابتهاج نصر لم ينتظروه بشغف ولهفة كانتظارها. قالت:

- لكن غريمي الأول مات قبل أن يرى كسرة قومه، وصيتي يا أولادي بعد موتي أن تقبروني بجوار قبره؛ حتى إذا قمنا ليوم الحساب ووقفنا بين

يدي رب العالمين سأقبض عليه وأقول يا رب اسأل هذا لماذا قتل زوجي بلا جناية؟! لن أسامحه حتى يأخذ مالك الملك منه حقي وافيًا.

تأمل أمير موقف جوهرة الشجاع مع صاحب الحائط بإعجاب، وأصغى لشمس وهي تقص عليه تفاصيل قصة حياة تلك الجدة الشجاعة المناضلة مبتسماً، ثم قال:

- عندما تغيب العدالة في مجتمع ما، ويتسلط القوي على الضعيف، ويتمادى أصحاب النفوذ في غيهم لوأد الحقيقة وهضم حقوق من هم أقل منهم وينجحون في إسكات صوت الضمير الجمعي، حينها تتكسد الأحقاد في القلوب، ويغطي دخانها الأسود نور العقل فتضيع حكمة ذوي الألباب، وتتلاشى فضائل الأرواح الشفافة في حمأة اللهاث وراء إطفاء نار الثأر.

تنهد أمير وأردف:

- موجة خبل تغلف المشهد، ومعمعة تصفية حسابات شخصية تعمي الناس عن رؤية فداحة الخطر القادم من جبال مرّان.

قالت شمس:

- الناس مرتبكون للغاية حيال ما يحدث من أمور جسام، تتجاذب العديد منا إرادات شتى، نريد النصر على العصبية الجاهلي، ولا نريد كسر القبيلة وإهلاك بيضة البلد، نريد الفوز بيمين جديد، ولا نريد تضييع موروثاتنا وقيمنا، نريد بقاء اليمن موحدًا، لا نريد تكريس ظلم دام قرنين من الزمن، حيرة وتمزق رهيب.

- ما تسمينه تمزقا، أسميه أنا وعي، ليت الجميع يدركه.

- عندما خرجنا في ثورة فبراير نهتف بشعار "يسقط حكم العسكر" لم نقصد إذابة وإفناء قوات بلادنا، وعندما هتفنا بشعارات ضد القبيلة لم نُرد تعييبها بالكلية؛ لأن لها دورا فعّالا في حفظ التضامن الاجتماعي، كل ما أردناه هو إحداث إصلاحات في هذه المؤسسات الحيوية فحسب.

- الحركات الجماهيرية تردد شعارات لا تدرك معناها، الذي يثبت في ذهن الشارع هو الشكل الصوري للعبارة، لكن لا يجادل أحد في أن الجيش اليمني صار مجرد ميليشيا متعصبة بيد الانقلابيين، والقبيلة جاهلة متعصبة تمدهم بخيرة شبابها.

- دولة دون جيش وطني ودون مؤسسات اجتماعية قوية قيمة كالقبيلة؛ هي مجرد هباء ماثور؟! إن لم تنهض فئة راشدة تنقذ اليمن فسوف تتمزق دولتنا وتتلاشى مع استمرار هذا الصراع الذي أقحمت فيه.

- ربما هذا هو ما يُراد لليمن.

- ويُراد لها أيضا أن تبقى معبرا لتجارة المخدرات وسوقا للأسلحة المهربة والاتجار بالبشر، وما خفي كان أعظم.. هل تتذكر ما قصصته عليك من معاناة زوج سالي، وكيف ترك عمله وغادر الوطن من هول ما رأى من منكرات التهريب!

- وبرغم كل هذه الفوضى المفتعلة؛ فالتمزق الرهيب لم يحدث بعد.

- قل خيرا.. ما هو الأسوأ مما نحن فيه؟!

- شيء مخيف أشعر به قادما من بعيد.
- تفاعل.. سيظهر المنقذ الصادق.
- أو هام.. انتهى زمن الفرسان.
- ليس فارسا فردا.. الفئة التي ستنقذ اليمن من هذا المصير الأسود الذي يُراد به، سوف نوصلها لسدة الحكم ولو على جماجمنا.
- ما زالت أشواق البطولة تحرك.
- وأنت؟ هل خبت فيك جذوة هذه الأشواق؟!
- أشواق العيش الكريم هي من تحركني اليوم، انظري إلى وجهي المسودّ من جولات بيع الخبز، المسي كفي ورجلي المتشققة، همّي الوحيد اليوم هو إبقاء هذا البيت صامدا في وجه غول الغلاء.
- نكست شمس رأسها قليلا ثم رفعت كفه ولثمتها بحب:
- هذه يد يحبها الله ورسوله، لا تحزن يا أميري؛ هو أمر عارض، كل هذا الغم سيزول بإذن الله.
- صمت يتأملها:
- منذ متى لم تزوري صديقتك يمن؟!
- منذ أسبوع.. لماذا تسأل؟! أحسّك مشوشا.. تخفي عني شيئا.. هل حدث لها مكروه؟!
- أسألي الله أن يلطف بها وبحازم.

- أمير.. رجاء لا تعبت بأعصابي .. قل ماذا حدث لهما؟!
- قصف الطيران عمارة ضخمة لقاهر في مدينة إب ليلة أمس، مات تحتها العديد من الحوثة، كانوا مجتمعين في بدروم العمارة، ومات بينهم معين أخو يمن.
- يا لطف الله.. الله يكون في عونك يا يمن.. ولكن ماذا كان يفعل معين هناك؟
- الله أعلم.. الذي أعرفه أنه ليس متحوثا.
- هل وصل ليمن الخبر؟!
- ربما.. الخبر أُذيع في نشرات اليوم على قنوات عدة.. هذا ما سمعته من صديقي عبدالله.
- سأذهب إليها.
- الوقت متأخر الآن.. عربية الحوثة تجوس في الحي منذ ساعة، سنذهب لنراهما سوياً في صباح الغد.



حازم يحرق فراشته

تقاطر نسوة دون عدد على بيت قاهر في حي الدار شمسي، كانت يمن في حالة حزن وشتات قلب، بدت كسيرة ذاهلة، الوهن يسري في قواها الروحية، كان معين أحب أخوتها إليها وأعظمهم صلة لها وأشدهم شبهاً بها، لا تدري كيف جرفته هذه الفتنة الدهماء؟ لماذا كان هناك بين تلك المجاميع ليلة قصفت الطائرات عمارتهم في مدينة إب؟!

لم يشر لها من بعيد أو قريب برضاه عن أنشطة أبيهما السرية، كان يكتفي بقول:

- الله يهديه ويحسن له الختام، هو أب رغم كل شيء، واجبنا أن نبره، لا أحد يا أختي يختار أباه.

كان معين رجلاً حقاً، لعب بحنوه وعطفه الباذخ دور الأب في حياتها.

أما أبوها قاهر فهو على العكس من ذلك، قاس وغامض، قليل الكلام والعطاء، رمز أبوة بارد باهت بلا حياة، بلا فاعلية.. لا يتقن فن العناية ومنح الحب، ملاً معين بلطفه واهتمامه الفراغ الذي تركه قاهر في حياة الأسرة، وها هو اليوم يذهب بغتة في حادث مفجع مروع، لا أحد يدري لماذا؟

نبأ مقتل معين تناقلته الألسن، وبشت أخباره وسائل الإعلام، لكن هل سمع حازم نبأ مقتل معين؟

حازم مختف منذ يومين، لا أحد يدري أين ذهب؟!

قاهر في القرية يشرف على مراسم دفن معين، يمن تدوى وحيدة بصمت، تعيش تجربة الفقد للمرة الأولى في حياتها، تتجرع مرارة الفراق وتكتوي بوجع المصيبة بجناح مهيبض وقلب محسور، لا تدري كيف تتصرف في ظل غياب حازم الغير مبرر.

خرج أمير يذرع أحياء المدينة بحثا عن حازم، أما شمس فقد وقفت تستقبل النساء المعزيات بنصف قلب ونصفه الآخر تحوط به صديقتها يمن التي تلوذ بالصمت وتدور في دوامة غياب منذ سماعها بالفاجعة.

- ليتها تبكي. قالت شمس لفاطمة ابنة عم يمن، وأردفت وهي تمسح دمعة تسلت على خدها:

- أنا خائفة جدا عليها، ابقِ بقربها يا فاطمة، وأنا سأهتم بالمعزيات، لم أعد أحتمل رؤيتها وهي هكذا.

هزت فاطمة رأسها بالموافقة ومضت نحو مجلس يمن وجلست بقربها، طوقتها بساعديها وربت على كتفها بحنان، تأملت يمن طويلا كأنها تستذكر شيئا، حركت رأسها ونظقت بصوت كسير:

- هل جاء حازم؟

- لا.. زوج شمس يبحث عنه، اطمئني سيظهر، أين سيذهب؟ لكن كما تعرفين وضع الشوارع، الحصار والحواجز، العثور عليه يحتاج لبعض الوقت.

- لماذا جواله مغلق؟ منذ يومين وهو لا حس ولا خبر.

- لا تستجيب لتلك الأفكار، ما هي إلا شيطان يوسوس لك، الله لطيف بعباده، لن يجمع عليك مصيبتين.

- بالله عليك قولي لشمس تكلم أمير تنظر ماذا فعل؟

- حسنا.. لا تهتمي.

قامت فاطمة وأمسكت بيد شمس المنهمكة في تدوير فناجين القهوة على النساء المعزيات.. همست لها:

- يمن قلقة من اختفاء حازم، طلبت أن تتصلي بأمر وتطمئنيها.

- هي من طلب ذلك بنفسها؟ تكلمت معك؟!

- نعم، ويجب أن نطمئنها على حازم قبل أن تنهار، انظري كيف عيونها زائغة، أحسنها ستنهار في أي لحظة.

- الحمد لله أنها تكلمت، والله لو أصاب حازم شيء سوف تجن.

- قلت لها لن يجمع الله عليك مصيبتين.

- أحسن القول، تولي مهمة صب القهوة، سأتصل بأمر.. يا رب أسمعنا خيرا.

عند الغروب وقبل حلول الظلام جاء أمير ومعه حازم.. همست شمس:

- أين وجدته؟

- لا يهم أين وجدته، المهم أنه بخير، هيا انظري ماذا تحتاج يمن قبل أن نعود للبيت.

- يمن كانت تريد حازم، والحمد لله أنه ظهر، الله يحفظك يا عمري، أكيد أنك تعبت كثيرا وأنت تبحث عنه.

- لا يهم.. الله يستر من القادم.

كان حازم مغبرا، متشعث الهيئة وثيابه متسخة، كأنها خرج من مقبرة.

ما إن رآته يمن حتى هبت واقفة وهرولت نحوه، غرقت بين أحضانها وبكت، بكت طويلا حتى كادت حبال صوتها تنقطع، لم ينبس حازم بكلمة كان ذاها لا شارد الذهن، لم يره أحد في مثل هذه الحالة من قبل.. لم تكن علاقته بمعين عميقة للدرجة التي تجعله غارقا في الحزن لموته إلى هذا الحد.

ذرفت يمن دموع عمر بأكمله، لم يتوقف سيل انبهارها إلا بجرعة حبوب مهدئة غرقت بعدها في سبات عميق، اصطحب أمير وشمس فاطمة - المغترب زوجها - إلى بيتها الذي يقع بطرف الحي، مشوا قبل انسداد الظلام وبدء اشتعال المعارك.

بقي حازم واقفا بمحاذاة النافذة يتتبع لمع القذائف الملتهبة التي تتراسقها أيدي الفناء، عبر الفضاء المعتم.. كان حازم متغيرا، منقلبا، كمن أصابه مس جنون وخبل.. لم يذق مذقة نوم منذ عدة ليال، تحشّب ببقعته لساعات غارق الذهن في لجة أفكار، ثم سقط دفعة واحدة كالحصان منطرحا بجسده المنهك على أرضية البهو، غاب في طور إغماء نوم جبرية حتى الصباح.

عند طلوع الفجر الصادق، أفاق الاثنان على صوت قرع شديد على الباب، بالكاد تمكن حازم من رفع رأسه عن الأرض، خرجت يمن من حجرة النوم مهرولة فزعة ثم توقفت برهة تتأمل مرقد حازم، تحيرت من سلوكه الغريب، وتذكرت تخشبه البارحة وبرودة مشاعره وخفوت عطفه، اشتد الطرق على الباب؛ نظرت هل سينهض حازم ويرى من هو زائر الفجر المزعج هذا؟!!

جلس حازم ببقعته بجسد متهالك ونفس مثقلة وذهن مشتب، تناهى إلى مسامعها صوت قاهر:

- افتحوا الباب.. هل أنتم نيام أم موتى؟ الله يلعنك يا أم معين أضعت المفتاح، افتحوا يا بقر.

- هذا أبي!

هرولت نحو الباب وفتحت.. ركل قاهر دفة الباب بقدمه بعنف وهياج، اندفعت يمن للوراء، كادت أن تقع على الأرض لكنها تماسكت، أهوت تقبل يده فدفعها بعيدا ورماها بنظرات حادة، كانت عيناه تقدح شررا كمن لبسه شيطان، تلفت ثم زار:

- أين هو؟

- من؟ سألته يمن..

سار نحو الداخل صائحا:

- الشقي ابن الشقي.

نكس حازم الذي هب واقفا منذ لحظة دخول عمه الأولى رأسه مغتما،
ثم رفعه قائلاً:

- مرحبا يا عم.. عظم الله أجركنا وجعلها آخر المصائب.

- كيف تكون آخر المصائب وأمثالكم في حياتنا.

قالت يمن:

- كنا في طريقنا إليكم أنا وحازم، اعذرونا فقد تأخرنا لأن ...

قاطعها قاهر قائلاً:

- لماذا يأتي؟ يقتلون القتل ويسرون في جنازته؟!

كان قاهر يشتعل غضبا، أوداجه انتفخت، وتناً حبل غليظ على أصداع
وجهه المكتنز باللحم، غاصت عيناه الضيقة أكثر وأكثر مع انتفاخ وجهه
المحمر.

تحيرت يمن من موقفه العدائي وملاً قلبها الروع.. تساءلت بصمت هل
هو غاضب لتأخرنا لعدم حضورنا دفن أخي معين؟!

أما حازم فقد بدا متوجسا، مضطربا..

نفخ قاهر وهاج كجمل منتقم وتوجه بكلامه لحازم:

- اخرج من بيتي؟

انفكت يمن من دهشتها قائلة:

- أبي! ما بك؟ صل على النبي، ماذا فعل حازم؟

أهملها وأردف:

- أقسم بالله العظيم لولا أنني متأكد أنه لا يد لك في الجريمة لقتلتك الآن.

جذب حازم من كمه ودفع به نحو الباب الخارجي صائحا:

- لا تريني وجهك بعد اليوم.

صاحت يمن:

- ما هذا الكلام يا أبي، ماذا حدث؟

- اسكتي يا بنت لا دخل لك في هذه الأمور.

- أبي الله يحفظك.. ماذا تقول؟ حازم زوجي، كيف لا أتدخل؟! حسنا اهدأ قليلا، أفهمني هل أغضبك بشيء؟

تلمظ قاهر وفح:

- هم الذين قتلوا أخاك معين.

صاح حازم مستكرا:

- نحن؟! من قال هذا؟ تبين يا عم قبل أن تندم.

- أندم على ماذا؟ على ثقتي بأبيك وأخيك الإرهابي.

- من تقصد؟ شمسان؟! ما شأنه بمقتل معين؟!

- رآه أكثر من واحد يحوم حول البيت ليلة تدميره، هو من أعطى الإحداثية للتحالف.

- مستحيل.. هذا كذب وبهتان.

- بل حقيقة.. لكنه سيأخذ جزاءه العادل، وييدي هاتين.

فجأة اندفع حازم وتشبث بقميص عمه وصرخ:

- إذن أنت من خطفهما، أين ذهبت بهما؟ ماذا فعلت بأبي وأخي؟!

تسمّرت يمن ببقعتها وتخشّبت يديها حول وجهها باندهاش صامت.

دفع قاهر حازم وباغته بصفعة قوية على صدغه أوقعته أرضاً، صرخت يمن متوجعة واندفعت نحو حازم فحال بينهما قاهر ودفع بها بعيداً، تعاظمت سورة غضبه واقترب من حازم واستلّ خنجره فصاحت يمن:

- لا يا أبي.

التفت لها وصاح:

- اسكتي يا وقحة.

ثبّت عينيه في عيني حازم وفحّ بحقد:

- العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم، قتلتم ولدي البكر وكسرتم ظهري ودمرتم بيتي، سأخذ بثأري لا محالة.

سكن حازم ببقعته واستجمع ما تفرق من حكمته وقال بهدوء:

- استعذ بالله من الشيطان الرجيم يا عم، أبي بمثابة الأب لك، وهو أعقل وأنبل من أن يقتل معين، الكل يعرف كم كان يحبه.

خنقته عبرة لم يعهد مثلها من قبل وأهوى على قدم عمه متوسلاً:

- أستحلفك بالله يا عم أن تترك أبي وشأنه، هو رجل كبير ومريض، خذني بدلا عنه.

ركله قاهر وتمطى مبتعدا ورمى بالخنجر أرضا وقال:

- لا أعرف شيئا عن أبيك، أما شمسان فحسابه معي.

صاح حازم:

- تذكر يا عم بأن أبي هو من سعى لمنع تشكيل خلايا مقاومة في إِب حقنا للدماء، كيف تتهمه بقتل معين؟! أستحلفك بالله يا عم أن تتركهما، وأقسم برب العرش إن كان شمسان هو الفاعل فسوف أقتله بيديّ هاتين.

- لن يأخذ بثأر معين أحد غيري، هيا قم وغادر بيتي.

تحامل حازم على نفسه، ورفع جسده عن الأرض.. جمع عليه ثيابه ومضى نحو الباب بعدما استئس من عمه، وقبل أن يخرج التفت نحو يمن:

- هيا اجمعي ثيابك وامشي معي.

طارت أحداقها نحو الأب الذي رماها بنظرة فهمت معناها وصاح بحازم:

- اترك يمن وحالها، لن تكون زوجة لك بعد اليوم.

صرخت يمن باعتراض، وهرولت نحو الأب متوسلة:

- لا يا أبي أنا فدا روحك، لا تقتلني.

نظر إليها حازم وقال بنبرة صارمة:

- يمن.. إما أن تمشي معي الآن أو فلتبقي للأبد.

مزّقت ناظرها بينهما في شتات نفس رهيب.. قالت للأب برجاء داعم:

- أرجوك يا أبي دعني أمضي مع زوجي، هو ابن عمي، عمي مراد بريء من دم أخي معين، أنا على يقين من ذلك، أتوسل إليك.

أهوت على قدميه راكعة:

- لا تقتلني مرتين، بالأمس فقدت أخي معين فلا تحسّرني حازم، لا تقطع رحمك يا أبي في ساعة غضب شيطانية.

لم يتحرك قلب قاهر بخفقة شفقة، تجلّد حسه وتشيطن وزأر مهتاجا:

- ليسوا رحمي بعد اليوم، هم من قطع الوشائج وليس أنا.

وقفت يمن بترنح نظرت لوجه أبيها.. أنكرته؛ كان قد فقد آخر قطرة أبوة، مشّت بخطوات حذرة نحو حازم؛ فصاح بها قاهر:

- إن خرجت معه فلست ابنتي، سوف أترأ منك دنيا وأخرة.

جثت يمن على ركبتيها وأخذت تنوح وتولول:

- يا ويلي.. لا تمزقاني بينكما، ما هي جريمتي؟! أنا أحبكما وأريدكما معا، ارحموني! كنت طوال عمري البنت والزوجة المطيعة المحبة المعطاءة.

لم يزد قاهر بعد سماع كلامها إلا عنادا وتحافيا.

وقف حازم متخشبا لوهلة، ثم اقترب منها خطوة انفتل بعدها منصرفا نحو الباب، وقبل أن يخرج التفت لها قائلا:

- لن تري حازم الذي تعرفينه بعد اليوم يا يمن، لقد اقتحم بعضهم معرض الأقمشة ليلا، باغتوا الحارس بضربة على مؤخرة رأسه أثناء غيابي واختطفوا أبي وشمسان، اقتادوهما عنوة لبقعة مجهولة، سرقوا كل شيء ثم

أحرقوا المحل.. سأبحث عن أبي وشمسان، وإن حدث لهما مكروه فلن يفلت الفاعل من يدي كائنا من يكون.

هبت واقفة وصاحت به:

- لا يا حازم.. تعقل.. أنا لا ذنب لي بكل هذا فلا تتركني مبشرة تذرونني ريح الحقد، كنت دوما مختلفا.. أنت إنسان حقا فلا تمض في طريق لا عودة منه.

- إنه أبي يا يمن، لا يمكنني تركه بين أيديهم، أنا مجبر على المضي في هذا الطريق.

سكت لبرهة ثم رماها بخنجر مميت:

- يمن.. أنت طالق.

قالها ومضى.

انفضت يمن عند سماع تلك الكلمة من حازم.. ركضت خلفه مذعورة، حسرت عن رأسها صائحة نائحة.. جذبها قاهر من شعرها الذي انسدل وتطاير، قذف بها نحو الداخل، أما حازم فقد غاب مبتعدا.

أوصد قاهر الباب خلفه، أصابتها هستيريا مروعة واندفعت نحو الباب تنازع الأب فتحه، أهوى بكفه على وجهها، لم تشعر بمزعة ألم، تنمّرت وأعادت الكرة، ستلحق بحازم وسترجعه لصوابه، رأتة يتبعد في مخيلتها ويغيب للأبد فأصابتها لوثة جنون.. استجمع قاهر كل قواه وقذف بها على عمود رخامي يتوسط البهو الكبير فارتطم رأسها بشدة بالعمود.

سكنت لوهلة.. غارت عينيها.. تكوّم جسدها على جذره ثم هوى دفعة واحدة على الأرض وتدفقت الدماء من رأسها وأنفها.

في المستشفى نطق الطبيب بالنتيجة المفجعة:

- شرخ في الجمجمة.. ليس بخطر.. لكن المؤسف هو أنها فقدت البصر.

صاحت الأم عند سماعها ذلك وهجمت على قاهر:

- يا مجرم.. يا ميت الضمير.. ضيّعت البنت وقتلت الولد.

تمالك قاهر نفسه وهرول في الممر مبتعدا.

أصيبت يمن بالعمى.. هل سيكون عمى دائما أم مؤقتا؟!

لم يجزم الطبيب بشيء.. لكن ما الفرق؟ هي الآن امرأة تكلّى.. موجوعة بفقد أخيها معين، وخسارة زوجها حازم، وانطفاء نور عينيها.



العيد فيه زمن الحرب

صباح شمسهِ صفراء تلوّح ببهتان سقم، ضوء ساطع وهدوء مريب غير
مألوف! هل أصاب بوق الحرب الخرس؟!!

بدت السماء زرقاء صافية خالية من أي بقعة غيوم، هذا السطوع المخادع
يبدأ كمشهد أول في العديد من أفلام الرعب، حيث يبدو للرائي كل شيء
لطيفاً وناعماً، الوجوه ضاحكة والحركة اعتيادية فوق المألوف، الكائنات
ترفل بكساء أمن والمشاعر ترقد على مخدة الطمأنينة وتلتحف السرور، ثم
بغطة.. تكشر الأبالسة أنيابها ممزقة بوحشية مشهد السكون الكاذب.

في حي الدار شمسي الناس جلّهم صائمون في يوم عرفة، بعضهم أطال
النوم حتى الضحى، لا يمكن لأحد التكهن عما وراء هذا الدفء الخفيض
المنبعث من كبد السماء!

شعاع مهيب يبعث في النفس وحشة من نوع خاص، تتسلل لقلوب
البعض بصفة غير مبررة في أجواء كهذه، إلهام يلقيه الله في نفوس بعينها،
فليس كل سكان الحي شعر بغرابة هذا الصباح.

الطائرات تحوم في سماء المدينة منذ بزوغ فجر اليوم، وقفت الحاجة جوهرة
على عتبة بيتها ترسل بصرها الكليل في عين الشمس؛ فيرتد محسوراً لسطح
الأرض، تضرب كفا بكف وتصرخ بعصبية في حفيدتها:

- أين ذهب عمومتك؟!!

- ذهبوا إلى السوق، غدا عيد يا جدة سيشترون خروفا للأضحية.
- عقدت الجدة كفيها خلف ظهرها وهي تحوس في الخلاء الملاصق لبيتها، تنهدت رغم ثقل النفس الذي يكتسحها ويكبح سرورها بالعيد.
- أيّ عيد هذا وبوق الخراب ينعق حولنا مثل غراب البين، لطفك يا رب.
- ماذا بكِ يا جدة؟ الجو رائع جدا هذا الصباح، والطائرات قد اعتدنا عليها.
- هزّت جوهره رأسها ساخرة، دلفت للداخل وهي ترمي ببصرها نحو مدخل الحي.
- نشط نسوة الحي في أعمال التنظيف كالنحل الدؤوب، طفق بعضهن يخبزن الكعك في تنانير الطين رغم قلة ذات اليد، كعك يابس معجون بالزيت والماء والحبة السوداء وقليل من السكر، كعك بدل اللحم.
- الأمهات يغسلن بعناية ملابس عيد الفطر اللاتي خبأنها بمجرد مضي أسبوعه الأول، وأجبرن الصغار على نسيانها لتبقى صالحة لعيد الأضحى، والأمهات الصغيرات المتأنقات عمدن لكي الملابس بمكواة محماة بالجمر.
- الحاجة أم الاختراع.. هل عاش حروبا كهذه من قال هذه المقولة؟!
- غدت مقولته حكمة متجسدة في سلوك الناس اليومي في تعزّ أثناء الحرب، الحطب بدل الغاز المنزلي، والجمر المتوقد نجم الحدث، يقف الناس طابورا طويلا للفوز بقليل منه، يغترفونه من بقايا تنور المخبز العام، يستعملونه

للطهي في الشقق الغير ممكن إشعال الحطب فيها، تفتّشت هذه الطريقة كوباء بين سكان الشقق عند اشتداد أزمة الوقود واختفاء الغاز المنزلي من الأسواق، وقفت النسوة الكبيرات في السن باكتظاظ عند فوهة المخبز الكبير في وسط سوق الجملة، جلبن أوعية فيها عجّين مخمر، يفرش الخباز هن الصواني المدهونة بالزيت ليسطحن على وجوهها كرات عجّين كبيرة، يدهنّ وجهها بالخلبة المنقوعة بدلا من البيض الذي غلا ثمنه، يذف بها الخباز لأحشاء التنور الملتهب وسرعان ما تخرج مقرمشة ذهبية ولا معة.

قبل انصرافهن يملأن أوعية مخصوصة ببعض الجمر وفي البيت ينثرنه على موقد متوسط يطهين عليه طعام اليوم كله حتى الشاي والقهوة.

مضى وقت الشروق الغريب الهيئة، والحي ينعم بالسلام والابتهاج بمقدم العيد، نشاط دافق للنساء في البيوت، لعب خامل للأطفال.

وفجأة.. دون تخطيط مسبق سكت الحي بأكمله عند الضحى.

يمر الوقت متباطئا في حيز الشعور في يوم عرفة عبر جميع الأزمان، هكذا تقول الجدات.

ثغاء خفيض لذبائح العيد القليلة العدد يخترق المسامع بين فينة وأخرى.

في عشر عيد الأضحى قبل الحرب كان كل بيت يخرج منه طفل أو أكثر يقتادون خروفا أو أكثر، ويتجه كل الصغار بخرفانهم في سرب فوضوي وصخب نحو الجبل.. متعة كل طفل رعى الأضحية طوال أيام العشر، بعضهم يتعلق بالخروف حتى تعاف نفسه أكله بعد مشاهدة عملية ذبحه.

في هذا العيد كسّد سوق المواشي، رُخص ثمنها حتى بيع أكبرها بثمان بخس للغاية، ومع ذلك لم يتمكن جل السكان من الشراء، بالكاد يمكنهم تأمين القوت الأساسي من الخبز والماء وحزم بقل وجرجير وكراث، غدا الطعام صنفاً واحداً في جميع الوجبات، ومن يتذمر يسمع جواباً واحداً "إنها الحرب".

الحرب سرقت كسوة العيد، والخروف والحلوى والتنزه وأغاني العيد والكعك بالتمر والهدايا ونقود المعايدة واجتماع الأهل والألعاب.. لكنها جلبت لعبة جديدة "أعقاب الرصاص"

الأطفال يتبارون في جمع أكبر عدد منها، يسير أحدهم مختالاً بقنينة بلاستيكية ممتلئة بعدد كبير منها.. يرمقه البقية بنظرات حسد كيف جمع كل هذا؟! وتكون الإجابة بفخر! بيتهم يقع على واجهة ساحة الحي، حيث يسقط رصاص المتقاتلين بكثرة!

ابتلع محمد حفيد ماريارصاصة، تنذر جميع أهل الحي حول هذه القصة، تنهدت جدة يزن وهي ترنو لحفيدها الذي أصيب بعرجة بعدما فتّنت رصاصة شاردة عظم ساقه:

- وماذا إن بلعها؟ سوف تخرج ولن يغدو معاقاً.

وبقيت الرصاصة تسافر عبر أمعاء الصغير أياماً وفي صبيحة يوم عرفة أطلقت الأم صرخة فوز:

- حمداً لله.. خرجت الرصاصة من بطن محمد.

أطلقت حالته عزة زغرودة فرح وتنهدت جدته ماريا بسرور، اغتبط أبناء حالته فقد كانوا خائفين جدا عليه، تناقل الجيران الخبر وهنا الجميع ماريا بسلامة حفيدها، غسلت الأم الرصاصة جيدا وعقمتها بمطهر ووضعتها في علبة بلاستيكية محكمة الغلق، وأعطتها إياه بعد بكاء وإلحاح شديد منه، فخرج بها للشارع مختالا! تراحم الأطفال حوله ليروا حجم الرصاصة التي ابتلعها، وسرعان ما انفصوا عنه ساخطين بمجرد رؤيتها.. قال أحدهم:

- كذبت علينا، قلت بأنها رصاصة معدل، أي رصاصة هذه؟! من أين جئت بها؟ كأنها منقار عصفور.

انفضوا من حوله ساخطين ساخرين، ابتعدوا وهم يتضاحكون بلؤم غير متوقع، طأطأ محمد رأسه وعاد منكسرا بعد أن سلبوه زهو نصره الأول في هذه الحرب.. صاح بهم بعدما تواروا بين الأزقة:

- أشرار، أتحدى أحدكم يتلع مثلها.. عندما أكبر وأصبح جنرالا سأجبركم جميعا على ابتلاع رصاصات المعدل.

قالت رانيا وهي تدلف إلى البيت:

- الحمد لله خرجت الرصاصة من بطن محمد.

- التف حولها أختها رغد ورننا يتقافزن فرحا:

- الحمد لله.. طار الشر.

سألتهما رغد:

- هل رأيتهما؟!

- الجميع رآها، يحملها محمد في قنينة ويمشي بها مختالا، كأنه عثر على كنز.

ضحكن جميعا.. أحنت رغد رقبتها وقالت تستعطف الأم المنكبة على دحك السجاد:

- لو سمحت يا ماما أريد أن أذهب لأراها.

لم تلتفت سالي وانتهرتها بحزم قائلة:

- اهدئي واجلسي عاقلة، الحناء ما تزال في شعرك.

تذكرت رغد أنها لم تغسل شعرها من الحناء بعد، صاحت:

- اغسله الآن.

- سأغسله بعد صلاة الظهر، رجاء لا تبدئي موال الإلحاح المزعج الآن،

أنا متعبة جدا، من منكن صاحبة بقعة الخبر هذه؟!

- ماما.. لو سمحت سأذهب وأعود سريعا.

- رغد.. اغربي عن وجهي في هذه الساعة.

تقدمت رنا أصغرها وجذبت رغد من ساعدها مبتعدة بها عن سالي

وقالت بهمس:

- أمنا صائمة ومتعبة من شغل البيت، تعالي لا ترعجيهما، هيا نرتب ثياب

العيد.

مشت معها رغد بتلكؤ وهي ممتعضة، انضمت لهن رانيا التي عادت

منذ دقائق من بيت خالتها مروة، ذهبت هناك بجوال أمها لينال قسطه من

الشحن..

قالت وهي تقلب أثواب أختيها:

- كم أئتن محظوظات، أرسلت لكن خالتي لنا من إب العديد من الثياب.

تنهدت وأردفت:

- أنا حصلت على اثنين فقط.

قالت رغد وهي تجمع أثوابها إليها:

- احمدي الله.. بنات الحي لم يحصلن على ثوب واحد في هذا العيد.

قالت رنا:

- صحيح.. قالت أُمي أن الحصار حول قلب المدينة شديد، ولا أحد يستطيع الوصول للسوق.

أجابت رانيا بعد تفكير:

- سبحان الله.. الفقير والغني صاروا سواء في الحرب، أرسل لنا أبي مالا لكن لا تسوق.

قالت رغد:

- الحمد لله أن خالتي لنا نازحة في إب، لولاها ما كنا حصلنا على ثياب في هذا العيد.

صرخت فيها رنا:

- حرام عليك قول هذا، عائدة تكبر كل يوم ونحن محرومات منها، هل رأيت صورها الجديدة على جوال ماما؟ صارت لذيذة وخدودها كبيرة.

قالت رانيا:

- قولي ما شاء الله.

- ما شاء الله.. الله يحفظها.

عقبت رانيا بصوت مرتعش:

- ويحفظنا، الطائرات تحوم حول الحي من صباح اليوم، عندي إحساس بأنها ستضرب الحي.

لم تتم رانيا عبارتها حتى جاء صوت القصف يصدق النبوءة، اخترقت الطائرة النفثة أجواء الحي رافعة كاتم الصوت، منقضة بصاروخ قرب حجرة عسكر الواقعة بأعلى هضبة تطل على الحي، حيث تتمركز دبابة يقصفون بها وسط المدينة المحاصر.

تفاشرت الفتيات الثلاث ركضا نحو هو البيت، انضمت هنّ الأم، تشبثت بها أصغرن، مرت لحظات صمت وترقب جمدت الدماء في عروقهن قبل أن تعود الطائرة لترسل صاروخا ثان أصابت به الدبابة.

تمازج صوت القصف مع أصوات انخلاع نوافذ البيت وتطاير زجاجها في الهواء، أهوين بأجسادهن على لأرض وبالغن بالالتصاق بالأم التي تحجرت أحداقها وأصاب الشلل فكرها وحُبس شعورها في سبات قسري، بعد أقل من دقيقة أرسلت الطائرة الصاروخ الثالث الذي دمر حجرة العسكر وسوّاها بالأرض.

تطايرت على إثر الضربة الثالثة النوافذ مع إطاراتها للشارع، وانخلعت الأبواب الموصدة، فرقة شديدة وصخب صارخ فجّر صراخا هستيريا في

كيان الفتيات، أصاب الأم خرس ووجوم لم تتوقعه، أحسّت تحشبا يصلب جوفها، سرت برودة تغلغت في أطرافها وغلفها ذهول تام.

بعدما أيقن الأهالي بأن الطائرة غادرت سماء الحي خرجوا ينظرون، وجدوا منازل عدة تطايرت جميع نوافذها وانخلعت أبوابها، أصيب العديد من السكان بجروح شتى من الزجاج المتطاير، خدش الزجاج عنق خلود ابنة مروة الشابة وشق ساق عصام أصغر أبنائها، تزلزل منزل شمس وتناثر طلاء سقفه الحديث العهد في كل مساحة البيت، وانخلع باب الحمام الموصد.

كان أمير في السوق ساعة القصف، ارتدت شمس عباؤها واستعدت للفرار أو الموت عقب سماعها دوي أول صاروخ، كان البيت يرتعش مثل صندوق على كف عفريت، شعرت بأن السقف سيقع فوق رأسها في أية لحظة، من نافذة المطبخ المشرفة على الهضبة رأت بأم عينها الصاروخ الثاني وهو يفجر جدران الحجرة الخالية من الجند.

تكسرت نوافذ بيوت ماريا وانخلع الباب الحديدي لأحد بيوتها الذي هرب مستأجره منذ بدء الحرب.

تطايرت مع الصاروخ الثالث أحجار عظيمة نحو وسط الحي، كادت تقتل أبو عقبة وهو ذاهب لصلاة الظهر.

تنفس جميع سكان حي الدار شمسي الصعداء بعدما تيقنوا بأن أحدا منهم لم يمت، لكن الشيء الأكيد أن خلايا عديدة ماتت في أجسادهم.

لم تدرِ سالي كم مر عليها من الوقت وهي في حالة الذهول والغياب
تلك! كانت بناتها متشبثات بها وغارقات في بكاء مرير عندما جاءت شمس
ومروة لتفقدهن.. قالت شمس لرانيا:

- هاتي كأساً من الماء لأُوكِ.

وقتها فقط تكلمت سالي:

- لا.. أنا صائِمة.

- كلنا صائِمات. قالت رانيا..

انتهرتهن شمس قائلة:

- هيا افطرن.

ردت سالي:

- لا لن أضيع فضل يوم عرفة.

تلطفت بها شمس وقالت:

- لكن أنتِ والبنات في حالة صدمة، افطرن والله سيكتب لكنّ الأجر.

رفضن ذلك بشدة.

قالت مروة وهي ترمي بجسدها على سرير رانيا:

- يا ربي.. ما هذا الذي يحدث لنا؟ ماذا فعلنا؟ ما هي جريمتنا؟!

سكت الجميع.

قالت رغد بصوت متحشج:

- يعني خلاص.. ألن يكون غدا عيداً؟

أجابت شمس:

- من قال هذا؟ غدا يوم عيد، وأحلى عيد، الحمد لله كلنا بخير.. نحن نساء شجاعات.

بقيت سالي ساهمة واجمة لم تستطع الخروج من حالة الصدمة بيسر، ظلّت تتنابها رعشة وهلع كلما سمعت صوت الطائرة تحوم فوق الحي، تقفز من بقعتها وتلتصق بالجدار حتى تغيب الطائرة.

وصلت من فورها أخبار الغارة لزوجها عارف المغترب في السعودية، هو يتابع كل صغيرة وكبيرة عن الحرب في اليمن عبر وسائل الإعلام، هاتفها طويلاً مطمئناً ومواسياً ومخففاً عنها رهق الموقف.. قال الجميع:

- ستحتاج لمزيد من الوقت لتخرج من هذه الحالة.



عارف زوج ساليه..

عارف رجل طيب وأب حنون وزوج مخلص، يحب أسرته بشغف ظاهر للجميع، دفعت به عواصف الحياة للاغتراب رغما عنه، كان شابا طموحا دؤوبا ذو هممة عالية، أمضى جلّ شبابه في تنقل دائم بين جبهات متباينة ونضال شريف من أجل الفوز بحياة طيبة في الدارين، سافر وهو فتى غض الشعور منفعل الوجدان إلى أفغانستان للفوز بمنحة شهيد، أو رتبة مجاهد في سبيل الله، لم تمر سوى شهور حتى سقطت كابل.. حصد هو ورفاقه نصرا حسبه يومها فوزا حقيقيا ثم ما لبثوا أن شعروا بتغير اتجاه الريح، عادوا وسؤال یرن في الضمير:

- هل خُذعنا؟!

عاد عارف إلى موقعه الأول، ضابط ضمن قوة السلام، جيش مناوئ للحكم الشيوعي في جنوب اليمن ومقره في بلد مجاور، بعد بضع سنوات اشتعلت معركة في اليمن لتثبيت الوحدة، رجع ذلك الجيش برمته للمشاركة في هذه الحرب، لم يطل أمد القتال، توقفت الحرب سريعا وتثبتت الوحدة وصار عارف ضابطا في جيش وطنه.

لم يقنع بمجرد رتبة ضئيلة؛ فالتحق بالجامعة ليرتقي بنفسه ويعلو مركزه، درس علوم الشريعة والقانون في العاصمة صنعاء، كان يبرز أقرانه في كل عام، يجتهد في دراسته وعينه على مبنى النيابة العامة أو دار القضاء، كان قائده المباشر يشجعه ويدفعه لمزيد من التفوق ويعده خيرا.

بعد التخرج طار بقصب السبق إلى قائده مستبشرا برتبة تسامي هامة طموحه؛ لكن تعثر حظه.. فجأة تغير قائده بعدما أوصى خلفه به خيرا.

مرت الأيام دون أن تأتي بجديد، بقي عارف ذلك الضابط بذات المكانة والرتبة، حواجز متعالية تحول بينه وبين تحقيق أحلامه، النيابة العامة والقضاء حكر على نوع من الناس ليس هو واحد منهم، رأى عارف المناطقية وهي تخنق حلمه وتدفعه بين ركام الفساد المتضخم.

لم يهزم ولم يتضاءل عزمه، تفرغ من نشاط الجيش بموافقة من قائده المباشر، والتحق بمكتب محاماة.. خاطب أحلامه المغلولة سأصبح محاميا أدافع عن الضعفاء وأنصر المظلوم، يا لها من رسالة سامية ومهمة جليلة تستحق العناء.

وكان سفرا مرهقا في عالم من الظلمات، عالم المحاكم في وطنه الغامض، دهايز فساد وبؤر ارتشاء ووأد للحق، اكتشف بأن العدالة التي ينشدها لم تغب عن مؤسسة جامدة مثل المؤسسة العسكرية فحسب؛ بل هي غائبة في بلده عن صرحها الأزلي الخالد دار القضاء.

رأى المجرمين ينفذون بجلودهم من عقوبة مستحقة بدس ظرف سمين محشو بالأوراق المالية في درج قاض مشهود له بالنزاهة.

خلع عارف عباءة المحاماة الكاذبة وعافت نفسه رؤية جباه القضاة الملطخة بدماء بريئة وحقوق ذهبت سدى.. دماء أهدرت، وأعراض ضيعت، وأموال نهبت، وممتلكات استلبت بتوقيع من ختم القضاء.

ترك كل ذلك خلفه ومضى نحو القادم المؤمل.. ولسان حاله يقول لا يزال في العمر فسحة وفي الشباب بقية، وفي فضاء الأمل متسع لحلم جديد.

تزوج عارف من سالي بطقوس أسرية تقليدية، أحبها منذ النظرة الأولى وهي أحبته، أنجبت له خلال بضع سنين ثلاث بنات كأنهن أقمارا تسلكن من كبد السماء، لكن وطنه الناصح بالفساد يجره كل يوم حسك غلاء متصاعد فراتب الضابط المتفرغ ضئيل، والبنات تكبر ومصاريفهن تزيد، والإيجارات ترتفع.

اشتد بهم الحال وضاق به السبل، تغول وحش الفساد وتعاضمت نهمته، تسارعت قفزات الأسعار وحلقت عاليا.. تذر عارف:

- الفساد يطاردني في مفردات عيشي.. في خبزي ولبن طفلي، تركته بسلام ولكنه يأبى أن يدعني أحيا بسلام، يا رب انظر لحالي.

من بعيد تلاًلاً وميض، خرج من بوتقة عمر فات، أملاً متألّقا، أطل من الماضي كحلم جميل يرسل نورا ويرسم فرحاً ويطرّد بؤساً.

اتصل به صديقه القديم جاسم والذي تعرف عليه بعد عودته من أفغانستان، اشتغل عارف مع جاسم في مدينة جدة ببيع السيارات المستعملة، كان العمل مربحاً، سار كل شيء على ما يرام حتى حدثت نكسة لصديقه جاسم وتحمل ديونا وكاد أن يسجن، وعندما علم عارف بذلك جمع له الأرباح مع رأس المال ليفك عنه قيد الدين، بعدها افترقا وذهب كل واحد

منهما في طريق، إلى أن عاد جاسم ليظهر في حياة عارف كبرق غيث صادق.. هاتفه:

- صديقي الوفي، لا تحسب أنني نسيتك، أنت صاحب الأولى وصاحب الأولى ما ينلحق، أعطني اسم مصرف لأرسل لك المال الذي في ذمتي، وعليه منحة وفاء وعرفان تستحقها.

بعد أيام كانت سيارة أجرة تقبع أمام بيت عارف، تقافزت البنات فرحاً بها. كانت سالي تجلس على الكرسي الأمامي بسرور وانتشاء، خرجوا في نزاهات واصطحبوا أم سالي معهم، شارك الجميع عارف وسالي فرحتهم بالفرد الجديد المنضم لعائلتهم، أحبوا السيارة كواحد منهم، كانت تستحق الحب.

ملأت خانات الحاجات المنسية، قضت عنهم الديون، وألحقوا رانيا بمدرسة خاصة، توردت حدود البنات من تنوع الغذاء، وازدهت أجسادهن بالملبس الجديد، وانزاح عن عارف هم المعيشة، ومصاريف البيت وكدر مشاحناته مع سالي حول تحسين وضعهم المالي.

عاشوا في بحبوحة وراحة بال دامت عاما كاملا، وفي تمامه سافر عارف إلى صنعاء ليزور أهله المقيمين فيها منذ سنوات وهذا بعد غيبة طويلة لم يحسب أيامها وهو يطارد لقمة العيش، وهناك حدثت الفاجعة.. في ظلمة الليل وغياب الأمن عن عاصمة البلاد امتدت يد آثمة وسرقت حلمه الوليد!

أصبح ليجد آثار عجلات السيارة فحسب.. اختفت سيارته للأبد.. ومع ذلك ركض بين أقسام الشرطة يسجل بياناتها لعل وعسى، مر شهر وثمان وثالث؛ مرت سنة ولم ترجع السيارة، كانت سنة كعمر بأكمله.

هذه المرة أوجعته الضربة وأربكته الصدمة، كانت القشة التي قصمت ظهره المثقل بحمل عمر متقلب على جمر حياة مهادها مفروش بشوك القتاد. صاح بصوت عال:

- لماذا أنا بالذات يسرقون سيارتي؟ هناك من يستهدفني، كان حولها سيارات أفخم منها وأعلى، تركوها جميعا وسرقوا سيارتي، لماذا؟ أصابته لومة هوس وشك وغضب عارم. الكل استغرب ماله يبكي سيارة أجرة؟! غيره ضيع كنوزا وعقارات وملايين! يا للعار.

لا يمكن لأحد إدراك مكمن وجعه، كانت السيارة رمزا لكل حلم سُرق منه، لكل قيمة سامية تبددت هباء أمام ناظره، لوطن بهت معناه كل لحظة في معمرة عيش فاسد، تعب عارف وهو قابض على هويته، كل شيء مقدس غدا جرة تحز فيه كل يوم جزءا وتذروه رمادا، يخشى أن يصبح يوما ولا يجد ذاته، مثلما أصبح ولم يجد سيارته.

بعدها.. استحال وجوده الدائم في البيت سببا للجدال الطويل بينه وبين زوجته، غدا ساخطا ومتخما برغبة ملحّة في الإيذاء، لسانه مسلط على كل من في البيت.

وفي لحظة هدوء، ومراجعة صادقة للنفس، شعر عارف بأن كل شيء جميل يجمعه بسالي مهدد بالفناء تحت سياط شجارات لا تنتهي، قرر الخروج من هذه الحالة المزرية، فذهب لقائده المباشر يرجو عونه:

- سيدي القائد لقد سرقوا سيارتي، فقدت مصدر دخلي، وراتبي لا يكفيني وأسرتي.

- حسنا.. فهمتك، ماذا تقترح؟

- أريد دعماً من المعسكر، كنتم دوماً تستقطعون من راتبي مبلغاً لكل مصاب أو مفجوع من أفراد المعسكر، جاء دوري لأنال مثل ذلك.

- نحن نستقطع للشهيد وللميت وللمريض، وأنت ما شاء الله بصحتك وعافيتك.

سكت عارف ولم يدرِ ماذا يقول؟ فكر القائد لوهلة ثم تناول ورقة وكتب فيها شيئاً وناولها إيّاها:

- اذهب بها إلى معسكر حرس الحدود.

امتقع لونه عند سماعه عبارة حرس الحدود وقال:

- عذراً سيدي، لا أريد مفارقة أسرتي، جئتُك لتعينني على القيام بشؤونهم لا لترميني نحو الحدود.

رماه القائد بنظرة ثاقبة وقال له بحسم:

- لا مناص، اذهب إلى هناك وستجد ما يسرك.. ثم صاح به:

- انصرف.

أسقط بيده.. خرج وهو يهذي:

- ما الذي جاء بي إليه؟ لم ينفعني منذ البداية، لا حول ولا قوة إلا بالله، يبدو أني أوقعت نفسي في ورطة.

في معسكر الحدود.. لا شيء سوى رداء الصحراء الأصفر الباهت ممتدا عبر مساحات شاسعة.. أرض جرداء قاحلة، حتى الزواحف تأنف من العيش فيها.

تلقاه القائد هناك بالترحاب، وألمح له بأنه موص به من جهة رفيعة، شجّعه ذلك على سرد قصة سرقة سيارته عليه، طلب منه معونة من المعسكر ليشترى سيارة أجرة بدل التي سرقت منه.

ضحك قائد المعسكر وقال له:

- أنت متدب للوقوف على بوابة منجم ذهب، خلال عام ستحصل على ثمن رتل سيارات أجرة.

انصرف عارف من أمامه برفقة جندي سيدله على موقع عمله، مشى وهو يقلب في رأسه كلام القائد الذي لم يفهم مغزاه.

على المنفذ الحدودي رآهم يهربون كل شيء من وإلى البلد، ومرة أخرى رأى تلك الظروف المقيتة المتفخخة تدس في الجيوب لتمرر بعدها أشياء وأشياء، دون تفتيش ودون تصاريح.

ابتلع لسانه وهو يرى تواطؤا من الجميع على هذا الأمر، سكت منتظرا ظهور تلك البوابة الذهبية التي حدثه عنها القائد يوم وصوله لهذا المنفى الصحراوي المستعر مناخه بحرارة لا تطاق، مر شهر واثنان دون حدوث شيء مختلف، راتبه لم يزد فلسا واحدا، وبوابة المنجم المزعوم لم تنفتح.

في إحدى الليالي، وهو مرابط في نوبة حراسة رأى شيئاً ضخماً يُراد تهريبه، نظر ملياً فلم يصدق عينيه، سلم طائراً! لم يطق السكوت أكثر من ذلك فانفجر في وجه ضابط المنفذ:

- لم يبق سوى أن تهربوا الطائرات، أقترح عليكم أن تطووا الوطن في صندوق وتهربوه، اتقوا الله.. سلاح ومخدرات وأدوية منتهية وأطعمة فاسدة تدخلوها لهذا البلد المنكوب، وتخرجوا منه أشياء تُشيب الرأس، صناديق مغلقة الله يعلم ما بداخلها، واليوم ستهربون سلم طائراً.

نشب بينهما عراك، ركب عارف رأسه وامتنى صهوة عناده وأقسم ألا يمر سلم الطائرة من المنفذ إلا بأوراق رسمية صحيحة الإجراءات.

في الصباح كان مكوماً في حجرة احتجاج المتمردين وقطاع الطريق، وجهه منتفخ متلون الجلد، شدة ناتي مدمي، دخل عليه قائد المعسكر فهبّ عارف واقفا وهم بالكلام وقد بيت نية فضح رفاقه، لكن القائد أسكنه قائلاً:

- ما هي قصتك يا ولد؟ وضعتك على فوهة منجم يحسدك عليه الكثيرون، لعلك تعوض خسارتك وتحسن وضعك المالي لا لتحدث كل تلك الفوضى وذاك الشغب.

صدم عارف بعد ما يتقن بأن القائد على علم بكل ما يدور من فساد. سكت برهة ثم قال:

- لم أجد البوابة الذهبية التي حدثني عنها يا سيدي القائد.

أهوى القائد بكف غليظة على كتفه وابتسم ساخراً:

- ذلك المنفذ هو بوابة الثراء والسعد، لكن لمن يحرك عقله، وليس للجامدين أمثالك.

- فهمت قصدك الآن يا سيدي، أنت محق في كل ما قلته عني، هذه البوابة لا تصلح لأمثالي، رجاء افعل معي معروفًا واجعلني في حلٍّ من أنشطة حرس الحدود تلك، سوف أبحث لي عن عمل في مكان آخر بعيد.

سافر عارف للعمل في السعودية خلفًا وراءه أسرته التي يجبها، وبعد اشتعال الحرب في اليمن حُصر بين خيارين أحلاهما مر، إما العودة للوطن ليكون بقرب زوجته وبناته مع احتمال الفقر والعوز، أو المكث بعيدا عنهم ومدّهن بنفقة تكافئ الغلاء الذي سعرتة الحرب، واحتمال غول قلق ينهش خاطره كل يوم.

في يوم عيد الأضحى.. وعقب تعرض الحوثة في يوم عرفة لأربعة عشر صاروخا من طيران التحالف في تعز، كان انتقامهم من الأهالي هو الأشد من نوعه.

عند الفجر والمآذن ترتفع بالتكبير لصلاة العيد، علا صوت سلاحهم بزئير متوحش غطى كل صوت، أرسلوا عشرات من صواريخ الكاتيوشا وقذائف الهاون والهاوزر وقذائف الدبابات على جموع الناس في مصليات العيد بقلب المدينة القديمة، امتزجت دماء الرجال بأشلاء النساء والأطفال، تطايرت أيدي أطفال العيد القابضة على كعك العيد اليابس، وتدحرجت الرؤوس المتفحمة بين تلك الأشلاء لترسم أقبح صور الوحشية البشرية، غابت الفرحة الأخيرة عن المدينة مع نزف آخر شهور عام الحزن الذي تعيشه تعز الحاملة، أحياء قلب مدينة تعز تتمزق بشدة وتحتنق بحصار ظالم منذ

اتهمت باحتضانها لخلايا المقاومة، باتت تُقصِف بعنف ويموت سكانها كل يوم، تدفع ثمننا باهظاً لأجل شيء لا تدرك كنهه! سكان حي المدينة القديمة تعزبون فحسب، منذ قرون وهم يقطنون فيها، ليس لهم قرى ينزحون إليها، هم من سكانها الأصليون، يستوطنون قلب وادي تعز منذ الأزل، لم ولن ينزحوا.. قالوا بلسان الحال نحن باقون هنا للأبد، إلى أن تتوقف هذه الحرب الظالمة، أو ليشهد التاريخ على جريمة إبادتنا دونها جناية.



هجرة فراشة

مسحت يمن دمعة من على خدها المتورد، ستكون هذه آخر دمعة، كانت إيماءات وجهها تنطق بهذا العزم.

سرى في داخل شمس برد طمأنينة وهي ترى وجه يمن يتألق فجأة بنبض حياة.

كانت شمس منذ لحظات متشعبة الخاطر، منكودة العيش، رحل أمير لجهة لا تعلمها، غضب منها غضبة ليس لها سابقة، غضبة لم تكن تظن أن بإمكان قلبه الحنون احتماؤها، لم يكلمها على مدى أيام، لم يفعلها من قبل.. قالت ليمن:

- ما هي جريمتي؟! خشيت أن أفقد لبيبة.

لم تنبس يمن بحرف.

هجست شمس:

- ترى هل رأى أمير ذلك الخاطر الذي انشق عنه الصندوق الأسود في وجداني يوم ركضت لأطمئن على لبيبة؟! حتى أنا تفاجأت به ماثلاً أمامي، لم أتعمد ذلك، كانت لحظة طفرة حزن وغضب مكبوت، يوجد شيء كهذا في أعماق كل إنسان، الغضب والخوف والرغبة، طاقات هائلة لا تفرغ جميعها في مفردات الحياة، يبقى الشيء الكثير منها مخبأ في ذلك الصندوق الخفي، هل خطيئتي هي اعترافي بوجوده؟!

خطيئة غيري الكبرى نكرانه، يفعلون أشياء في غاية القبح ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، كان ذلك الخاطر قبحا أيضا وذنبا؛ لكن سيغفره الله لي لأنه في

البدء والنهاية ليس سوى خاطر سرعان ما تهشم، عاود الانتصاب أمامي ثم تهاوى وتهشم، وفي كل مرة سأمتلك من الشجاعة ما يكفي لتهشيمه، إنسانة أنا.. يغلبني ضعفي البشري، أخطئ مثل كل البشر، لكن الفارق الوحيد بين الأخطاء البشرية هو الضحية، ضحيتي كانت أنا فحسب، لم أوذِ أحدا، ربما شعر أمير بأني جرحته بذلك الخاطر لذا هو يعاقبني بقسوة.

باغتتها يمن بسؤال عن أمير؟ فقطعت حبل هواجسها. أجابتها:

غادر تعز بغتة، ثم اتصل بي عند المساء قائلاً أنا في مهمة مصيرية، يومان بالكثير وأعود.. لم يقل شيئاً غير هذا، لكنه تأخر كثيراً، مضى أسبوعان وهو غائب.

قالت لها يمن:

- احمدي الله.. فقد اطمأنت عليه.

- الحمد لله.. واطمأنت أيضاً على بشرى ومليحة، انحسر إعصار شابالا ولم يتعرض لسوء.

شردت يمن ولم تعلق، بدت متغيرة هذا الصباح، كانت منذ غياب حازم تسأل شمس عند كل زيارة:

- هل عاد حازم؟ فتجيبها شمس بالنفي فتعود لتسألها بعد هنيهة.. هذا الصباح لم تسألها عنه.. جفت دموعها.. وتجمدت مشاعرها فجأة، هكذا شعرت شمس عند دخولها عليها في الصباح الباكر، لكن هل جفّ نهر الكلمات؟ هل مات السؤال؟ هل فقدت الأمل بعودة حازم؟

دخلت عليهما أم معين، وضعت أمام شمس صينية عليها فنجانين من القهوة، وقفت تتأمل وجه ابنتها وتجاويع حزن تتراكم على جبينها.. قالت:

- منذ الأمس وهي ساكنة تماما، انظري ما بها يا بنتي؟ هي تحبك كثيرا، كلميها وأخرجيها من سكوتها، أنا خائفة عليها.

ضربت الأم بكفيها على صدرها ثم نفتت:

- الله يلعنك يا أبو معين، قتل الولد وأعمى البنت، ماذا بقي لي في هذه الحياة بعد انطفاء نور عيني، بعد خسارة أبي وأمي، يَتمني مرتين، كان معين - رحمه الله - ...

تخسرت كلماتها وانهمر سيل دموع من مآق منتفخة لطول البكاء، تابعت:

- معين كان أبونا كلنا، ويمن أمتنا، كانت أما حتى لأبيها.. حنونة على الجميع، ماذا فعلت المسكينة حتى يرمي بها على العمود ويفقدها بصرها؟ رفضت أن تفارق زوجها وهذا حقها، لماذا تجلس مع أب قاس جامد مثله؟! مثله؟! مثله؟!

رفعت كفيها للسماء.. اللهم أرني فيه عجائب قدرتك، أولادنا متفرون في البلدان، هاربون من جبروته، كل واحد في دولة، لم يبق بقربه سوى معين، ليته رحل بعيدا عنه، آه يا وجعي.. الله هو المختص به.. نأرجنا منه ومن ظلمه.. تصوري يا بنتي، طرد أختي أم حازم يوم جاءت تعزيني، طردها أمام كل الناس.. طرد أخوته وأصهاره يوم عاتبوه على فعلته مع يمن وحازم.. الرجل جن جنونا كاملا، يريد تمزيق أواصر القبيلة بعد أن مزق أواصر الأسرة، حسبي الله ونعم الوكيل فيه.

خرجت أم معين وشمس مشدوهة من غليان حقدتها على زوجها قاهر. كان الجميع يعرف بأن قاهر رجل قاس وفظّ مع أهله، لكن اليوم أدركت

شمس بأن زوجته لم تحبه في يوم قط، كانت تتصنع ذلك طوال حياتها، واليوم طفح بها الكيل.

تحولت شمس بناظرها تجاه يمن التي أشرقت على وجهها إضاءة تبسم مباغته، سُرّت شمس لرؤيتها باسمه، وانبعثت منها ابتسامة عريضة دون تخطيط.. ضمتها لصدرها بفرح:

- الله يسعد قلبك يا حبيتي، كم اشتقت لابتسامتك الحلوة هذه، أنتِ بطلة.. تفاعلي فالدنيا كل يوم تأتي بجديد، حازم سيرجع حتما، والحرب ستنتهي، وسامية ستفيق وسمر ستعود، كل شيء جميل سيعود، أنا على يقين من ذلك، سيجعل الله بعد عسر يسرا.

قالت يمن:

- صدق الله العظيم.. تنهدت وأردفت:

- الأيام الخضر لا تعشوشب دون سواعد مثابرة، الزهور لا تتفتح إن لم نغرس شتلاتها في الأرض المروية.. سككت لبرهة:

- شمس.. لطفا هاتي ورقة كبيرة وقلماً ذو خط عريض.

تلقت شمس وسألتها:

- أين أجدهم؟

- في خانة ذلك المكتب.

نظرت شمس:

- هذا المكتب الذي طالما التففنا حوله نستذكر الدروس في مواسم الاختبارات، يارب أعد تلك الأوقات الحلوة.

أخرجت شمس حزمة ورق مقوى كبيرة وأقلام حبر سوداء وحمراء
وخضراء وزرقاء.. سألتها:

- أيّ الألوان آتيك بها؟

- الأحمر.

- لون الخطر.. جلست بجوارها:

- هيا قلّي؛ ماذا أكتب؟ سكّنت يمن لبرهة ثم قالت:

- شمس.. أعرفكِ شجاعة.

استمعت لها شمس بانتباه.. شعرت بأنها تريد قول شيء هام فطمأنتها:

- أرجو ذلك.. لن يخيب ظنك بي.

- سوف نفعل شيئاً، لن نبقي أسيرات العجز، كنا دوما نساء قويات

ومثابرات، هل تتذكرين أيام ثورة فبراير؟!

- لا تذكريني.

- لماذا؟

- كلما تذكرتها شعرت بطعنة خنجر تمزق بطني.

- لماذا؟ كانت أيامنا نابضة بالعطاء، عشنا شعور الحياة الحقيقية.

- ثم فجأة غرقنا في وهدة موت مفاجئ، خدعونا يا يمن، هيّجوا فينا

أشواق الحرية ليحققوا مآرباً لهم.

- لم يخدعوا سوى أنفسهم، الصادق لا يُخدع، حتى لو سار في مواكب

الكذابين يبقى صادقا، يتلوّثون ويغيرون جلودهم ويبقى هو حقيقيا وثابتا،

هم يخسرون وهو يربح نفسه مرات ومرات، كل مرة يسير فيها مع موج خادع ويعود مكسور الخاطر يتعلم اكتشاف طرق جديدة للوصول دون خطأ.

- ويعود ليخطئ مجدداً، ويخدعه قوم آخرون! لا.. لن نُخدع مرة أخرى.

- وهل سنعتزل الحياة ونصير مثل كل الخاملين الراضين ببؤسهم؟!
- تعبت جداً، طاقتي مستهلكة.

- ما بكِ يا شمس؟! منذ متى صرتِ هكذا؟
- لست أدري، ربما من لحظة أن غزاني ذلك الخاطر، يوم خرجت أركض لنجدة لبيبة، وعند بلوغي المفرق لمع في ذهني فأرعبني.
- أيّ خاطر هذا؟! سكنت شمس ولم تنبس ببنت شفة.
تساءلت يمن:

- ما بكِ يا شمس؟! أشعر بأنكِ متغيرة.
- لا تهتمي.

- هل تريدان إخباري عن سر هذا الخاطر الذي أربك؟
- لا.. ليس الآن.
- حسناً.. كما تشائين.

في تلك اللحظة رن جوال شمس، أخرجته من حقيبتها يدها بلهفة، برقت عيونها وهللت:

- إنه أمير.. ألو.. هلا حبيبي.. وعليكم السلام..
- مرحبا حياتي.. أين أنت الآن؟

- أنا عند يمن.
- كيف حالها؟
- الحمد لله.. هي اليوم في أحسن حالاتها.
- الحمد لله.. أبلغها سلامي.
- يوصل إن شاء الله، متى ستخبرني عما تفعله؟
- سأعود اليوم وأخبرك بكل شيء، أنا في الطريق إلى تعز.
- حقا؟ تصل بالسلامة، صوتك مُتغير! به نبرة سرور، بالله عليك قل لي ماذا وراءك؟
- سنسافر أخيرا.
- والله؟ إلى أين؟
- هي مفاجأة.
- أستحلفك بالله قل إلى أين؟
- إلى بلد تمنيت زيارته دوما.
- أين؟!
- تركيا.
- غير معقول! كيف أمكنك فعل ذلك؟!
- سنسافر مع منظمة إنسانية ستغادر من مطار سيئون إلى هناك، أنتِ

- امرأة مباركة فهذه الفرصة تشبه المعجزات.
- لن أصدق حتى أضع قدمي على أرض مطار اسطنبول.
- صدقي يا حبيبتى، الأوراق معي وتذاكر السفر.
- الحمد لله.
- انتبهي لنفسك، وعودي إلى البيت سريعا.
- حسنا.. اطمئن سأعود للبيت مبكرا، متى تصل؟!
- ربما آخر النهار.
- ألو.. أمير هل تسمعي؟ يا إلهي انقطع الاتصال.
- انفرجت شفتا شمس بتعبير دهشة كبير، كانت يمن تتحسس وقع الخبر
على شمس، وترهف مسامعها نحوها باهتمام..
- قفزت نحوها شمس وحضنتها:
- يا وجه السعد والخير.
- بشريني؟
- مثلما سمعت سنسافر.
- تغصن وجه يمن، وعبست ملامحها لوهلة لأن شمس ستفارقها، ثم
تصنعت الفرحة:
- الله يكتب لكم الخير.

أحسّت شمس بحزن يمن فقالت:

- أنا لا أجد فراق بلدي لكن ما حيلتنا؟! سدّوا كل الأبواب في وجوهنا،
حوّلوا البلاد خرابا ولم يبق لنا عيش فيها.

مدّت يمن يدها وتحسّست الورقة، جذبتها بلطف من بين يدي شمس وطوتها.
قالت شمس باستغراب:

- لماذا طويتها؟! أردت أن نكتب فيها شيئا قبل قليل.

- لا يهم، لن أشغلك معي، اذهبي واستعدي لاستقبال أمير، أنتم رائعان
وتستحقان عيشا أفضل في بقعة أخرى من العالم، الله يسعدكم.

سحبت شمس الورقة قائلة:

- ما دمت هنا فلن أتخلّى عنك، هيا قولي ماذا أكتب على الورقة؟!

سكتت يمن طويلا، حتى حسبتها شمس غابت عن المكان، ضربت
بيدها على ركبته:

- يمن.. ما بك ولماذا الحيرة؟ قولي يا شيخة ولا تهتمي.

قالت يمن:

- اكتبي بخط عريض جدا.. وسكتت..

- ماذا؟

- كلمتان فحسب.

- فقط؟ الورقة كبيرة!

- والكلمتان أكبر، ستستحيل طوفانا أكاد أراه، سيتعالى ويلتهم كل هذا الخراب، سيلتهم العاصفة وحيثان البحر والكواسر في الجبال، سيلتهم كل القبح، وسيلتهم العمى الذي ذهب ببصري.

- رائع جدا، بالله عليك ما هي؟ هيا قولها بسرعة، أتمنى رؤية هذا الطوفان وهو يلتهم كل هذه الأشياء حتى لو التهمني معها.

- اكتبني "أوقفوا الحرب".

وضعت شمس القلم جانبا وهبت واقفة:

- بالله عليك يا يمن! هاتان الكلمتان وحسب! منذ شهور ونحن نقولها، من أصغى لنا؟

- اكتبها يا شمس ولا توجعي قلبي.

تنهدت شمس وجلست، كتبها بخط كبير واضح، وضعت القلم جانبا وقالت:

- كتبها، وماذا بعد؟!

قامت يمن من بقعتها:

- هاتي عباءتي.

لبست يمن العباءة وشمس ترقبها بصمت، تطيعها بحب.

قالت لها بنبرة عميقة:

- الآن يا شمس كوني شجاعة مثل ما كنتِ دوما.

- حسنا، إلى أين سنذهب؟!

- سنسير بها في الطرقات، أنا أنشر الورقة وأنت تدليني على الطريق، كنا طوال الأشهر الماضية نقولها في مجالسنا وعلى صفحاتنا عبر الإنترنت، اليوم كل الناس البسطاء يجب أن يقرأوا ويسمعوا ويرددوا.

سكتت شمس.. وقفت مترددة.. تحسست يمن ما حولها حتى قبضت على يدها قالت:

- شمس.. أنت لست مرغمة على فعل هذا، فتح الله لك طريق نجاة، ستسافرين مع أمير.

تحسست يمن المكان ورجعت تجلس على السرير، تأملت شمس الورقة، الكلام المكتوب بالخط الأحمر، تذكرت ذلك الخاطر المرعب، اليوم فتحت يمن أمامها طريقا مختلفا على جوانبه موت محقق، لكن دون وجود ذلك الخاطر تلك هي الوسيلة الصحيحة للخلود، الشيطان ليس له مكان في هذه الورقة، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، الله هو من يطفى نيران الحروب، هذه الورقة هي إرادة الله الشرعية، قررت وستخرج مع يمن في طريق الله، نبوءة مشرفة.

قالت:

- قومي يا يمن، لن أسافر إلا بعد إتمام هذه المهمة، هذا قدرتي.. ما يزال لي بقية دور معك يا يمن قبل الرحيل، قد يكون رحيلاً لدنيا أخرى أو رحيلاً أبدياً نحو العالم العلوي، هيا قومي.



يمن والمجهول!

أمسكت شمس بيد يمن وسارتا معا في بهو البيت، خرجت الأم تنظر،
طوت شمس الصفحة فور سماعها خشخشة رجلها على الممر الرخامي.

هتفت الأم:

- إلى أين يا بنات؟!

قالت شمس:

- يمن تشعر بملل وضيق، ستمشى على الجبل ساعة ونعود، اطمئني
يا خالة.

رفعت الأم يديها للسماء:

- الله يرضى عليك يا شمس، أحسنتِ صنعا، أخرجيها من هذه الكآبة،
الله يحرسكن بعينه التي لا تنام!

نزلت دعوتها بردا وسلاما على قلبيهما، تنهدتا بعمق وغادرتا المنزل.

كانت يمن تسير بخفة، كأنها ترى ما أمامها وتذكر معالم الطريق، لم تجد
شمس مشقة في قيادتها على الطرق، في أزقة الحي وعندما تجاوزتا بيت قاهر
نشرت شمس الورقة وأعطتها ليمن، لمعت الحروف المحمرة كدم قان وسط
البياض الصافي، أول شخص صادفهن كانت ماريا، وضعت أكياس جاءت
بها للتو من السوق على الأرض، فركت عينها واقتربت للغاية هاتفة:

- شمس! أين تمضين بيمن؟ ما هذه الورقة؟ نظري ضعف من طول
الكدح في هذه الحياة، نقرت ماريا الحروف بطرف كليل وكأنها تود القول
"أوقفوا الحرب" .. صاحت ماريا:

- يا ليت.. لكن من يقرأ زبورك يا داوود؟! على رأي المثل كلم جدار
كر كر جهل! كل يوم أخرج للسوق وأكلم كل من أعرفهم: يا ناس هذه الحرب
ظالمة، أوقفوا القتال، كل واحد يرمي السلاح و يرجع لبيته، الطيران سيمل
ويكف، وتنتهي القصة.. الكل يسخر من كلامي، لكن إلى أين ستذهبن بهذا
المنشور؟!

التفتت شمس نحو يمن قائلة:

- اسألي يمن..

قالت يمن :

إلى خط التماس، سنصرخ في الفتتين: أوقفوا الحرب !

هتفت ماريا:

- والله إنك براءة رجل، أحسن من سمالك يمن.

رأت حفيدها من بعيد صاحت به :

- تعال يا ولد وأعني على حمل هذه الأشياء.

ركض حفيدها نحوها وحمل عنها بعض الأشياء قائلاً :

- لماذا تأخرت يا جدة.. البيت ليس جميلاً في غيابك ..!

- ولد متملق .. ويقولون لماذا أسرني؟! هيا اسبقني للبيت ..

التفتت نحو شمس ويمن قائلة:

- سوف ألحق بكن.

مضت نحو البيت وتوارت عن الأنظار، لم تلحق بهن فقد غدت تحب

الحياة أكثر مما ينبغي!

سارتا وسط الحي، التقين بغادة شقيقة الشهيذة عزية، مكثت في بيتهم بعد نزوح جميع أفراد أسرتهما للقرية.

توقدت حماسا للفكرة، شابة، قوية، وشجاعة.. سارت أمامهن، كانت أعلاهن صوتا وأكثرهن جرأة، صاحت في الناس:

- يا ناس اسمعوني، الحرب وحش هجم علينا وضيّع طريق العودة، جاء وسيبقى؛ إن لم نخرجه سيقتلنا جميعا، هيا امشوا معنا نقول للذين أغوتهم الحرب كفى، نريد أن نعيش بسلام!

سمعتها جوهرة الواقعة على عتبة بيتها تنتظر عودة ابنها الذي خرج منذ ليلة البارحة ولم يعد، ذهب لصفوف الحوثة رغم أنها أقسمت عليه أن يبقى في البيت حتى تنتهي الحرب، لكن رأسه يابس، تربى على العسكرية الجامدة، لن يفهم شعور أم ثكلى، شعرت بالذنب منذ بدء الحرب لأنها اختارت له هذه الطريق.. تنهدت بمرار:

- لماذا لم أعلمه صنعة أخرى؟ ليتني متّ قبل أن أذهب لأصدقاء أبيه وأطلب منهم منحه رتبة في الجيش، استسهلت القصة وقصرت مراحل الطريق نحو الأمان، هكذا حسبتها ويبدو أنني حسبتها خطأ، والنتيجة سيموت ابني في هذه الحرب ويتبع زوجي، بالأمس قتل الشيخ زوجي واليوم سيقتل السيد ابني..

صرخت فيهن:

- أنا سامضي معكن يا بناتي، فولدي هناك، الطائرات تقصف تجمعات الحوثة كل يوم، لابد أن أردّه قبل فوات الأوان.. يا رب لطفك.. يا الله رحمتك..

خرج أبو يزن من دكانه ويده أوراق كبيرة وأقلام عديدة، كتب على كل الأوراق بكل الألوان "أوقفوا الحرب"..

خرجت أم يزن بصحبته وقد أصبحت ساقه معوجة، وخرجت الجدة، كل واحدة أخذت ورقة وانضمت للسرب، نزلت مروة تتهادى برجليها الملتهبة الأعصاب، لم تغادر الحي منذ بدء الحرب ولم تخرج في مسيرة من قبل. شعرت برغبة في التحرر من مخاوفها قالت لشمس:

- سأموت ذوبانا تحت سياط الخوف، لم أعد أحتمل، يجب أن يوقفوا الحرب. هتفت الأستاذة فاتن من نافذتها:

- وأنا أريد ورقة، انتظروني سآتي معكن، لا يموت الإنسان مرتين، يجب أن يفهموا كم نعاني ويوقفوا هذه الحرب، إذا لم نقل لهم فلن يفهموا، سيظنون أننا راضون عن هذه الحرب - لعنة الله عليها - .

هرعت سالي تدفع بناتها الثلاث أمامها.. همست لأكبرهن:

- اذهبن إلى بيت خالتكن مروة، ابقين مع أولادها حتى نرجع. اختطف ورقة من بين يدي أبي يزن وانضمت للسرب هاتفة:

- لن يرجع عارف إذا بقيت هذه الحرب مستعرة، سيموت كل شيء حولنا ونحن جلوس نتفرج، من البداية كنت أرجو الخروج في مسيرة، أهتف بكل صوتي وأفرغ شحنة غضبي.. لم أكن راضية عن ثورة ١١ فبراير.. لكن اليوم أنا نائرة ضد الحرب، يجب أن يوقفوا الحرب، سيفعلون بنا مثلما فعلوا بسوريا؟ بناتي الثلاث لم يستطعن الذهاب إلى المدرسة بسبب الحرب، العمر سيمضي وهن قابعات في دوائر الفراغ والخوف، كم سأحرسهن؟ قد تقتلني شظية أو رصاصة تخترق البيت، أو صاروخ يهدم السقف على رؤوسنا، قد يقتحم البيت لص قذر، النوافذ كضرس عجوز كاد أن ينخلع، كل يوم نسمع وعود، سنحرر تعز.. ولا يحدث شيء.. لن نصدقهم بعد اليوم.. يجب أن تتوقف هذه الحرب ..!

خرج شباب كثر من بيوت كانوا يحرسونها بعد نزوح ساكنيها .. انضموا للسرب . مشت معهم أم سمر .. كانت في زيارة لأم سامية التي تلكأت لوهلة قائلة :

- سأذهب للمستشفى لأرى سامية. ثم توقفت:

- ماذا سأصنع لها، هي نائمة لا تحس بأحد.

رفعت وجهها للسماء تستنزل فرجا، ثم مشت مع السرب ترتل التعاويذ وتدعو لابتنتها سامية بالعودة للحياة.

برزت عصاة مهند من فناء متهتك الجدران بطرف الحي الشرقي.

تساءلت شمس بصمت:

- هل سيمضي اللصوص معنا؟!

ساروا معهم بالفعل رغم هيئتهم المقرزة، وشعورهم المتشعبة وأشداهم التي تنفث الزبد؟ فاجأوا الجميع وهم يسرون آخر السرب بأقدامهم الخافية.

همس مهند لرفيقه:

- يا أخي تعبنا، الحرب قيدتنا بأماكننا، لا نقدر أن نخرج ونطلب، الليل بطوله حرب في حرب، متنا جوعا.

ترك دبان عنزاته ومشى معهم، سمعت جدة صفوان التي جاءت لتفقد ابنها بعد شوق طال وهي تتجاذب الحديث مع أم مهيووب بالمسيرة، دون تفكير تبادلنا نظرات إصرار، بعد لحظات رأهم الجمع تتهاديان من بعيد.

هتفت أم مهيووب:

- انتظرونا .. سنمشي معكم، الله يهلكك يا حرب الشؤم والدبور، نعم .. كان لا بد أن نقولها منذ البدء، أوقفوا الحرب، سافر مهيووب للعلاج ولم يعد، حالته حرجة وحالتنا بعده صعبة.

خرج أبو عقبة أعقل رجال الحي، وأوفرهم وقارا، أوقف سيرهم وهتف بهم:
 - إلى أين ستذهبون؟ تعقلوا فهذا ليس وقت المسيرات البطولية،
 سيقتلونكم مع أول خطوة خارج الحي، ارجعوا لبيوتكم وانتظروا فرج الله.
 ثم نظر لدبوان قائلا بتهكم:

- ما بك يا دبوان؟ حتى أنت ستجن في آخر عمرك!

- دعني أفعل شيئا نافعا في آخر عمري، وبعدها لا يهم عشت أو مت،
 بالله عليك هل هذه عيشة؟! يا رجل كرهت أهلي وأهلي كرهوني من طول
 جلوسي في البيت، ومن فراغ جيوبي الدائم، البيت خال من الطعام ونحن
 جلوس ننتظر الفرج، صرنا والنساء سواء، عجزة وقعيدي البيوت، من
 غير المعقول أن تتحرك النساء ونبقى جالسين، سنكون أجبن من النساء إن
 تقاعسنا، والله الموت أهون يا رجل.

نكس أبو عقبة رأسه ومضى نحو بيته، توقف قبل بلوغ المدخل لوهلة ثم
 قفل راجعا وانضم إليهم، احتضنه دبوان وربت على كتفه:

- نعم.. هكذا يا رجل، الرزق مقسوم والأجل محتوم، نموت موة
 واحدة أرحم من الموت البطيء.

كان الوقت ضحى.. المواجهات تخفّ عادة في هذه الساعة بعد ليل
 الاقتتال المحموم، الناس تفرض الحياة بحراك نشط، الأحياء المنكوبة فقط
 هي من غاب عنها النبض.

بدأت المسيرة ضئيلة، معظم أهل حي الدار شمسي هربوا بعد سريان
 إشاعة عن عزم الطيران قصف فندق الدار شمسي.. قالوا:

- كان وقع قصف حجرة العسكر على الهضبة المقابلة للفندق صبيحة
 يوم عرفة فظيعا، فكيف سيكون حالنا إن هم قصفوا هذا الفندق الضخم؟!

مشت المسيرة نحو مخرج الحي بهدوء وتوجس، كانت شمس الصباح الدافئة تداعب وجوههم بسطوع لطيف، الريح ساكنة والسماء صافية ترسم مدرجا بقطع من غمام أبيض، رنت الحاجة جوهرة بنظرها نحو السماء:
- أبشروا بخير.. السماء درج، يا الله بالفرج.

عند بلوغهم الشارع المرصوف كانت نقطة عسكر الحوثة الرابضة على فوهة الحي خالية، تحركت منذ الفجر في خطوة تكتيكية إلى أطراف المدينة، هكذا قال البعض، تنفس جميعهم الصعداء، انتعشت نفوسهم بزخم من ألق أمل تمدد وارتسم على وجوههم.

- هذه علامة توفيق إن شاء الله. هكذا قال أبو عقبة..

تساءلت الحاجة جوهرة:

- إلى أين سنتجه؟

ردت يمن:

- لأعلى.. عند خط التماس، على ذنب تلة حي الثورة.

سرت همهمات بين الجمع، مشت النسوة بخطوات حثيثة لقطع جبل التردد، المفاجأة التي أثلجت صدورهن انضمام كل من مروا بهم إليهم، كل النسوة في السوق، كل الرجال وأصحاب المحال التجارية أوصدوا أبوابها وساروا معهم، أصحاب "البسطات" في سوق الجملة تركوها ولحقوا بهم، حتى الباعة المتجولون، وطفل يبيع البيض سار معهم. همس لمن بجواره:

- اشترِ مني بيضا، الواحدة بخمسين.

انضم لهم شيخ كبير يتهدى على عكاز عتيق، جنديان نحيلان سمر الوجوه يجرسان السوق، كانا يقضمان شطيرة فول في مطعم السوق خلعا سترة العسكر ومشيا معهم، مجنون حديث العهد بالجنون؛ زائغ النظرات؛

فارق زاوية السوق ورمى حجرا يحمله طوال النهار ويتوسده كل ليلة ومضى خلفهم.

كانت زجاجة السلاح تصل لمسامعهم من بعيد تهديهم طمأنينة، المتقاتلون منهمكون في ساحات قصبة.

وصلت مسيرتهم لخط التماس في سير وادع آمن يشبه رحلة في عالم الخيال.

سألت شمس نفسها بصمت:

- هل أنا في عالم الأحلام؟! كم كان هذا الأمر هينا! لماذا لم نفعلها من قبل؟! ما قيمة الحياة دون حركة ودون فعل إيجابي؟ الخوف عدو صامت يقتل فينا الحياة، يغل فينا الشجاعة ويخلد بنا للأرض، خلق الله رؤوسنا في أعلى أجسادنا والخوف يجعلها بمحاذاة أقدامنا، ما أسوأ الانبطاح.

الناس تزيد الأمور فسادا عندما تعيش بمنطق الخوف، لا يمكنهم إيقاف الحرب بسبب الخوف، خوف من سماع كلمة "هزمن"، خوف من توقع استئساد الرابع، خوف من خسارة مكاسب غير ذات بال بجانب مكسب الوطن، مكسب الذات وبقاء الكينونة والقدرة على البدء من جديد، القدرة على منح العفو على قبول أنصاف الحلول من أجل بقاء كمال الحياة.

الإقدام والإحجام بدافع الخوف يوصل الناس إلى مضايق خانقة، العقل غائب في حالة الخوف، الرشد مُقيد، الحلم مكّم والحكمة منسحبة.

إذا طرد الناس الخوف سيرون كيف أن الأحقاد ليست أكثر من دخان أسود ينفثه سحر المخاوف، دخان يرسم غولا وهميا وفزاعة مزورة، عندما يخذم دخان الخوف تتضح الرؤية، نرى الجانب الحسن في ذواتنا، نحسن الظن ببعضنا ونتوقع الخير؛ فنجده.

نرى قبح السلاح؛ فنرميه بعيدا لنعود كما كنا بشرا، رقة الحب فوز حقيقي يستحق التضحية بتاج الكبرياء الشيطاني، الكبرياء رداء الله، الخوف يجعلك تلعب دور المتكبر كيلا تقترب، يخضعك لسلطوته فتتجافى، تغوص في سواده وتخفي جنبك، تبقى بمنأى عن وضوح الرؤية، تتجلمد في جورب الشيطان.

بعد ساعة من بلوغهم لمفترق الموت الفاصل بين منطقة الحوثة ومنطقة المقاومة كان الناس قد تكاثروا من حولهم، أعداد غفيرة انضمت لهم، مراسلو قنوات فضائية انتشروا بينهم، الكاميرات تنقل صورا مباشرة، وتصريحات من الجميع، اشرأبت أعناق القناصة من الجهتين ترقب الحدث، الاقتتال محتم في المنطقة الغربية من المدينة.. قال أحدهم:

- قوات التحالف تزحف، طائرات الأباتشي تمشط الطريق أمام المقاتلين على البر، سيحررون تعز.

سرت بينهم الإشاعة مثل شرارة في الهشيم "تعز تتحرر الآن" هيا بنا لنرجع لبيوتنا إذن.

صاحت بهم عادة:

- ما زلتُم تخذعون أنفسكم حتى آخر لحظة؟ كم مرة سمعنا هذا الخبر؟ ثم نستيقظ في الصباح لنجد القتال مستعر والحوثة في أماكنهم، هذه كذبة كسابقاتها، نحن النساء لن نغادر، سنبقى.

سرت همهمات بين الرجال.. قال أحدهم:

- لا داعٍ لتظاهرتنا وقد جاء المدد لتحرير تعز.

- من يدري؟! قد تكون إشاعة..

- شق رجل طويل القامة ملفوح الوجه الصفوف وتقدم صائحا:
- لن نصدق أكذوبة التحرير هذه، سنتقدم ونفك الحصار، الأهالي محاصرون في وسط المدينة منذ شهور، يُقتلون بالجملة والعالم ساكت، لماذا لا نتقدم ونكسر هذا الحصار؟
- تعالَت الأصوات ما بين مؤيد وممانع.. قالت شمس ليمن:
- هل تسمعين ما يقوله هذا الرجل؟
- سمعته.. لا شأن لنا بما يقول، لم نخرج لنصطدم بأحد، خرجنا من أجل وقف القتال في المدينة وإحلال السلام.
- يبدو أن الأمر أفلت من بين أيدينا، أنتِ لا ترين ما أرى، صرنا أنا وأنتِ قطرة في بحر!
- أنا أرى ذلك بحواسي، هذا فوق ما كنت أتمناه، إنه شيء رائع.
- لا يا ليمن، أنا أتوجس شرا، هيا امشي معي، سنعود إلى البيت.
- لا.. ليس بهذه السرعة، سنبقى حتى الغروب.
- هذا ليس وقت عنادكِ يا ليمن، الجموع بدأت تضطرب، وذلك الرجل يهيجهم، تباله مسعر الحرب هذا.. من أين جاء؟!!
- اهدئي يا شمس، لن يحدث شيء، أنا مطمئنة.
- سكتت شمس مرغمة وهي ترى ثبات وهدوء ليمن.
- تبخر ذلك الرجل ذو القامة الطويلة والصوت الجهوري بين الجموع وقد ربط حول رأسه عصا به حمرء.. صاح بهم:
- حتى متى نتخاذل؟ انظروا ماذا فعل هؤلاء الغزاة بمدینتنا الجميلة، تخيلوا معي وضع النساء والأطفال المحاصرين، استشعروا معاناتهم،

أخرجتنا إرادة كونية دون تخطيط مسبق من أجل إنقاذهم، هيا بنا.. ولنحطم حاجز الخوف ونكسر هذا الحصار الظالم.

كانت شمس معلّقة ناظرها بذلك الرجل حين زفرت قائلة:

- ويلي منه، أين رأيته من قبل؟!

في تلك اللحظة هوت يد ثقيلة على كتفها.. نظرت:

- أمير! حمدًا لله على سلامتك.

قال مستنكرا:

- ماذا يحدث هنا؟ وما الذي أخرجك مع هؤلاء؟!

أومأت برأسها نحو يمن.. قال باندهاش:

- ويمن أيضا! ذهبْتُ للحَي فوجدته شبه خال، سألت ماريا عنكم

فأخبرتني، ما الذي تفعلينه يا شمس؟ ستفقديني عقلي، ولماذا جئتِ بيمن إلى هنا؟

قالت يمن:

- لا تلمها رجاء، أنا من أخرجها.

مسح ببصره التظاهرة، قرأ الشعارات وضرب كفا بكف وصاح بهن:

- ما تفعلنه هو الجنون بعينه.

جذب شمس من يدها قائلا:

- هيا.. فلنرجع إلى البيت فورا.

- وماذا عن يمن؟

- يمن أيضا سترجع معنا.

قالت يمن:

- لا.. أنا سأبقى، عودي يا شمس مع زوجك فورا كما سفر.

- لا.. لن أتركك ستمضين معنا.
- لا تخافي عليّ.. كل نساء ورجال الحي معي، هيا اذهبا ولا تهدرا مزيدا من الوقت.
- تلکأت شمس قليلا، أمعنت النظر في وجه يمن التي بدت رابطة الجأش، ساكنة النفس.
- جذبها أمير من يدها بعنف ومضى بها يشق الصفوف كالبرق كأنها يسابق القدر.
- انزاحت الجموع خلف ذلك الرجل الطويل، ألقت شمس نظرة أخيرة عليه ثم صاحت:
- تذكرت أين رأيته، أمير قف رجاء.. سنعود بيمن معنا، الوضع خطير، ذلك الرجل أعرفه.
- هيا يا شمس، لن أرجع خطوة واحدة للوراء.
- لكن هل تتذكر ذلك الذي قذف بشباب الساحة مرارا في مواجهات مميتة، إنه هنا.. ذلك الطويل هو محرك الشر.
- لا يهمني هنا أحد سواك.
- مضت معه والقلق يعتصر قلبها.
- اندفعت الجموع كموج هادر متجهين نحو تلة حي الثورة لكسر الحصار، ثم السير إلى وسط المدينة.
- فتح القناصة أبواب الموت عليهم، في البدء قذفوا وابل رصاصهم في الهواء بغية إخافة الناس وتفريقهم، وعندما رأوا إصرارهم على كسر الحصار، أخذوا يسددون رمياتهم على الأقدام والسواعد، تناثرت الدماء والأشلاء،

تراكض الجميع وتطايروا كالعهن المنفوش، ركب الناجون رياح الخوف،
وتوقف بعضهم لإعانة الجرحى على الهرب، وهرولت النساء مشمّرات.
أفلتت شمس من بين يدي أمير وقفلت راجعة نحو يمن وهي تصيح:
- يمن.. يمن..

أسقطنها جموع النساء الفارات، كدن أن يقتلنها دهسا، سح أمير بين
موج بشري مذعور وانتشلها من على الأرض بصعوبة وتنحى بها.
توسلت إليه:

- أرجوك.. يمن عمياء لا تستطيع الهرب، أنا من أخرجها، سأموت
كمدا إن أصابها مكروه.

كان سيل الرصاص ينهمر كسوط عذاب.
صاح بها:

- لا يمكننا فعل شيء، الله يتولاها برحمته.
صرخت مبتعدة:

- لا لن أتركها.. إما أن ننجو معا، أو نموت معا.
قالت شمس ذلك ثم سكنت فجأة وجحظت عيناها لوهلة، ثم تراخت
جفونها رويدا رويدا.
صاح أمير:

- ما بك يا شمس.. ماذا حدث لك؟
رفعت شمس يدها نحو كتفها الأيمن، تجمدت الدماء في عروق أمير
وهو يرى كفها يعود مضرّجا بالدماء، نظر فإذا برصاصة مغروزة في كتفها،
حملها بين ذراعيه وهروا مبتعدا.

قبيل الغروب.. كانت الشمس ترسل وشاحها الأحمر محاكية لون الأرض
المصبغة بالدماء.

كان الجمع قد تبدد.. الصمت يلف المكان.. سكنت البنادق.. نفثت
فوهاتنا نفسا حارا بعد هدر طويل..

هبت رياح باردة وعصفت من حولها.. ارتعشت أطرافها بهزة خفيفة..
تحاملت على نفسها وزحفت تتحسس الأرض بحثاً عن ركن دافئ.. زلقت
يدها بسائل متخثر.. اشتمته ففزعت:

- دماء.. يا إلهي رفقا بي.

هتفت بنداء خافت:

- هل من أحد هنا؟ أين أنتم؟

خنقتها العبرة.. بدأت بالبكاء وصرخت بعويل مؤلم:

- كيف ذهبتم وتركتموني وحدي؟ أبي.. حازم.. شمس.. أين ذهبتم؟
هل يسمعي أحد؟

تعكزت على جلمود خوفها وقامت تمشي بخطى متعثرة، اصطدمت
بحافة الرصيف، تهاوت على طرف الشارع فتشبث بغصن شجرة، تحسستها
وتكومت تحتها، دسّت وجهها في حجرها تخفي وجعا وفزعا، شعرت بأنها
تتضاءل، تتناثر ذرات بين شفاه ريح عاصفة، أحسّت بحلول الظلام فتعاظم
خوفها.. هجست:

- هل أبقى حتى يأتوا لإنقاذي أم أتحرك؟

قد أجد من يوصلني للبيت.. تراجع:

- لا.. لن أتحرك من مكاني، سيفقدونني وسيهرعون لإنقاذي.

مرّ وقت لا مؤشر له في وجدانها.. سكنت الرياح.. انبعث من بعيد

صخب قعقعة سلاح، انسل من وسطه صوت وقع أقدام ثقيلة تهوي نحوها
بخطى رتيبة، أرهفت حواسها؛ الصوت يقترب منها بتصاعد وئيد، تسمّرت
ببقعتها وألصقت جسدها بجذع الشجرة، كتمت أنفاسها وهي تشعر بذلك
القادم يقترب منها أكثر فأكثر.. وقف قريباً منها وقال بصوت عميق:

- تعالي معي يا يمن.

انكملت على نفسها وتيسّت أطرافها لوهلة.

قال ذلك المجهول:

- تعالي.. ستكونين آمنة معي.

انفكّت يمن من خوفها بصعوبة وقالت بصوت متهدج:

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟ دعني وشأني، سأبقى هنا حتى يأتي أهلي
ويأخذوني.

- لن يأتوا.. هيا قومي معي فلن أؤذيك، ثقي بي.

- من أنت؟

- صديق.

- صديق لأبي أم لزوجي حازم؟

- صديق للجميع.. هيا فلنسرع بمغادرة هذا المكان، قد تستخدم المواجهات
في أية لحظة.

كان صوته هادئاً، ونبرته توحى بالطمأنينة.. تحركت يمن بتردد ومدّت
يدها وقامت قائلة:

- سآتي معك.. هل تعرف الطريق إلى بيتنا؟

- أعرف كل الطرق.

- خذني إليه.

_حسنا.

مشى بها خطوات.. قالت:

- قلت بأنك صديق لحازم، كيف حاله؟

التزم الصمت ولم يجبها.. انهالت عليه بسيل أسئلة:

- هل تعرف أين هو الآن؟ وأبي؟ لم أره منذ مدة، هل رأيته مؤخرًا؟ هل تعرف الطريق إلى بيتنا؟

كان دويّ المعارك المنبعث من غرب المدينة ينبئ عن اشتداد القتال هناك، اشتد عصف الرياح؛ جذبها ذلك المجهول بشدة وسارع الخطى..

صاحت به:

- رفقًا.. أنا لا أرى.

توجست شرافص رخت:

- إلى أين تمضي بي؟

لم يجبها.

- لماذا لا تجيبني.. إلى أين سنمضي؟!

علق السؤال بلسانها:

- إلى أين؟ إلى أين؟!

علا صوت السلاح.. تبدد صوتها بين عزف موت شيطاني.. عرج بها ذلك المجهول على مسالك غريبة بعيدة عن حي الدار شمسي.. غابا في دهاليز البلدة المنكوبة، وتلاشى خيالهما بين ركام الظلام.

تمت بحمد الله

تعز ٢٠١٦/٣/١٥